محمد أسليم

أشباه قصص



إدراجات فايسبوكية

محمد أسليـم

أشباه قصص

إدراجات فايسبوكية

الكتاب:

أشباه قصص

الطبعة الأولى 2019

المؤلف:

محمد أسليم

لوحة الغلاف:

الفنان السوري خالد الساعي

السحب: مطبعة بلال

101، شارع سيدي سليمان، حي المدينة المنورة، حي الأمل نرجس، فاس

الهاتف: 05 35 61 86 03

الإيداع القانوني: Dépôt Légal : 2019MO5676

ردمك: ISBN: 978-9920-38-808-5

صديقي اليساري الإخوانجي

تجدد لقائي يوم أمس افتراضيا بصديق لي بعد انقطاع خبر كلانا عن الآخر منذ مستهل تسعينيات القرن الماضي في أعقاب ليلة ليلاء جمعت وقتذاك ثلة أصدقاء من أهل الإبداع والفكر والصحافة، فكان طبيعيا أن يكون اللقاء الجديد حارا، وأن يستفسر هذا عن أحوال ذاك وعمَّ استجد في حياته خلال كل تلك المدة، فإذا بحال صاحبنا كالتالي:

له الآن زوجتان: واحدة، وهي أولاهما، تعيشُ داخل المغرب، أنجب منها أبناء، الثانية خارج المغرب لم يُرزق منها أولاد، وهو يمضي وقته الآن متنقلا بين المغرب وخارجه، يقضي ثلاثة أشهر هنا في المغرب وثلاثة أشهر هناك في فرنسا. بالإضافة إلى ذلك، فهو مرتبط الآن بسيدة أصغر بكثير من السابقتين وأجمل منهما بكثير، على حد تعبيره، فهل تنتهي قصته الجديدة بإقناع الزوجتين لترخصا له دخول القفص الذهبي للمرة الثالثة؟ إذا تحقق هذا، فهل سيُذنب أحد طرفي الرواية ويكون تأنيب الضمير هو فاتورة القبول أم سيهتدي البطل إلى أدوار أخرى؟ أم ستأتي بطلة الفيلم الجديدة، وهي المرأة الثالثة، بما لن يخطر على بال مُخرج الشريط، فيقدم لها

الممثلون الثلاثة، وهم الزوج وزوجتاه الأولى والثانية، فروض الطاعة والولاء؟

كان من الطبيعي طرح سؤال ما إذا كان قد تزوج الثانية برضا الأولى، فكان الجواب بنعم؛ إذ حررت بخط يدها وثيقة الموافقة على زواجه الثاني، وهي بذلك لم تقم سوى بتحمل مسؤوليتها كاملة فيما قامت به من قبل، قال الصديق. وما قامت به هو أنه كان مرتبطا بعلاقة حب مع صديقة لها، وكانت هذه على علم بتلك الصلة، ومع ذلك لم تتردد في مراودته، بل أمعنت في المراودة إلى أن أوقعته في شباكها؛ استضافها يوما إلى بيت والديه، وفي غمرة انخطاف اللقاء الذهولي وانتشائه، تبين أنها ساحرة، إذ فعلت به ما فعلت «بيدخت» بالملكين هاروت وماروت قبل أن يُمسخَ الثلاثة (= الملكان والمرأة)، فتتحول الأولى إلى كوكب الزهرة وتُعلقُ في السماء، ويفقد الملكان جناحي الصعود إلى السماء، فيعلقان بسور بابل وتوكَل إليهما مهمَّة تعليم الناس السحر، كما يورد معظم مفسري الآية:

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ...» (البقرة، 102).

سجد صاحبنا في محراب الساحرة كما سجد الملكان لصنم حسناء بلاد فارس من قبل. وتجنبا لأن يُمَسَخَ هو الآخر فيجد نفسه وراء قضبان السجن، فقد فرض والداه عليه أن يتزوجها، فامتثل لأمرهما... وبمزيج من الغضب ورغبة الانتقام، رحلت عشيقته إلى بلاد الديك، وتزوجتْ هناك، لكنَّ نار العشق ظلت بداخلها مستعرة، فطلقت زوجها الرومي، بعد مرور عشر سنوات على زواجها به، ثم عادت إلى المغرب طالبة يد حبيبها الأول من زوجته، وهي صديقتها القديمة الخائنة، عملا بمذهب:

نقِّلْ قلبَكَ ما شئتَ من الهوى *** فما القلبُ إلا للحبيب الأول

فما كان من الزوجة إلا أن قبلت إرجاع قلب زوجها لمالكته الأولى، تحت تأنيب الضمير وتوبيخه، فاقتسمت الاثنتان الرجل. ومن باب الاعتراف بالجميل ورده بالمثل، اعتبرت الزوجة الثانية أبناء الزوجة الأولى بمثابة أبنائها، فتكفلت بمصاريف دراستهم، وقسط كبير من متطلباتهم، وربما استقدمتهم مرارا إلى فرنسا ليقضوا عطلهم معها هناك...

لم تنته الحكاية هنا. ربما كان صديقنا اليساري يمهد لتفسير ارتباطه بالقادمة الأخيرة عندما قال:

- لم أكن لأعترف بوجود العشق والحب إطلاقا لو لم يقع صديق لي، في منتصف الخمسينات من عمره، في حب فتاة في سن أصغر بناته، وهام بها إلى أن أقامت في لسانه، فصار يتغنى بجمالها ويهذي بعشقها أينما

حلَّ وارتحل... وهو صادقٌ في إحساسه، إذ ترافق الدموع حديثه عنها غير ما مرة. ولحسن الحظ أن الأمور وقفت هنا، فلو تخطت القصة حدود الغزل العُذري لكان الله وحده أعلم بمآلها.

كان معنا صديقٌ آخر، ففسرنا (الصديقُ وأنا) الأمر بما يلي:

قد لا يكون وراء الحكاية كلها سوى مراهقة الخمسينات التي يجتازها العديد من الرجال في هذه المرحلة من العمر، وقد يكون البكاء ليس من شدة التعلق بالبنت الصغيرة، ولكن من قسوة متاريس المنع: ممنوع الزواج بامرأة ثانية دون موافقة الأولى، ممنوع زواج الفتيات قبل سن البلوغ، ممنوع زواج الكهول بالصغيرات، ممنوع إقامة علاقة خارج مؤسسة الزواج... ولولا هذه المتاريس لكان أقل ما يمكن أن يقوم به صاحبنا العجوز هو أن يهرول إلى والدي البنت طالبا يدها، فلا يردا طلبه، فيقيم عرسا على غرار الأعراس الموثقة بأشرطة سمعية بصرية في شبكة الأنترنت، حيث يظهر عرسان مشارقة عجائز في الثمانينات أو التسعينات بجانب عرائس لم تتجاوزن أعمارهن عقدا ونصف...

إلى هذا التفسير أضيف الآن: لو كان سيء الحظ الذي صَرَّف عشقه بالبُكاء ذكيا، وربما أيضا داهية وخبيرا بنفسية النساء، كصديقنا اليساري الإخوانجي، لاجتهد فأبدع ألف حيلة وعلة ليتزوَّج قرينة أصغر بناته، بموافقة زوجته، ولتقدمت ربة بيته وبناته موكب الخاطبات...

قبل صديقنا متعدد الزيجات تفسير لغز العجوز الولهان، دونَ أن يُفصح عما إذا كان هو الآخر يجتاز الآن مراهقة الخمسينات من عمره أم أنه يقدم الدليل القاطع على أنَّه ليس في استطاعة الدين ولا القانون ولا بعض منظمات المجتمع المدني، ولا أي قوة في العالم، أن تحول، سواء في بلادنا أو خارجها، دون وجود أشكال من العلاقات يتفنن في «إبداعها» ونسجها رجالٌ ونساء من داخل الأقفاص الذهبية وخارجها مرتدين أقنعة شتى وبعيدا عن كل القيود...

الفخذان للزوجة والصدر للزوج!

لا أعرف هل كان من حسن حظي اليوم أم من سوئه أني خرجتُ متأخرا شيئا ما لتناول طبق الكسكس الأسبوعي في المطعم الذي اعتدتُ على أكله فيه كل يوم جمعة. هو مطعم ليس بالمتواضع جدا ولا بالفاخر جدا، وسعر الأكل فيه عموما مناسب. وجدتُ المطعم مكتظا عن آخره، سألت النادل:

- هل بقي كسكس؟
- لم يبق ولا طبق واحد!

عاتبتُه:

- هل كان ذنبي أني جئت متأخرا اليوم بربع ساعة لا غير؟!

ودون انتظار أي جواب، انصرفتُ إلى مطعم لا يقل جودة عن الأول، ومع ذلك فسعر طبق الكسكس فيه أرخص بكثير؛ «ذنب» المطعم الثاني الوحيد أنه لا يوجد في موقع جيد، فلا يكتظ بالزبائن كسائر المطاعم والمقاهي التي تقع في الشوارع، لذلك كفر عن «ذنبه» بتخفيض

أسعار وجباته. الناس يفضلون الجلوس في الفضاءات الموجودة في الشارع، لكي يستهلكوا الطعام ويحتسوا القهوة والشاي والعصائر والمشروبات الغازية، ولكن ربما أيضا ليتناولوا أشياء أخرى من أجساد البنات والنساء المارات في الشارع، أعينهم بها أعلم وأدرى. كان المطعم الثاني قد أغلق نهائيا. لم يفاجئني إغلاقه، بل تعجبتُ لصموده شهورا عديدة قبل أن يرفع راية الاستسلام؛ ففي هذا الحي أصبح أصحاب المطاعم والمقاهي هم الآخرون وحوشا تشبه وحوش العقار: يكون لأحدهم مقهى أو مطعم هنا، لكن يأتي آخر فيفتح مقهى أو مطعما قبالته، فيملأ سائر ثغرات وعيوب المحل القديم، كأن يأتي بديكور فاخر، وكراسي وموائد أنيقة جدا، ويشغل نادلات بنات، يحرص على انتقائهنَّ بحيث يكنَّ صغيرات السنِّ، أنيقات جميلات رشيقات، وربما يخفض سعر المأكولات والمشروبات، فما تمضي بضعة أسابيع حتى يفلس صاحب الفضاء القديم، فيضطر للإغلاق، لأن زبائنه يفرون منه إلى المحل الجديد، وهكذا دواليك.

ما علينا...

«لا كسكس اليوم»، قلتُ، ثم أخذتُ طريق العودة إلى المنزل بعد أن تسوقتُ فاكهة، وتناولت «زلافة صيكوك»، وحبات تين مكسيكي عسى أن تستيقظ موهبتي في الطبخ فتجود بطبق أتدبر ترتيقه بما تيسير في البيت من خضر، وما إلى ذلك. ولكن عندما اقتربتُ من المنزل، شاهدتُ

موائد مطعم فاخر فتح حديثا مملوءة بأطباق كسكس، قلتُ حسنا، ها هو الكسكس. لأجرب حظي هنا، سألتُ النادلة:

- هل بقي عندكم كسكس؟

- نعم

- حسنا، هاتني واحدا

دخلتْ النادلة في حين جلستُ في مائدة، ولكن الفتاة عوض أن تحضر الطبق كما توقعتُ، عادتْ وقالت لي بنبرة شبه مُحذِّرة:

- سعرُ الكسكس عندنا 65 درهما للطجين!

قلتُ لها لا مشكلة، وإن كانت عودتها تلك مشكلة حقيقية، في الواقع، لأنَّها فضحت بما لا مجال للشك فيه حكمها المسبق عليَّ كما يفعل معظم المغاربة. فلكوني أهملتُ شعر رأسي إلى أن أخذ يتدلى، ولكوني لم أحلق ذقني منذ بضعة أيام، ولكوني أحمل حقيبة ظهر تُبديني كمسافر تائه أو كشخص لفظته للتو حافلة قادمة من إحدى القرى المجاورة، ولكوني أرتدي بطلون دجين، ولكوني بدأت أتقدم في السن، بحيث صار الكثيرون يدعونني بـ «الحاج»، وما إلى ذلك، فربما توقعت النادلة أني قد لا أقوى على تسديد ثمن ما سآكله. وتجنبا لما قد لا تحمد عقباه إذا اتضح لاحقا أنني بالفعل لا أستطيع الأداء، فقد حذَّرتني عملا بقاعدة: «قد أعذر من أنذر». تصرفتْ بمنتهى العقلانية، من وجهة نظرها.

حضر الكسكس، وما مضت لحظات حتى جلستْ قبالتي عائلة تتألف من زوجة وأب وابن وبنت، جلست الزوجة في مقعد مقابل لزوجها في حين جلس الابن والبنت بجانب بعضيهما. وما إن مضت بضع دقائق حتى وضعت النادلة في مائدة الجماعة دجاجة كاملة، وأرزا وبطاطس مقلية، وسلطات، وما إلى ذلك. سررتُ: مع أنَّ هذه الأسرة الصغيرة لا تبدو عليها علامات اليُسر، فقد تدبرت أمر تناول وجبة غذائها اليوم خارج البيت، بل ربما كانت تأتي إلى هذا المحل مرة في كل أسبوع لتكسر الروتين وتجدد أواصر المحبة. وبالفعل، فثياب الزوج والزوجة والأبناء كانت نظيفة جدا، كأنها ملابس العيد. لاشك أن الزوجة قد تدبرت أمر غسلها وكيها إلى أن أكسبتها رونقا وجمالا. تبدو الزوجة تقليدية، من خلال ملابسها. أغلب الظن أنها ربة بيت، في حين يبدو الزوج كسائر الأزواج العاديين الذين ينحتون الصخر أو يقبضون على الشوك بأيديهم، كما يقال، لكي يوفروا حاجيات الزوجة والأبناء...

ومع استغراقي في الأكل، واجتنابي ما أمكن متابعة تلك الأسرة بالنظرات، فقد لفت انتباهي أن الزوجة كانت تمد يدها إلى الجانب الآخر من الطبق، أي إلى الجهة القريبة من يدي زوجها. كانت الحركة من التكرار بحيث لا يمكن ألا تلفت انتباه من يجلس بجانب مائدة تلك الأسرة

أو قبالتها: خمنتُ أن تكون الزوجة متعلقة بزوجها. فمن باب هذا التعلق، كم زوجة تناول زوجها الأكل بيدها، علامة على حبها واحترامها له وإخلاصها له، وما إلى ذلك، فتنتقي بأصبعيها أجود قطعة خضر أو لحم، ثم تمدها إلى فم زوجها، فيأكلها. وقد يبادلها التصرف نفسه، فيناولها هو الآخر بأصبعيه قطعات من أجود ما في الصحن...

ولكن عندما رفعتُ عيني وجدتُ الأمر بخلاف ما توقعتُ تماما، فقد وضعت النادلة الدجاجة المشوية فوق المائدة بحيثُ جعلت فخذيها قبالة الزوج وصدرها قبالة الزوجة، ما يفيدُ أن عاملة المطعم استنتجت، من خلال قراءتها للباس الزوجين ومظهريهما الخارجي، أنَّ الزوجة كانت ربة بيت، وأنَّ الزوجَ هو من سيؤدي ثمن الوجبة وليست الزوجة، وأنه الآمر الناهي في البيت، وبذلك يحق له أن يأكل أفضل ما في الدجاجة، وهو الفخذان، فوضعتهما في متناوله... أما الزوجة بحركاتها الآلية المتكررة تلك، فلم تكن تُطعمُ زوجها، بل كانت تفترس فخذي الدجاجة، وكأنها كانت تستعجل إنهاءهما!

مممه، قلتُ، ثمَّ تذكرتُ مطعما آخر، كنتُ بمجرد ما أجلسُ في إحدى موائده، تأتي النادلة:

- مرحبا! ما تريد؟

- ربع دجاجة.

- الفخذين أم الصدر؟

وتعيد السؤال أكثر من مرة، مصرَّة على تثنية كلمة «الفخذ» وإفراد كلمة «الصدر» (الفخذين ولا الصدْر؟)، وهي تبتسم وتقوم بحركات يدوية لا تدع مجالا للشك فيما تقصد بسؤالها: تلمح بالفخذين إلى الجزء السفلي من جسد المرأة وبالصدر إلى جزئه العلوي!!! كأنها سؤالها طريقة ملتوية في قول:

- هل تريد متعة كاملة أم مجرد لمس وعناق وبوس؟

علما بأنَّ تلك السيدة كانت لا تتجاوز بسؤالها حدود الفكاهة والمزاح، بل ربما كانت تُسبقُ سؤالها بمناداتي بـ «الحاج»، فتقول: «ماذا تريد أ الحاج؟ الفخذين أم الصدر؟ لتسبغ على حوارها ذاك طابعا سورياليا، إذ بحرصها على مناداتي بالحاج، كانت تنصب حواجز من الاحترام بيني وبينها، فلتفني بهالة من الوقار، أو تعتبرني رجلا «انتهت صلاحيته»، ولكنها في الآن نفسه، من خلال إصرارها على دس الإيحاءات والتلميحات الجنسية في الكلام، كانت تكسر تلك الحواجز وتسخر من القواعد الاجتماعية إما استهزاء من القدر الذي ساقها إلى العمل نادلة أو لإمتاع الزبائن وبعث السرور في أنفسهم لكي يصبحوا من رواده الدائمين فيكتظ المحل دائما بهم، فلا يفلس صاحبه ولا يضطر إلى إغلاقه....

وبربط هذا بذاك، أظنني - أو خيل إلي أنني - فككت لغز افتراس المرأة للفخذين من أمام زوجها، لاسيما عندما استحضرتُ أنَّ اليومَ يومُ جمعة، وأن الكثير من الأزواج المغاربة يجمعون بين «شعبان ورمضان» أو بين «الحج والزيارة»، كما يقال، أي يضربون عصفورين بحجر واحد، يحلق الزوجان في أجواء الفراش العليا ليلة الخميس، ثم يستحمون صباح الجمعة. بعد ذلك، منهم من يذهب للصلاة، ومنهم من يأتي إلى مطعم رفقة زوجته وأبنائه أو يزور أحبابه وأقاربه... إذا صحَّ تخميني، فمن خلال افتراس الزوجة لفخذي الدجاجة، فهي كانت تنتقم انتقاما شنيعا من أنثى فاحشة، هي تلك الدجاجة التي تسللت في غمرة لقاء رومانسي نادر بين زوجة وزوجها، ثم تمددت بينهما، ووضعت فخذيها قبالة الزوج، وأشرعتهما قائلة له: «هيت لك!»

بعض التعقيبات على النص

«سرد جميل وسلس يخبرنا عن السارد بقدر ما يصف مشاهد بفضائها وشخصياتها. نستشف من خلال عملية الحكي أن السارد يعرض ظاهرة اجتماعية أصبحت تطال بيئته، وهي وحدة رجال لا هم بالشباب ولا هم بالمسنين. ظاهرة اجتماعية في مجتمع إسلامي عكف على التحلق حول قصعة الكسكس يوم الجمعة كأحد طقوس الأسرة في مجتمع إسلامي. وحدة السارد/الحاكي مؤلمة المجتمع يتحلل ويبتعد عن عاداته وتقاليده المؤسسة هويته. إذا

كان نجيب محفوظ يحتسي قهوته في مقهى المرايا قبالة الحسين في حي خان الخليلي ويستلهم شخصياته ومواضيع رواياته بعد حياة أسرية واجتماعية، فساردنا في هذا المقام يبحث عن أسرة بأجوائها وتفاعلاتها من خلال مطاعمها المؤثثة بنماذج بشرية تتوخى أسرة أكبر Vive le célibat.» (الحسن بنتاسيل).

«سردٌ ماتع... والتقاط ساخر لسلوك المغاربة وبعض التفاصيل التي تمر دون أن ننتبه إليها.

أتأسف لأنك لم تتناول الكسكس في مطعمك المعتاد.. سبق وأن دعوتني إليه في إحدى جمعات العام الماضي وقد كان الكسكس لذيذا فعلا (كسكس غرباوي أصيل مع كأس لبن ههه...).» (عماد أحيطور).

«سرد بليغ لتجربة تماهيت معها، حتى خيل الي بأنني عشتها مرة أخرى...» (محمد الخمليشي).

«والجناحان للقارئ... ذكرتنا بنكتة الفقهاء في وليمة، حيث أراد اثنان منهم أن يستغفلا المجموعة التي ضمتهما، فقال أحدهما للآخر: صَدِّرني وصَدِّرْ نفسك وجَنِّح الباقي.» (محمد كروم).

«هاهاهاها. جلت بمخيلتنا جولان دروني drone تجاوز الكسكس الذي أظن أن ثمنه كان زائدا عن اللازم (...) ذكرتني بغداء في أحد المؤتمرات شاركني في المائدة خيرة أساتذتنا

الجامعيين، ومن حظنا في ذلك اليوم كان أكلة الدجاج، ولا أخفيك ما قيل وما تداول من حديث عن فخذ الدجاج وما بين الفخذين بالتحديد. كانت تروج في مخيلتي أشياء لم أجرؤ على قولها. ولو قلتها لانفجر الجالسون ضحكا، ولكن أنا حشومي. المهم شكرا لك على السباحة الخيالية، ونتمنى ألا نسمع يوما ما شي مصيبة بحال ديال سيدي قاسم مع موضوع أكلتك الكسكسية.» (القادري عبد المالك).

«أدب قسمة الدجاج: اتفق فقهاء على قسمة دجاجة شرط أن يأخذ كل واحد منهم ما يوافق آية يقرأها. وبعدما أخذوا قسطا من الراحة، قال الأول: "والتفت الساق بالساق"، فطلب الفخذين، قال الثاني: "ألم نشرح لك صدرك"، قال الثالث: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة"، أما الرابع فضل ساكتا، ولما هموا إلى الطنجرة وجدوها فارغة، إذ ذاك قال الرابع: "فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون".» (اسماعيل النوالي).

«مزاوجة رائعة بين الصدر والفخذين حيث يحدث المسموح به والمحظور في السر والعلن. لوحة تشد القارئ شدا وتلك ميزة السرد الراقي.» (أحمد العمراوي).

قدَمٌ في الرحمان وأخرى في الشيطان

كنتُ مستغرقا في تناول وجبة الغذاء في المطعم عندما حلَّ زوجان برفقتهما طفل صغير يتعثر في خطواته الأولى. نزلا للتو من سيارة ركنت على جانب الرصيف المقابل للمطعم. أوَّل ما أثار في الزوجين قامتاهما الطويلتان على نحو مُلفتٍ، «طويلا النجاد رفيعا العماد»، ما شاء الله، لو صعدا إلى حلبة ملاكمة لأمتعا المشاهدين بواحدة من أمهات مباريات القرن! كأنَّ الزوجة اختارت زوجها عملا بالأغنية الشعبية «طويل وعالي يا لالة حيت دكالي»، فانتقت بذلك أجمل الرجال قدا وقددا، وكأنه اختارها إمعانا في تحقيق مطالب المرأة، في أيامنا هذه، بالمساواة في كل شيء، فانتقاها طويلة كي يعفيها من أن تشرئب إليه بعنقها، عندما يكونا سائرين في الشارع، ومن أن تلبس حذاء عالي الكعبين، على نحو ما تفعل الكثيرات ممن تعج بهنَّ الشوارع في أيامنا هذه... يفعلن ذلك بغرض النصب على مشاريع أنصاف حياتهنَّ، فتتظاهر الواحدة لمشروع نصف حياتها بأنها طويلة القامة (وما أكثر الرجال الذين تنطلي عليهم هذه الحيلة)، فلا يفطن هذا الفارس للأحلام لإيقاع صاحبته به إلا بعد فوات الأوان،

أو أنه (= الزوج الذي دخل المطعم رفقة زوجته) اختارها ليعفيها ويعفي نفسه من مشاق أخرى أثناء التحليق في مياه الفراش العليا والغوص في أجوائه السفلى...

إلى هنا، كل شيء جميل، بل وقد يقتضي الثناء على هذين الزوجين الاستثنائيين حتَّى، لمساهمتهما في تحسين النسل، وإنجاب قامات تحتاج إليها مهنٌ، كالأمن والجيش والدرك، حاجة ماسَّة لحماية ثغور الوطن وإتباب الأمن الداخلي، وكذلك لإشباع حشود المواطنين ركلا ورفسا وضربا إذا حميت رؤوسهم وخرجوا إلى الشوارع محتجين... ولكن الاثنين دخلا إلى ساحة المطعم بخطو متثاقل يشي بأن شيئا ما بينهما لم يكن على ما يُرام؛ فالزوجُ يبدو كأنه بمجرد ما استيقظ من النوم ارتدى من الملابس أقرب شيء إلى يديه، ثم اصطحب زوجته وطفله الصغير إلى المطعم، دون أن يكلف نفسه ولو عناء حلاقة الوجه وتسريح الشعر؛ لم يول أي عناية لهذا الطقس الجميل، المتمثل في تناول وجبة طعام خارج البيت، الذي تشتهيه كل زوجة. أكثر من ذلك، فقد ارتدى الزوج أيضا قناعا عبوسا أبداه كأنه قادم إلى عقوبة وليس إلى فضاء جميل لتبديد روتين البيت، وإعفاء زوجته من عبء تحضير وجبة الغذاء، هذا الإعفاء الذي تكافؤه معظم ربات البيوت بمرافقة زوجها إلى رحلة ليلية جميلة في أعلى سماوات الفراش... ولم تكن الزوجة أحسن حالا منه؛ فقد دخلت إلى المطعم عبوسة هي

الأخرى، تمشي الهوينى كأنها تسير فوق الشوك أو الجمر. ثم بإبقاء ساعديها مشمرين، بدت كأنها خرجت من المطبخ للتو، كأنها كانت مستغرقة في إعداد وجبة الغذاء، ثم حدث طارئ، كان أقوى منها ومن الزوج، فألقت هي الأخرى كل شيء جانبا، ثم أمسكت طفلها من اليد، وخرجت رفقة زوجها إلى هذا المكان.

صرف الاثنان زهاء دقيقين في البحث عن مائدة مناسبة للجلوس، مع أن المطعم لم يكن مملوءا عن آخره بالزبائن. استقر رأيهما على الجلوس في المائدة المقابلة لي. من خلال حفاوة التحية التي خصَّ بها النادل الزوجَ اتضح أنَّ هذا الأخير من المواظبين على التردد على الفضاء. ليس هذا فحسب، بل اختفى النادل، ثم عاد وهو يحمل مائدة خشبية صُمِّمَتْ خصيصا لجلوس الأطفال الصغار؛ هي عبارة عن كرسي ومائدة صغيرتين ملتصقين، يجعلان الطفل في مستوى علو أبويه. أثناء استدارة الزوجة للجلوس، اتضح أنها حامل، في شهرها الأخير أو ما قبله، إذ تكوَّر بطنها وانتفخ إلى أن أصبح مثل قبة عظيمة. وأثناء تسويتها جلسة الطفل رفعت يدها اليمنى، فإذا بشبكة من آثار جروح حديثة وغير عادية على الإطلاق تغطي جزءا من ساعدها؛ لو كانت هذه الندوب نتيجة حركة طائشة بسكين في المطبخ لتوقفت عند خط واحد، ولكنها سبعة خطوط أو ثمانية، من نوع الجروح

التي لا تُرى إلا في أيدي المراهقات والمراهقين الذين يؤذون لحمهم، تحت فعل التخدير أو جراء سعيهم للانتحار نتيجة سوء تفاهم مع آبائهم!

بجلوس الزوجين زاوية المطعم المقابلة لي، صارا في مرمى بصري شئتُ أم أبيتُ. وجه الزوج مقابلٌ لوجه زوجته، لكنه أيضا قبالة مارة الشارع الذين يختارون المشي في هذا الرصيف بدل الرصيف المقابل في ضفة الشارع الأخرى، ووجه الزوجة مقابلٌ لوجه زوجها، لكنه أيضا قبالة ساحة المطعم. من يجلس في هذا الكرسي بالذات (= كرسي الزوجة)، لن يفوته مشاهدة كل ما يجري في المطعم: الجالسون في الموائد، الخارجون من الجزء الداخلي للمطعم والخارجين منه، تحركات النادلين، وما إلى ذلك. ها هي مساواة أخرى بين الزوجين، مساواة على صعيد آخر، لكن تفصيلا صغيرا جعل ما يراه أحدهما مختلفا تماما عمَّا يراه الآخر، ما تشاهده الزوجة مضبوط ومحروس، لا يمكن أن تصدر أي حركة طائشة سواء منها أو من أي شخص من زبائن المطعم، في حين يرى الزوج مجموع مارة الرصيف، وضمنهم تكون نساء وبنات كثيرات، أغلبهنَّ متجملات ويرتدين ملابس عصرية: طالبات، موظفات، بنات هوى، متزوجات، ذاهبات إلى الوادي للنزهة أو إلى مقاهي أخرى، عائدات منهما، وما إلى ذلك... لماذا اختار الزوج أن يكون هذا المشهد بالذات هو ما في مرمى عينيه ولم يختر مشهد

المطعم؟ طرحتُ السؤال، وواصلتُ الأكل. فقبل كل شيء وبعده، لا شأن لي بهذا، كما أنه لا يهمني...

أحضر النادل شوارمة للزوجة، وللزوج طجينا صغيرا لم يسبق أن شاهدتُ زبونا يأخذ مثله في هذا المطعم من قبل، ولكن مثل هذا النوع من الأطباق شائع في الخمارات ونوادي المشروبات الروحية، خمنت ما بداخله: جمبري بالطماطم والتوابل، أي طجين «پل پل Pil Pil»...

استغرق الزوجان في الأكل في صمت رهيب. من حين لآخر، كان أحد النصفين ينظر إلى نصفه الآخر. ولأنهما كانا على مقربة شديدة مني، فقد تأتى لي فحصهما أكثر: كان الزوجُ في حوالي منتصف الثلاثينات، بشرته مائلة قليلا إلى السُّمرة، يرتدي سروال دجين أزرق، وقميص ثوبٍ انتظمت فيه مربعات وخطوط زرقاء ووردية وبيضاء، في حين بدت الزوجة في منتصف العشرينات، ذات بشرة بيضاء مائلة إلى الصفرة، أنفها مقوَّس قليلا كأنف خروف، ثم ارتدت شبه معطف رمادي اللون، مصنوع من الصوف، كأنه قميصٌ (tricot) أكرمه صانعه بالطول إلى أن بلغ الركبتين، وفولارا بنيا زهد في أجزاء من حاشيتي الوجه والصدر، ما يفيد أنها لم تكن محتجبة مائة في المائة ولا سافرة مائة في المائة، كانت ربة بيت أمية، في أغلب الظن. ومن نوعية الوجبة التي اختارتها لم يتأكد التخمين السابق فحسب، بل اتضح أنها ربما كانت بدوية تشبهت بالمدينيات

العصريات، تماما كتلك المسافرة التي صادفتها في رحلتي يوم أمس في القطار، والتي صعدت من محطة القنيطرة المدينة، ونزلت في سيدي سليمان:

كانت هي الأخرى تبدو شبه محتجبة، لكنها جملت وجهها بسخاء، فبدت كامرأة متعلمة موظفة، لكن ثلاثة أشياء فضحت أميتها وبداوتها حتى النخاع:

فهي لاكت قطعة شوينغوم، على امتداد السفر، على طريقة نساء القرى؛ كانت تحرك شفتيها سريعا، وتباعد بينهما إلى أن تظهر أسنانها، ومن حين لآخر، كانت تفرقع العلكة بأسنانها، كأنها كانت تعزف بفمها أهزوجة، فتصدر عن كل فرقعة أصوات «طَّقْ، طَّقْ»، «طرَّقْ، طْرْطلَّقْ»، ما جعل سفرها رحلةَ «طَقْطَقةٍ وطَرْطَقَةٍ»؛

ثم إنها وضعت في يدها ساعة، لكن أرقام الساعة كانت مقلوبة، رقم 12 في الأسفل، ورقم 6 في الأعلى، فضلا عن أن الساعة كانت معطلة أصلا، حيثُ ظلت عقاربها مثبتة على الساعة 11 (صباحا أو ليلا؟!) على امتداد السفر، في حين كانت انطلاقة القطار من القنيطرة على الساعة التاسعة صباحا لا غير!؛

أخيرا، للإجابة عن إحدى المكالمات، أخرجت المسافرة من حقيبتها اليدوية هاتفا محمولا ينحدر من عصر ما قبل تاريخ الهواتف الخلوية؛ كان صغيرا للغاية، لوحة مفاتيحه شبه ملساء، جراء القدم

وكثرة الاستعمال، فضلا عن أن الأرقام والحروف كانت شبه ممحوة!

إذا صحَّ تخمين أن الزوجة كانت أمية، ربة بيت، وبدوية، فزواج الاثنين ربما لم يكن نهاية سعيدة لعلاقة عاطفية سابقة بينهما، بل كان استجابة لأمر أبوي الزوج أو تلبية لنداء ابنهما، وقد تكون أمه وأخواته هن اللواتي اضطلعن بدور الصيرفي القديم، مثلما كان هذا يجيد تمييز الصالح من النقود عن زائفها، أجدن هنَّ الأخريات انتقاء «أفضل» بنت لقريبهما من بين حشد البنات «غير الصالحات». ولكن طريقة ارتداء الزوجة أفصحت أيضا عن أشياء أخرى:

سواء أكان الزوج هو الذي أذن لزوجته بـ «نصف السفور»، هذا، أم هي التي أخذت المبادرة، فنحن أمام زوجين ينتميان، بمعنى ما، إلى فئة الأزواج الذين تعج بهم أحياء المدينة الشعبية:

يملك الزوج حق رؤية من يشاء من النساء، لكنه يحرُص في الآن نفسه على عدم وضع زوجته في مرمى أعين الغرباء. وقد يمضي الرجل المتطرف من هذه الفئة إلى ما هو أبعد، فيصطحب معه زوجته إلى الشارع وقد احتجبت تماما إلى أن صارت شبحا أسود، إذ لا ترى منها عينٌ ولا يد ولا قدم ولا أي شيء، في حين قد يمشي هذا الزوج نفسه رفقتها وقد حلق شعره بآخر تقليعات حلاقة نجوم كرة القدم والغناء، وارتدى سروال

دجين قصير يُظهر الساقين ونصف الفخذين، وقميصا رياضيا، ووضع في عينيه نظارتين شمسيتين أنيقتين! وهو ما عبرت عنه إحدى النكت البليغة الشائعة في بعض مواقع التواصل الاجتماعي:

«شيطان دخل جسم رجل عربي وطلع بسرعة، سألوه: ليش طلعت؟!

قال: الله يخرب بيته، دوخني وجاب لي الجلطه: الصبح بيسرق، والظهر بيجري ورا النسوان، شايل سبحة بيسبح بها في النهار، وبيرقص بيها في الليل. علي الحرام ما كنت عارف هو اللي ساكن في ولا أنا اللي ساكن فيه.»

لكن زوجَي المطعم يختلفان عن هذا الصنف في كون الزوجة ليست محتجبة تماما، لأنها أظهرت ذراعيها وصدرها. إن كانت هي من بادرت إلى هذا السفور المحتشم، فربما فعلت ذلك تشبها بالنساء الحضريات، لتغمض عيني زوجها عنهن وتمنع سطو إحداهن عليه. أما إذا كان الزوجُ هو من شجع زوجته على هذا الظهور، فهو باختياره هذا يعبر عن رغبة مزدوجة: يريد زوجته أن تكون عصرية، لكنه يريدها أيضا أن تكون تقليدية، يريدها أن تكون سافرة ومحتجبة في آن واحد! أن تظهر في الفضاء العام وهي مختفية، وأن تختفي فيه وهي ظاهرة!

أما أن تكون الزوجة حُبلى ومولودها الأول لم يتعلم المشي بعدُ، فهذا يشي بأنَّها ربما استعجلت تثبيت خيمتها بأوتاد خشية أن تذروها الرياح أو العواصف: لقد استثمرت في الإنجاب اجتنابا للطلاق، عملا بالمثل الشعبي القائل «المراة بلا اولاد بحال الخيمة بلا اوتاد» (المرأة بدون أبناء كالخيمة بدون أوتاد)! وهو ما يبدو أن الزوج لا يشاطره من خلال تجهمه وعبوسه. إذا صحَّ هذا، كان هذا الرجل، مثل العديدين، لم يأخذ زواجه على محمل الجد في البداية، بل تزوجَ بفكر غائم، فكان بمثابة من تطوع لقيادة سفينة دون أن يعلم إلى أي وجهة سيقودها ولا في أي مياه سيُبحر ولا في أي ميناء سيرسو!

كنتُ على وشك إنهاء وجبتي، عندما وقف الزوج، واتجه خارج المطعم بخطو بطيء، يشبه التسلل، تاركا خلفه زوجته وابنه جالسين. ربما لشراء سجائر بالتقسيط، ولكن التدخين هنا ممنوع. ربما لشراء زجاجة ماء، لكن الماء متوفر هنا. ربما لتحية صديق، ولكن الزوج سائر نحو وجهة بعيدة. ترى لماذا خرج؟ تساءلتُ دونَ أن أنتظر للحكاية بقية.

أديتُ مستحقات وجبتي، غادرتُ.

*

*   *

نهاية الشارع، وها هو صاحبنا واقفٌ في ركن إحدى البنايات مع فتاة سبق أن مرَّت للتو بجانب المطعم. كانت ترتدي ملابس مثيرة لا تجرؤ على الخروج بها إلا البنات الصغيرات، وبائعات الهوى الثريات، أو بنات الأغنياء، في فضاءات محدودة جدا داخل المدينة. تظهر الواحدة منهن وقد صرحت بممتلكاتها، لكنها سرعان ما تلوذ بسيارتها وتنطلق، فيتضح أنها لم تخرج إلا لقضاء غرض ما، في دكان أو محل تجاري أو غيرهما...

لو حضرت الزوجة الآن لبدت كأنها والدة تلك الفتاة أو خالتها أو عمتها! استغرق الزوج في الحديث مع البنت، بوجه بشوش، تتخلله ابتسامات، بل وكذلك قهقهات، وضربُ كل محادث بكفه على كف محادثه، بين لحظة وأخرى، وغير ذلك مما لا يصدرُ إلا عن شخصين بينهما علاقة حميمية. وباختصار، فقد خلع صاحبنا هيئة وارتدى أخرى، أبدته شابا يافعا أو مراهقا، بخلاف ما كان عليه قبل قليل عندما كان في المطعم رفقة ربة بيته. لحظات، وها هي بنتٌ أخرى تلتحق بالاثنين، ارتدت القادمة ملابس شبيهة بصاحبتها، باستثناء الألوان، طبعت على خذي صديقتها قبلة فاترة، في حين وثبت على وجه الزوج كطفلة صغيرة، بالطريقة نفسها التي كانت تحيي بها بنات الملاهي الليلية أحد أصدقائي كلما جاء من الرباط إلى مكناس، حيث كان يعمل مرة في الأسبوع:

كان يصل إلى أحد الملاهي الليلية في وقت مبكر، قبل أن تبدأ وفود حجاج المكان تقاطرها عليه ويعج بالهرج والمرج، فيكون الفضاء خاليا تماما إلا من جماعة بنات انزوينَ في ركن، فما إن تقع أبصارهنَّ على صديقي حتى يتجارين نحوه، وهنَّ يصرخن:

- حميد! حميد! حميد!

كل واحدة تغرق وجنتيه بالقبلات، ثم يحطن به، من اليمين والشمال، ويتسابقن على أيهنَّ تحظى بتأبط ذراعه، ثم يتآزرنَ على لصق ثلاث موائد، بوضع إحداها بمحاذاة الأخرى، وإحضار كراسي، فتصبح الموائد الثلاث شبه مائدة واحدة كبيرة، كأنها طاولة اجتماع إداري، وهيتَ لجيوش زجاجات النبيذ... كان حميد يشفق عليهنَّ، ويُغدق في العطاء، دون أن ينتظر أن يكون المقابل طيرانا في الماء ولا غوصا في الهواء. لم يسئ لإحداهن أبدا، ولا اعتبرها عاهرة أو امرأة فاسدة، كان يردد دائما: «لكل واحدة ظروفها»، وبذلك حظي عندهنَّ دائما بمنتهى التقدير والاحترام. وبالفعل، فقد كانت لبعضهن ظروفها الخاصة التي ساقتها إلى الخمارات، بهيأة بائعة هوى أو نادلة أو مجرد ساقية، وهذا نادرٌ جدا... ومنهنَّ من أخرجت من «دورة صرف المياه الصحية» أبناء ناجحين في المجتمع، بعيدين عن كل البعد عن منبتهم الأصلي. من ذلك إحدى ساقيات خمارة رفائيل:

امرأة متقدمة في السن، لم تحظ فقط باحترام كل مرتادي الحانة، رجالا ونساء، بل حظيت أيضا بلقب «أمي»، فكانت لا تنادى باسمها الشخصي إلا مسبوقا بأسمى نعوت قرابة الدم. ومن العمل في الحانات، وفرت لابنتها مصاريف الدراسة إلى أن بلغت السلك الثالث. في غمرة انشغال البنت بتحضير أطروحتها، كانت الأم تديم سؤال هذا الأستاذ أو ذاك:

- هل لديك المرجع الفلاني؟
- أي عناوين تصلح لتحرير الفصل الفلاني؟

وكان حميدٌ أحد أكثر من أعطى لتلك السيدة كتبا بسخاء...

بعد أداء طقس التحية والعناق، اتجه الزوج إلى متجر، وخرج وهو يحمل في يديه علب سجائر مالربورو أو وينستون، ثم لاذ الثلاثة بأول حانة. كان لحميد عذر أنه كان أعزب، ولكن ما عُذر هذا الزوج الذي ترك زوجته وابنه في المطعم، وجاء إلى هنا ليعيد تمثيل دور ذلك الصديق؟ تساءلتُ، قبل أن ينتشلني صديقٌ لم أره منذ وقت مدة طويلة، ويدعوني لفنجان قهوة في مقهى تصادف أنه كان يوجد مباشرة قبالة البار الذي دخله الزوجُ وصويحباته...

توقعتُ أن يخرج الزوجُ، بعد بضع لحظات تاركا البنات هناك، على موعد أن يرجع بعد قليل، بعد أن يعيد زوجته وابنه إلى البيت، فإذا بتوقعي

يخيب. من باب الخمارة، بدا الزوج جالسا فوق أحد كراسي الكونتوار، وقد أحاطت به البنتان؛ من اليمين ومن الشمال، كلتاهما وضعت يدا على كتف، وسحابة دخان كبيرة تعلو رؤوس الثلاثة، وزجاجات خمور مصطفة أمامهم. أيقنتُ أن صاحبنا قد ترك نهاية حكاية زوجته وابنه في المطعم مفتوحة على كل الاحتمالات، كما يفعل الكاتب الذي لا يزعم امتلاك أي يقين، فيترك لخيال القارئ حرية أن ينهيها كيفما شاء، مع اختلاف أن صاحبنا نبغَ في جعل بداية قصته مسبوقة بكل الاحتمالات والتخمينات، ملقيا على قارئ نصه عبء البحث عن الفقرة الغامضة البيضاء التي سبقت بقية النص وهي أنه حلَّ بأحد مطاعم وسط المدينة مرفقا بزوجته وطفلهما الصغير الذي يتعثر في خطواته الأولى. نزلا من سيارة ركنت على جانب الرصيف المقابل للمطعم. وأوَّل ما أثار في الزوجين قامتاهما الطويلتان على نحو مُلفتٍ؛ «طويلا النجاد رفيعا العماد»، ما شاء الله، لو صعدا إلى حلبة ملاكمة لأمتعا المشاهدين بواحدة من مباريات القرن!...

*

* *

لاحقا، صادفتُ الزوج مرتين يروي مشكلته مع زوجته في شريطين بموقع اليوتيوب: في الأول تنكر في هيئة رجل مصري من القاهرة، وفي

الثاني في صورة تونسي جاء يشكو زوجته لمكتب «الجمعية التونسية للدفاع عن الرجل». قال في الشريط الأول:

«اختارها لي والديَّ، لحسن خلقها، وسمعة أهلها الطيبة لأهلها، فتزوجتها على سنة الله ورسوله. مرت السنوات الأولى معها رائعة، أظهرت لي طوالها حبا كبيرا، وتعلقا شديدا، فلم ترفض لي طلبا ولا اعترضت لي على رأي، لكنها ما إن أنجبت الابن الأول حتى تغيرت بـ 380 درجة: أصبحت لا تهتم إلا بابنها، تتجاهل وجودي في البيت، لا تعطيني حقوقي في الفراش إلا بعد أن أطلب وألح في الطلب إلى أن ينتابني الإحساس بأني أتسوَّل حقي الشرعي. وعندما تأتي إلى الفراش، لا تتجمل ولا تتعطر، كما كانت تفعل من قبل؛ تأتي بلباس المطبخ، وروائح الثوم والبصل والكزبرة والبقدونس تفوح منها فتخمد رغبتي، ثم تتمدَّد دون أن تشاطرني أي شيء. أكثر من ذلك، بدأت تستعجل قيامي عنها وكأنها ستتخلص من عبء ثقيل... وباختصار، فإنها بمجرد ما صارت أمًّا، وحبلت للمرة الثانية، تحولت إلى وحش بقرنين، لأنها اطمأنت إلى أني لن أستطيع تطليقها بسبب عجزي عن توفير المستحقات المالية التي سيفرضها علي القضاء، فدفعتني بذلك دفعا إلى خيانتها، إذ لم أجد أمامي أي خيار آخر سوى البحث عن صويحبات سريات...».

في غياب رواية زوجته لسبب خلافهما المزعوم، لا يمكن طبعا تصديق هذه الرواية كليا، لاسيما أنَّها من النوع الذي يروج كثيرا، سواء على شكل وقائع جرت بالفعل، حسب رواتها، أو على شكل نكت، مما يفيد وجود ميل لدى الرجال العرب إلى اعتبار تقتير الزوجات العربيات على أزواجهن في الفراش سلوكا شبه عام لدى نساء المجتمعات العربية المتزوجات، شأنهن في ذلك شأن العاهرات، بخلاف الخليلات. ومن النكت الرائجة في الموضوع:

«الزوجة: بعد الاستلقاء في الفراش، تقضي شغلها وهي مستغرقة في تأمل سقف غرفة النوم تتساءل: متى سيعيد [= الزوج] صباغة الجدارن؟

المومس: تنجز عملها وهي تتساءل: متى سيُنهي [= هذا الزبون] شغله ويؤدي لي مستحقاتي [= المالية]؟

الخليلة: تؤدي شغلها في الفراش، وهي تتساءل: متى سيزورني [= حبيبي هذا] المرة المقبلة؟!»

أما في الشريط الثاني، فقد قال الزوج:

«اختارها لي والديَّ، لأخلاقها الحسنة ولسمعة أهلها الطيبة، فتزوجتها على سنة الله ورسوله، فوجدتها كذلك بالفعل في السنوات الأولى من زواجنا، إذ أظهرت لي حبا كبيرا، وتعلقا شديدا، وأغدقت عليَّ نعيمها، لكنها بمجرد ما وضعت المولود الأول

تغيرت بـ 180 درجة: أصبحت لا تعطيني حقي الشرعي إلا بمقابل مادي، نخصصت لذلك كناشا، تدون فيه عملية التحليق، ومدتها، ودرجة علوها...: هذه بعشرين دينارا، وتلك بثلاثين، والأخرى بخمسين، وما إلى ذلك، وفي نهاية كل شهر تجمع الحسابات، وتطالب بمستحقات الفراش، فما عدتُ أعرفُ هل أعيشُ مع زوجة أو بغي... إذا امتنعتُ عن التسديد هدَّدتني بالذهاب إلى بيت أبويها ورفع شكاية ضدي للمطالبة بالطلاق ومستحقات حضانة الأبناء...»

قلتُ: إن كان الزوجُ صادقا، فحظه تعيسٌ جدا لأن ربة بيته نجحت في إخفاء ما زل به لسان عروس صبيحة الزفاف، وتحول إلى نكتة تتداولها الألسن:

«مر العرس على أحسن ما يُرام، بما في ذلك الليلة الأولى، لولا أن لسانها زلَّ، فخاطبت زوجها في الصباح قائلة: «هات مستحقات ليلة أمس!»».

لصُّ النســاء

1) سارق نادلة المقهى

عدت من مقهاي الشعبي قبل قليل. وقعت فيه اليوم حادثة «طريفة»: جلسَ شابٌّ في حوالي الثلاثينات من عمره في إحدى الموائد، مرتديا ملابس أنيقة جدا، بل بالغ في الأناقة، ما لا يمكن تفسيره عموما سوى بأنَّه ربما جاء إلى المقهى لغاية في نفسِ يعقوبِه. من يدري؟ فقد يكون خليلا لإحدى النادلات بالفعل، أو قد يكون نصبَ فخّ أناقته لاصطياد إحدى النادلات... فكم واحدة منهن بدأت مشوارها هنا، ثم انتهت ربة بيت عند أحد الزبائن، بعد أن تزوجته على سنة الله ورسوله. وكم أخرى، لا يعدو العمل في المقهى عندها مجرد واجهة زجاجية vitrine، تختفي من ورائها لممارسة عمل آخر دخله مضمون وأكبر وأسرع: تنتقي «أفضل الزبائن» من رواد المقهى، فلا تكون خدمتهم في هذا الفضاء العمومي سوى مقدمة لأداء خدمات أخرى أكبر وأعظم لا يتسع لها فضاء المقهى الضيق، بخلاف غرفة النوم ... وبما أن «الغرام ابن حرام»،

كما يقولون، إذ يعبث بقلوب الرجال أكثر مما يستنزف قلوب النساء، فنادرٌ هو صنف تلك المرأة الشمالية - إن لم يكن منعدما في أيامنا هذه على الأقل:

> أغرمت امرأة شمالية في نادل مقهى إلى أن كادت أن تموت فيه، فصارت تستعجلُ إنهاء إلقاء الدروس في الثانوية لكي تلتحق بحبيبها في المقهى، فما إن يقرع جرس الخروج حتى تهرول إلى المقهى، وتدخل غرفة غسيل الأواني، وتلقي بحقيبتها المدرسية جانبا، ثم تخلع بذلتها الأنيقة، وترتدي بذلة عاملة المقهى المكلفة بالغسيل، بعد أن تصرفها، فتواصل العمل نيابة عنها مجانا، مقابل أن تنعم بالقرب من الذي تعلقت نفسُها به، غير آبهة من تغامز رواد المقهى عليها بالنظرات غير البريئة وبالهمزات واللمزات التي يتقاذفونها منذ دخولها إلى المقهى حتى خروجها منه. تعمل بمذهب «لاعين رأت ولا أذن سمعت»، وتخرج من الباب الواسع...

انتظر الزبون أن تأتي إحدى النادلات لخدمته، لكن ولا واحدة منهن جاءت. ربما لأن الزبائن اليوم كثُر، كأنَّ التلفزة ستنقل واحدة من أمهات مقابلات كرة القدم... تظاهر الزبونُ بالرغبة في مغادرة المقهى احتجاجا على بطء الخدمة، همَّ بالوقوف، وها هي إحدى النادلات تحضر بسرعة البرق. فهنَّ مع انشغالهنَّ بالعمل يراقبنَ مراقبة شديدة موائد المقهى، لاستخلاص مقابل ما يستهلكه الزبائن بالخصوص، والويلُ كله لمن تهاونت

في المراقبة! إن يغادر أحدهم المقهى بدون أداء، فسوف تؤدي هي مقابل ما سرقه هذا «اللص» أو ذاك. ففي ساعة الحساب، قبيل إغلاق المقهى، إذا تبين وجود فرق بين ما استخلصته من الزبائن هذه النادلة أو تلك ومجموع الفواتير المسجلة عليها، فمن جيبها يخرج الفارق...

ما إن مرت لحظات حتى كان صاحبنا يحتسي فنجان قهوة ويدخن سيجارة، ويرشف من حين لآخر جرعة من فنجان الماء، ما جعله يبدو كسائر زبائن المقهى، لا يصدر منه ما يستدعي مجرد انتباه، فأحرى أن يثير أدنى شبهة أو شك. لم يهتم به أحدٌ...

ولكنه عندما شرب حوالي ثلثي الكأس وقف، وبخطو بطيء وواثق غادر المقهى تاركا فوق مائدته علبة السجائر دليلا على أنَّه لن يغيب سوى بضع دقائق، ثم يعود. وهذا معمول به في المقاهي؛ فقد يجلسُ المرءُ، ثم يفطن إلى أنَّه نسي شراء صحيفة أو علبة سجائر، وقد تأتيه مكالمة هاتفية حميمية، تتطلب الابتعاد عن آذان الفضوليين، فيضطر للاختفاء عن المقهى بضع لحظات، ثم يعود، وذلك طبعا بعد أن يكون قد ترك فوق مائدته دليلا أو أكثر على عودته الأكيدة، فيقضي أغراضه، ثم يرجع بالفعل... ولكن صاحبنا الأنيق لم يعد. جاءت النادلة غير ما مرة سائلة:

- ألم يعد بعد؟!

كان جواب زبائن المواد المجاورة دائما:

- لا!

ثم انطلقت تخمينات الجالسين: «ربما...»، «عسى...»، «لعل...»، وما إلى ذلك. ولكن عندما مرت خمس وأربعون دقيقة، قطعت النادلة الشكَّ باليقين، فتشت علبة سجائر المارلبورو التي تركها صاحبنا، وجدتها فارغة، اتضح أنَّه لصٌّ عتيد، وأنَّهُ قد نصب على العاملة، علت جلبة في هذا الجانب من ساحة المقهى، تعدَّدتْ التأويلات:

- هذا ابن حرام!
- لاشك أنَّه اعتاد على سرقة المقاهي!
- ربما هو يجد متعة في ذلك!
- هو ليس من سكان الحي...
- لاشك أنه تنقل بين مقاهي أحياء عديدة قبل أن يصل إلى هنا...
- حمارٌ وجبانٌ والله! بدل أن يمضي لسرقة أقرانه الرجال جاء ليسرق بنتا تقتات من عرق جبينها بالعمل في مقهى!...

خرجَ صاحبُ المقهى يتأبطُ عصا، ثم قال:

- صورته راسخة في ذهني، أستطيع تبينه من بين عشرات المارة... ودين أمي إن يعد مرة أخرى لأخربنَّ بيت أبيه!

خامرتني شكوك في أن تكون صورة اللص قد رسخت فعلا في ذهن صاحب المقهى، كما زعمَ؛ فهو كان في قعر المحل، ولم يخرج منه قط. ربما

كان الوعيد السابق موجها في الحقيقة ليس إلى اللص، بل إلى كل جالس في المقهى قد تسول له نفسه مستقبلا أن يقوم بمثل ما قام به مارق هذا الصباح...

أشفقتُ على النادلة وتضامنتُ معها بأن أديتُ لها ثمنَ قهوة اللص، لأجنبها عقوبة اقتطاع ثمنه من راتبها...، ثم حضرتني قصة أحدهم ابتكر طريقة فريدة لسرقة النساء:

> كان يتزوج الواحدة، فتتكفل هي بشراء أثاث البيت وفراشه ومتاعه، ثم يذيقها من العذاب ما تضطر معه للتنازل عن «الجمل وما حمل» مقابل أن يطلق سراحها بتطليقها لا غير، فيطلقها، فتأتي نساء أخريات، وتسلبنه ما غنمه من مطلقته، وكأنهن ينتقمن لها أو كانت جيناتهنَّ متضامنة في الضراء دون السراء، لما بينهن من حسد وغيرة وعداوة في سائر أيام الله... مع أنَّ لا صلة بينهنَّ وبينها سواء من قريب أو من بعيد: فهي بنت عائلة، وأصل وحسب ونسب، أما هنَّ فمجرَّد عاهرات وبنات حانات وملاهي ليلية...
>
> وإلى هذا اللص الفريد سأخصص الإدراج الموالي:

لصُّ النســاء

2) سارق زوجاته

من رأى صاحبنا هذا خيلَ إليه أنَّه أمام موظف سامي أو مقاول كبير أو أحد كبار أغنياء المدينة، مع أنه مجرد مستخدم بسيط في وكالة بنكية، ينتقي أغلى البذلات والأقمصة وربطات العنق والأحذية والعطور، ويسرح شعر رأسه المائل إلى الشقرة بطريقة فريدة. وبما أنَّه صاحب قوام ممشوق، بدينا شيئا ما، وعيون زرقاء، فقد كان من الصعب ألا تقع عليه الأعين وهو يسير في الشارع بمشيته الرزينة والأنيقة. ولعمري ذاك هو الفخ الذي كان يصطاد به ضحاياه النساء اللواتي كنَّ يقبلن زواجه بلا أدنى تردد. ففي أيامنا هذه، أصبحت مُعظم البنات تحرصن حرصا شديدا على انتقاء الأزواج، كأنهنَّ تخرجنَ من مدرسة قريب داروين فرنسيس جالتون (1822-1911) مبتكر مذهب تحسين النسل. والواقع أنهن جديرات بالشكر على ذلك، إذ بفضل هذا الانتقاء بدأت تختفي من حواضرنا، بالخصوص، مشاهد عدم تناسق الأزواج في القامة والجمال كما كان عليه الأمر أيام زمان، يوم كان الرجل يُختارُ لخلقه وليس لخلقته، فكنتَ تسير

في الشارع فتصادف امرأة طولها حوالي مترين وهي تسير رفقة زوج قصير القامة يبلغ طوله مترا ونصف بالكاد، وكنتَ تصادفُ امرأة آية في الجمال تسير وقد ارتدت أجمل الحلي والحلل رفقة زوجها الذميم نخورة به، وما إلى ذلك. كما بدأ يختفي من مدننا، بفعل الانتقاء نفسه، صنف الإناث، بالخصوص، قصيرات القامة البدينات اللائي كانت تمشي الواحدة منهن في الطريق متدحرجة كقنينة غاز. فشباب اليوم وبناتهم كلهم ذوو قامات ممشوقة، نتجت عن الرعاية الطبية واللقاحات وجودة التغذية بالتأكيد، لكنها نتجت أيضا عن حرص النساء على انتقاء أزواجهنَّ. فالمرأة اليوم تحرص عموما في اختيار شريك حياتها على أن يكون وسيما في المقام الأول كما كان الشاعر الجاهلي يحرص على استهلال قصيدته بمطلع طللي، وبعد ذلك يأتي حُسن التخلص، وهو أن يتوفر الزوج على سيارة، وبعده استطراد أن يمتلك بيتا للسكن، وبعد ذلك فقط يأتي الغرض الرئيسي وهو أن يكون البعلُ صاحب راتب يؤهله للقيام بمسؤولية البيت. بل من نساء اليوم، من يعرضنَ عن أجزاء القصيدة كاملة ويكتفين بالمطلع الطللي لا غير، فتتولى الزوجة الإنفاق على زوجها منخفض الدخل، بل وحتى العاطل أحيانا، وذلك لمجرد أن تتباهى به أمام أهلها وصويحباتها وزميلاتها في العمل أو لتنتقم من سني العنوسة الطويلة، كأنها تقول لكل سامعةٍ:

- لم أتأخر عن الزواج لأنَّ أحدا لم يطلب يدي، بل لأني كنتُ أريد زوجا بالمواصفات التي ترونَ. ها قد تأتى لي الآن، فمُتنَ بغيظكنَّ!

وهو ما أشرت إليه في إدراج لاحق كان نصه:

«تجاذبتُ أطراف الحديث مع صديقة لي، فساقنا تداعي الكلام إلى ما تطلب مني أن أبدي رأيا، فنصحتُها قائلا: «... أين المشكلة يا صديقتي؟! بإمكانك أن تشتري زوجا شابا وسيما وأصغر سنا منك بكثير. ما العيب في ذلك وكل شيء أصبح يباع ويُشترى في أيامنا هذه؟! أعرف شخصيا من اشترت زوجا بذوقها وعلى مقاسها.»». وللتدليل على ذلك، سقتُ النكتة الشائعة:

«قال لها: ممكن أن نتعارف؟ أجابته: مريم، عمري 30 سنة، موظفة، عندي شقة، وما يتيسر من الإرث، فقال لها: أنا زوج مريم بإذن الله !»».

وبالواحدة من هذا الصنف من النساء تحديدا كان صاحبنا يتربصُ ويسدِّدُ طلقته القاتلة، فأدمن الزواج والطلاق إلى أن حطم كل الأرقام القياسية في تجديد الفراش، بحيثُ لو أرسل صور عقود زواجاته وتطليقاته إلى كتّاب غينس لتبوأ فيه مكانة محترمة...

أكثر من ذلك، لم تكلفه معظم زواجاته مليما واحدا! وفوق ذلك كله، كان يخرجُ من كل طلاق بغنيمة دسمة. لهذه الفتاة كان يزعم أنَّه

ينتظر إرثا، ولتلك يدعي أنَّه ينتظر تسوية وضعية إدارية، وللأخرى يقول إنه أقرض أحدهم ووعده بإرجاع ما اقترض في غضون أسابيع، وفي كل زعم كان لا يحدِّدُ ما ينتظره إلا بمئات بملايين السنتيمات، وهو ما كان يسيل لعاب كل من انطلت عليها حيلته ووقعت في فخه... وبما أن كل واحدة تخشى أن يفلت الصيد الثمين من يديها فتتلقفه بنت أخرى، فقد كنَّ جميعا يتدبرنَ أمر توفير مصاريف ليسَ حفل العرس الباذخ فحسب، بل وكذلك تأثيث البيت بأفخر الأثاث وإلباس العريس أفخر الثياب. بل، كم واحدة اشترت له سيارة أيضا منتظرة أن تسترجع كل ما أنفقته على الزوج فور وصول ثروته المزعومة، فإذا بما لم يخطر لها على البال على الإطلاق هو ما يقع؛ ما إن تمضي فترة وجيزة على دخولها القفص الذهبي حتى يُذيقها بعلها الجهنمي صنوفا من العذاب إلى أن تسودَّ الدنيا في عينيها وتصير لا تتمنى من الحياة سوى شيء واحد ووحيد، وهو أن يطلقها هذا المارد اللعين، وتعود إلى سابق عهدها، ولو جرَّ عليها الطلاق عنوسة أبدية.

*

*   *

لم يبح لأي كانَ بخطته الجهنمية للتخلص من زوجاته، وكأنه كان يحرص بكتمانه ذاك على الاستئثار بعلم أو وحي نزل عليه خصيصا. إن

يذعه بين الناس يصبه البوار... لذلك تعددت الروايات في شأن تطليقاته المتواترة إلى أن ارتقت إلى رتبة الأساطير. من ذلك:

ورد في حكاية أنه كان يدس لهذه عقارا منوما في مشروب، ثم يعمد إلى التبول في إناء ويسكبه في فراش النوم حتى إذا طلع الصبح اتهم ربَّة بيته بأنها قد تبولت في السرير...

تقول رواية إنه كان يطلي الفراش بالغائط، وتقول أخرى إنه كان يعبئ الفساء في عبوات عطر، ثم يرشها في غرفة النوم...

وقيل إنَّ من كان يروِّجُ هذا التفسير الأول المتمحور حول التنويم، كان يخلط في الواقع بين قصة لصين مختلفين كلاهما أنيقٌ ووسيم: الشرطي سارقُ موظفة تمارة الذي سيأتي ذكره بعد قليل، ولصنا هذا الذي يرد في مجموعة أخرى من الروايات أنه كان ساحرا، وأنه كان يوظف نفايات الجسد في طقوسه السحرية للإيقاع بنسائه...

ويقال في روايات أخرى إنه كان يعمد إلى تلفيق تهمة الخيانة للزوجة. ويرد هذا الصنف أيضا بتنويعات، من ذلك:

أنه كان يجندُ حشدا من أصدقائه، فيفشي لهم اسم زوجته «الجديدة»، ويخبرهم بساعة دخوله إلى البيت، فما تمر بضع لحظات عن وصوله حتى يتوالى طرق الباب، وفي كل مرة يتظاهر الزوج بالقيام لمعرفة من الطارق، فإذا بهذا يصرخ بأعلى صوته:

- يا فلانة! هل أنت في البيت؟ افتحي المنزل يا فلانة، أنا فلان!

فما إن يُطرق الباب أربع مرات أو خمسا حتى يتقمصُ الزوج فورة غضب، ويتظاهر بأنه قد فقد الصواب، فيصرخ بأعلى حنجرته إلى أن يسمعه كل من في العمارة:

- أنت عاهرة وها هي الحجج القاطعة! جعلتِ من بيتي ماخورا تستقبلين فيه عشاقك في غيابي!...

وفي رواية أخرى، تتفرع عن صنف تفسيري آخر من المزاعم، يتمحور حول الجنس، يردُ أنه:

كان يدس للزوجة مهيجا يُشعل النار في أحشائها، فتثبُ عليه، وتمسك بياقته، مخيرة إياه بين أن يطفئ نارها أو تغادر البيت طلبا للسقي من أنهار أخرى، وما إن يستجيب لها حتى تستغرق في الصراخ والوحوحة إلى ينتهي صوتها إلى الجيران... وبمجرد ما يطوي أشرعة الإبحار يلوي على عنق الزوجة، وينهال عليها بالصفع واللكم وهو يصرخ في وجهها:

- أين تعلمت هذا يا عاهرة؟! أين تعلمت هذا يا عاهرة؟!

وما إلى ذلك إلى أن يمتلئ بيتهما بالجيران...

وفي صنف آخر من الروايات، يردُ أنه ما كان ليتأتى له التخلص من نسائه بتلك السهولة لولا لجوئه إلى السحر. ويرد هذا القسم أيضا بتنويعات، منها:

> أنَّ أحد أبناء عمه كان ساحرا مشهورا، لا ينزل من طائرة إلا ليركب أخرى لكثرة الطلبات التي كانت تتهاطل عليه من أوروبا والشرق الأوسط، وأن قريبه هذا كان يعمل له أقوى الحروز والتمائم التي تنفر منه الزوجة الجديدة وتقلب تعلقها به إلى استعجال للفرار من المنزل.

وفي رواية أخرى:

> يقال إنَّهُ هو نفسه من كان يزاول أعمال السِّحر بعد أن أدمن تصفح منتديات العلوم الروحانية في شبكة الأنترنت أو تلقى دروسها بالمراسلة من أحد المعاهد الفلكية....

ومع أنَّه لا يمكن للعقل السليم أن يصدق مثل هذه الترهات، فالكثيرون كانوا يثقون بها، ويروجونها إلى أن لقيت من القبول بين الناس ما جعل الكثيرين يهابونه، لاسيما الجيران، إذ بدل استدعاء الشرطة بسبب الفوضى الناتجة عما كان يحدث بين لصنا ورفيقاته الليليات، كانت تخرج أكثر من جارة من سكان العمارة بثياب النوم، وهي حاملة مكنسة،

متجندة لضرب بنات الليل السارقات... وقد أفضى هذا التضامن غير المتوقع، هو الآخر، إلى بلبلة من التفسيرات، إذ:

> زعم بعضهم أنَّه كان يسحر للجارات، وزعم البعض الآخر أنه كان يرشوهنَّ، وزعم آخرون أنَّهُ اتخذهنَّ عشيقات سريات، وزعم آخرون أنهنَّ كنَّ عضوات في شبكة عصابته، وأنَّ زواجاته وتطليقاته المتكررة لم تكن سوى رأس جبل جليد ضخم عائم من الممارسات المشبوهة...

*

*　　*

وإذا كانت حقيقة ما كان يفعله مع نسائه لإجبارهن على الطلاق بتلك «السلاسة» (وهذا ما يهمنا في المقام الأول)، وحقيقة سائر الروايات الآنفة، وغيرها مما كان يروج حوله، تظلان في حُكم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فالمحقق أنَّ أوَّل ما كان يفعله بعد تطليق هذه الزوجة أو تلك هو استدعاء حشد من أصدقائه ليساعدوه على حمل الأثاث الثمين الذي غنمه من ربة بيته، أو بالأحرى قايضت حريتها به، وفي مقدمته الجواهر والحلي، وغرفة النوم، والأجهزة الإلكترومنزلية، والسيارة أحيانا، ثم يتخلص منه فورا ببيعه، فيقيم حفلة باذخة في أحد ملاهي المدينة الليلية.

فور دخوله هو عصابته إلى الملهى تتجارى بنات الهوى، فيتحلقن حول موائد تكون قد أعدَّتْ خصيصا للوافدين، لأن خبر طلاقه يكون قد وصل إلى الملهى بساعات من قبل، بل وأحيانا يشيعُ منذ أن يكون مجرد مشروع، فيجلسُ صاحب المحل والبنات والحراس على أحر من الجمر لاستقبال البطل العائد مظفرا من غزوته الجديدة، وهو يحمل أعلام النصر، فتصطف جيوش زجاجات الخمر على أشكالها، بعضها يُشرب، وبعضُها يُسكبُ في المراحيض، وبعضها يُعاد إلى الكونتوار، على أساس أنه قد شُربَ، فيُسدِّدُ أميرُ الطلاق فواتيره، ثم يُعاد إحضار كتائب الزجاجات من جديد، والبنات يرقصن ويعرين أطرافا من أجسادهنَّ، يوهمن صاحبنا بأنه سوف يقضي ليلة فردوسية في رياضهنَّ الفيحاء، فيما لا يلوي في النهاية إلا على الريح، فيقع له بذلك ما وقع لفلاح إحدى قرى ضواحي مكناس:

> باع ثلاثة ثيران بخمسين ألف درهم، ثم وضع الأموال في «قُبِّ» جلبابه، ودخل حانة لكي يحتسي بضع زجاجات جعَّة لا غير، ثم يروح إلى أهله، مع أنه لم يسبق له أن ذاقها من قبل، لكن ما إن وقعت عين إحدى بنات الهوى ممن كن في المحل بالزبائن متربصات حتى دعت جمعا من صويحباتها، فتحلقن حول مائدة القروي، وها هي أطباق الأكل ومواكب الزجاجات وعلب السجائر تزحف على المائدة صفا صفا، والبنات تعانقن البدوي وتقبلنه، وهو في حالة وجد، يصرخُ وقد كاد عقله يطير:

- ترى، أهذه هي الجنة التي وعد بها القرآن؟ أهذه هي الجنة التي يحدث عنها خطيب صلاة الجمعة! والله ما أراني الآن إلا داخل الجنة! والله إني لفي الجنة!

....

....

....

فما دقت ساعة الإغلاق إلا والثيرانُ قد تبخرت من «قُبِّ» صاحبنا، فنام في الرصيف قرب الحانة، لم يبق له ولا مليمٍ واحد ليستقل به سيارة أجرة ويعود إلى بيته، فعاد إلى أهله مشيا على القدمين. عندما وصل زعم أنَّ لصوصا قد تربصوا به في السوق، فاختطفوه، وسلبوه أمواله، وأنه لولا لطف الله به لكان الآن في عداد المقتولين، فتهاطل سكان القرية على بيته يباركونَ له معجزة نجاته من فتك اللصوص به...

بخلاف القروي الشقي الذي تعين عليه أن يصرف أعواما من التقتير والادخار والأشغال الشاقة لتعويض خسارته الكارثية، كان صاحبنا الزواج المطلاق ينتشي بـ «خسارته»، ويتباهى قائلا:

- والله إني لأستحق الأجر والثواب على صنيعي، ماذا كانت [= طليقته] ستفعل بكل تلك الأموال؟! ما أقوم سوى بإعادة توزيع ثروة

النساء بشكل عادل بينهن: آخذ من هذه وأعطي لتلك! أرجع لتلك ما أخذته منها هذه!

ثم يسوق حكاية اللص الأنيق الذي أكرمه برنامج «مسرح الجريمة» التلفزيوني بحلقة خاصة:

> قدم اللص الأنيق نفسه لموظفة تسكن في مدينة تمارة باعتباره مفتش شرطة، وكتب معها فصول قصة زاعما أن نهايتها ستكون ركوب «العمَّارية»، ثم واظب على لقاء البنت إلى اطمأنت له وأدخلته بيتها، فإذا به يدس لها في الأكل عقارا منوما، ويفتش بيتها شبرا شبرا إلى أن وجد في خزانة غرفة النوم الخشبية مبلغ 17 مليون سنتيما أوراقا نقدية، فاستولى عليها وأطلق ساقيه للريح، بعد أن أحكم إغلاق باب الشقة على صاحبته بمفتاح تخلص منه فور ابتعاده عن الحي، وكان المنوم قويا بحيثُ مكثت «العروس» يومين كاملين في السبات العميق... ولولا صراخها بأعلى صوتها وهبة الجيران لنجدتها بتكسير باب المنزل لنفقت جوعا أو ظلت حبيسة بيتها إلى أيامنا هذه...

يعيد صاحبنا قصَّ حكاية لصه النموذجي، ثم يعلق مستنكرا:

- بالله عليكم ماذا كانت ستفعل بكل ذلك المبلغ؟! ثم، لو كانت نية ذلك اللصّ بين مزدوجتين (كذا) حسنة، وتصدقَ بالمبلغ السابق على

المحتاجات على نحو ما أفعل أنا، لما ألقت الشرطة القبض عليه، ولما أعتُبر لصًّا، ولما دخل السِّجنَ....

يقول ذلك ناسيا - أو متناسيا - أنه قد حطمَّ أرقاما قياسية في سرقة أرزاق وسلب قلوب...

بعد أنخاب ليلة النصر الباذخة، يعود صاحبنا إلى سيرته الأولى: يتربصُ بإحداهنَّ، ويلقي عليها شباكه. وفي انتظار أن تقع في الفخ، يواظب على التردد على الملاهي الليلية، في كل مرة يعود إلى البيت، في جنح الليل، متأبطا رفيقتين أو ثلاثا من بنات الليل، لكن ما إن تمضي سويعة حتى تسطو «الضيفات» على أغلى ما في البيت مما خف وزنه وغلا ثمنه، الهاتف الذكي في المقدمة طبعا، ثم تطلقن سيقانهن للريح، فيهرول وراءهما، نازلا درج العمارة، وهو يصرخ:

- اقبضوا العاهرات! امسكوا العاهرات!

دونَ أن يفلح في إدراكهنَّ والإمساك بأي واحدة منهنَّ، لأنهنَّ يتبخرن في الظلام بسرعة البرق كفئران رشيقة هاربة من قط سمين...

الرّومية والحاجّة

عُدتُ من التسوق قبل قليل. في المتجر، قبيل الأداء وقف زوجان بينهما تنافر صارخ:

الزوجة في حوالي الخمسينات من عمرها، ضخمة الجثة، لا يقل وزنها عن حوالي 200 كلغ على أقل تقدير، انتفخ بطنها واندفع إلى أن تدلى أمامها، وتكومت مؤخرتها من ورائها مثل قبة ضريح عملاقة، في حين الزوج شاب في حوالي الثلاثينات من عمره، نحيف، رشيق البدن، لا يتعدى وزنه 65 إلى 70 كلغ على أقصى تقدير، أخفى عينيه وراء نظارتين شمسيتين، ربما ليكتم هويته أو ليتقي عيون زبائن المتجر بعينيه، ومحاصرتهم إياه بالنظرات الساخرة المستنكرة...

المرأة أوروبية، تحمل علامات الترحاب الحار الذي حظيت به من لدن أهل الزوج، إذ امتلأت يداها وقدماها بزخرفات الحناء ونقوشها. لم أستغرب للزوج ولا لعائلته؛ فقد شاهدنا منذ أسابيع شريط فيديو لشاب أصغر من هذا بكثير، تزوج عجوزا فرنسية طاعنة في السن، تبدو كأنها جدة والدته أو جدة والده، إذ لم تقو على مجرد النزول من الدرج لولا إمساك

شخصين من أهل العريس بها من الذراعين. نزلت وموكب عائلة الشاب ومدعوو الزفاف يصدح بالصلاة على النبي والزغاريد... أقول: لم أستغرب للزوج ولا لعائلته، بل تعجبتُ من شيئين:

الأول نفاق العديد من الأسر المغربية وشيزوفرينيتهم في التعامل مع علاقة أبنائهم بالجنس الآخر حسب ما إذا كان مغربيا أو أجنبيا (أوروبيا بالخصوص)، فتجدهم يسمحون لابنتهم باصطحاب الرجل الأوربي إلى البيت، بل وربما حتى المبيت معه في غرفة واحدة، دون عقد زواج، ويقومون بالشيء نفسه مع ابنهم عندما يستضيف أنثى أوروبية إلى البيت، في حين يمنعون منعا قاطعا على ابنتهم أن تصطحب معها مغربيا إلى المنزل وعلى ابنهم أن يستضيف فتاة مغربية!

أما الشيء الثاني الذي تعجبت منه، فهو عدم فطنة هذا النوع من الستات الروميات إلى أنَّ ما وراء زواج الشباب العرب والمغاربيين بهن سوى حكاية الحصول على رخصتي الإقامة والعمل. مغاربة الداخل يعرفون ذلك جيدا، ولهم فيه نكت كثيرة، منها:

> كان أحدهم مارا رفقة زوجته النصرانية العجوز، فزلت قدمها، فسقطت فوق الأرض دون أن يفطن الزوج إلى وقوعها، لأنه كان يتقدمها ببضع خطوات، فواصلَ سيره، وإذا بجالسين في رصيف مقهى يخاطبونه:

- أ الشاب! أ الشاب! اجمع اوراقك [= تصاريح الإقامة والعمل في أوروبا]، راهم طاحو لك!

يمكن افتراض تفسير آخر، وهو أنَّ هذا النوع من الزوجات يعلمن علم اليقين أن أزواجهن ما اختاروهنَّ لحبّ ولا لتكوين أسرة ولا هم يحزنون، بل فقط للحصول على رخصتي الإقامة والشغل، ومع ذلك، فهنَّ لا يترددن في «ضرب أيديهن»، كما يقال، في شباب ورجال يستحيل عليهن الوصول إلى أمثالهم من بين مواطنيهنَّ وبني جلدتهن، تماما كما يستحيل أن يقبل هؤلاء الأزواج الشباب (العرب والمغاربيين) الزواج بواحدة من مواطناتهم وبنات جلدتهم العجائز. ربما «تضرب» الأجنبيات بزواجهن ذاك «أيديهنَّ» في أزواجهنَّ قائلات:

- قبل كل شيء وبعده، طز في الجميع!...

انصرف الزوجان، قلتُ في خاطري ما نشرته في إدراج لاحق:

سبحان مبدل الأحوال ومُدير الدوائر! بالأمس كان كُهولُ العرب يتخذون من بنات الفرس والروم، وغيرهم من الأمم، قينات وجوارٍ، واليوم تستخدم عجوزات الروم شباب العرب أزواجا وغلمانا...

*

*　　*

تعطل جهاز استخدام بطاقة الأداء. ليس في جيبي نقود. اقترحت العاملة أن أذهب إلى جناح المتجر الآخر المخصص لبيع الخمور، فأسدد هناك، بالبطاقة البنكية، ثمن ما اقتنيته من هنا...

هناك، دخلت امرأة في حوالي منتصف الستينات من عمرها، ارتدت جلبابا، ولفت رأسها بفولار، كسائر عجوزات الأحياء الشعبية والطبقات الفقيرة ونساء البوادي عندما ينزلن إلى المدن. بدا وجودها في هذا الفضاء غريبا جدا، اختلستُ النظر، فإذا بها تحظى باستقبال حار اتضح معه أنها من مدمنات التسوق من المكان: الحراس يحيونها:

- أهلا الحاجة! مساء الخير أ الحاجة!

عاملة استخلاص النقود تحييها:

- أهلا الحاجة، كيف أحوالك، بخير؟...

اتجهت المرأة صوب الرفوف واستغرقت في انتقاء أنواع من الخمور. دهشتُ، راودتني فكرة أن أقف قبالة المتجر وأراقب من بعيد. من يدري؟ فقد لا تكون هي شاربة كل هذه الخمور، بل زوجها الجالس وراء مقود سيارته الآن، بل قد تكون الجالسة الآن وراء مقود السيارة امرأة بورجوازية وتكون هذه الست هي مقتنية الخمر الفعلية، في حين تكون «الحاجة» مجرَّد شغالة عند المرأة الثرية... لكني استسخفتُ الفكرة، واستكثرتُ أن أجعل نفسي المتلصص الوحيد على تلك المرأة من بين كل

من كان في المتجر، لاسيما عندما تذكرتُ أيام كنتُ أتردد على هذا النوع من المتاجر:

فقد كان شبه هذا مما يقع بانتظام، حيث يقف زبون تبدو على ملامحه إدمان الجريمة أو مرافقة أهلها، كأن يكون في وجهه أثر جرح سكين غائر، يقف بجانب زبون ثري، أنيق اللباس والعطر، بجانب بنتين ترتديان آخر تقليعة موضة، بما في ذلك تنورات قصيرة جدا، بجانب رجل بجلباب يبدو كأنه خرج للتو من مسجد ، وما إلى ذلك، دون أن يتأفف أحد من آخر أو يستكثر وقوفه بجانبه أو «يقلل الحياء عليه»، أو يسرقه أو يتحرش به، إذ يستغرق الجميع في انتقاء الآلية الأنسب للتحليق بعقله في السماء دون التفات إلى اليمين ولا إلى الشمال: هذا ينتقي مروحية، وذاك طائرة ركاب، هذا صاروخا، وذاك مركبة فضائية، وهذا قمرا صناعيا وذاك مسبارا فضائيا ليحط في كوكب آخر، ما إلى ذلك، فكنتُ يومئذ أقول:

- تشكل متاجر الخمور ساعة اكتظاظها بالزبائن إحدى الفضاءات التي تتحقق فيها أعلى درجات التعايش والتسامح في بلادنا!

مرضُ قلبٍ مقاوم للدّهنيات واللحوم الحمراء والمقليات!

جددتُ صلتي اليوم بمطعمي المفضل، بعد انقطاع عنه لمدة طويلة بسبب تقاعسي عن الخروج للمشي في النهار. وإذا كان لي أن أشكر أحدا لهذا التجديد، فلي أن أوجهه لصديقتين مكناسيتين، اختارتا لدى عودتهما من رحلة إلى مراكش، قبيل العيد الأضحى، قطع سفرهما في القنيطرة، فأقامتا في فندق، فحرصتا على لقائي، في مكان تصادف أنه كان قريبا جدا من المطعم، فكان أن تناولنا وجبة الغذاء هناك... راقني المطعمُ كثيرا للعناية الكبيرة التي أحاطه بها صاحبه، حيث جدَّد كل شيء فيه تقريبا، ما فتح شهيتي للرجوع إليه، وهو ما فعلتُ اليوم.

جلستُ في مائدة قصية بساحة المطعم، وفي انتظار أن يأتيني النادل بما طلبتُ استغرقتُ في تأمل تفاصيل ما استجد بعد غيبتي، فإذا بكل شيء أنيق فعلا، إذ نجح صاحب المحلّ في الموازنة بين توفير جمال المنظر وجاذبية المكان دون أن يصرف مبالغ كبيرة، ما مكَّنه من الحفاظ على أسعار

الوجبات، المعقولة أصلا، والاحتفاظ بالزبائن القدماء، بل وربما جلب زبائن جدد، بخلاف جاره الذي تمادى في إهمال مطعمه، والزيادة في أسعار المأكولات والمشروبات، فعاقبه الزبائن بأن انفضوا من حوله، فلم يجد بدا من الإغلاق، رغم أنَّه كان أوروبيا أبا عن جد، ينيط مهمة قبض النقود بسيدة جميلة وأنيقة جدا، ويشغل نادلات صغيرات جميلات... ربما كان خطؤه القاتل أنه استغبى الزبائن المحتملين منذ البدء، إذ أطلق على محله اسما نخما مع أنه صغير لا يتسع لعدد كبير من الزبائن؛ كتب في أعلى واجهته بخط كبير: «سندباد: مقهى وصالون شاي ومطعم »!، ربما حسب نفسه جاء إلى إحدى قرى مالي أو الصومال، كما كان يتوهم الكثير من الفرنسيين، من قبل، أيام كنا طلبة في باريس، في منتصف ثمانينات القرن الماضي. كانوا يتخيلون أننا جئنا من الخيام ومن ظهور الجمال، فكان بعضهم يسأل بكل «براءة»، وبعضهم الآخر بنبرة مبطنة بالعنصرية والاحتقار:

- ما اسم عاصمة بلادكم؟
- هل تعيشون في الخيام؟
- هل تركبون الجمال؟
- ماذا تأكلون؟
- ماذا تشربون؟

- لماذا جئتم إلى هنا؟

وما إلى ذلك من الأسئلة السخيفة المقززة التي تسلينا غير ما مرَّة، إمعانا في إضفاء مزيد من العبثية على الحديث مع ذلك الصنف من البشر واللقاءات التهكمية، لكن أيضا لرد الاحتقار بالاحتقار، تسلينا بتقديم أجوبة مثل:

- إيه، والله، الأمر كذلك!

- عاصمتنا الرباط، تحيط بها الرمال من كل الجهات.

- نسكن الخيام، ونركب الإبل.

- نتوجه إلى الجامعة على متن البغال والحمير، وقبل الذهاب نحلب البقر، ونسوق قطان الماعز والإبل إلى المراعي، ونتركها هناك، ونرجعها إلى خيامنا في طريق عودتنا إلى الخيمة!

- جئنا إلى هنا لنتعلم الحسابَ، وتحرير عقود البيع، لنحسنَ تسويق جمالنا وحميرنا وبغالنا!»...

وعندما كان أحد أولئك البلداء يسأل:

- أين تقع الرباط؟

كان الجواب:

- على بُعد بضع كيلومترات من نواديبو.

أو يسأل:

- أين يقع المغرب؟

كان الجواب:

- جنوب مالي (أو شمال أوغندة)! ...

وقد تكون الضربة القاضية جاءت صاحبنا النصراني ربّ المطعم من جهات لا يد لصاحب مطعمي فيها من قريب أو من بعيد:

فمقابل تسمية الأول مطعمه باسم استعاره من إحدى سلسلات الفنادق الراقية بأكادير، سمى الثاني محله «الموناليزا». ولم يكتف بالتسمية، بل وضع صورة كبيرة للموناليزا في جدار ساحته، وفيما كان يخيم على فضاء المطعم الأول صمت قاتل، تفنن صاحب المطعم الثاني في إمتاع زبائنه بأجمل أنواع الموسيقى الآلاتية. أكثر من ذلك، بينما يقع المطعم الأول في زاوية ملتقى طرق، تتوسط المحل الثاني شبه ساحة صغيرة فارغة، ومقهى اختار لنفسه اسما أنيقا، التصق هو الآخر بأحد أرقى ملاهي المدينة، يذكر سواد بابه بأمنيزيا الرباط، وها هو أحد خيوط الرواج ينكشف: المطعم قريب جدا من مكان للشراب واللهو! لا داعي لمن تهيأ (أو تهيأت) لصعود طائرة العقل، أو حتى حلق (أو حلقت) في الأجواء العليا، خصوصا في الليل، أن يجتازا «صراطا» لكي يصلا إلى مطعم «رامبو» القرن الواحد والعشرين! يستغنيان عنه بفضاء «الموناليزا» الذي حرص صاحبه على خلق

الجو الآنف كله مع المواظبة على أداء الصلوات في أوقاتها في آن واحد، داخل المطعم نفسه... منتهى التعايش والتسامح! يتعايش الزبائن على أصنافهم في احترام متبادل لبعضهم البعض ويوفون طقس الأكل حقوقه وواجباته. فكل زبون وزبونة حر في سلوكه ومسؤول عنه، لكن لكل طقس مكانه. لا مجال للخلط بين هذا وذاك. وبذلك تجد الفضاء أحيانا خلاصة للمجتمع المغربي من حيث تنوع أصناف الزبائن...

*

* *

انهمكتُ في الأكل، وها هي امرأة عجوز تقف قبالة إحدى الموائد المجاورة لي، فوق رأس رجل مسن صاحب لحية قصيرة بيضاء وطاقية أيضا بيضاءمن النوع الذي يرتديه حجاج البوادي والمدن الصغرى ويتكرمون به على الأهل والجيران بعد عودتهم من الديار المقدسة، في حين ارتدى جليسه الشاب بذلة عصرية رمادية أنيقة ونظارتين طبيتين. كانت العجوز مرتدية جلبابا أسود وحذاء رياضيا، وقبعة رياضية حمراء، محيطة وجهها بفولار وردي تدلى إلى أن غطى نصف صدرها. كانت تبدو منهكة، تكاد تقوى على الوقوف، فاتحتْ جاريَّ، استعطفتهما كي يمنحانها فقط ما تيسر من الطعام لتسد به رمقها، لأنها جائعة جدا، لم تأكل شيئا منذ الصباح، وأنها على وشك الإغماء من شدة التعب والجوع ومرض القلب حسب ما

قالت. ولتقديم الحجج والأدلة على مرضها، أخرجت من حقيبة يدوية قويت على حملها بالكاد دزينة علب أدوية مرض القلب والشرايين، وورقة قالت إنها لإجراء عملية على القلب في غضون يومين إلى ثلاثة على أكثر تقدير. وبما أنه سبق لي أن تناولتُ «جبالا» من أدوية مرض القلب، على حد تعبير طبيبي نفسه، أيام قضيتُ حوالي أسبوعين بقسم مستعجلات أمراض القلب والشرايين بأحد المستشفيات، بحيث صرتُ أعرف أسماء العديد من أدوية أمراض القلب والشرايين، فقد ألقيتُ نظرة على علب العقاقير التي أخرجتها المرأة، فإذا هي أدوية لا علاقة لها إطلاقا بأمراض القلب! أغرب من ذلك، فقد كانت العلب خليطا من منشطات جنسية ومسكّات لأوجاع الرأس ومراهم، وما إلى ذلك! فطنتُ إلى أنَّ المرأة، خلافا لمزاعمها، لم تكن سوى واحدة من هؤلاء المتسولين والمتسولات الذين يجيدون تمثيل أدوار البؤس واستدرار العطف في مسرحيات يتقنون كتابة سيناريوهاتها وإخراجها، والذين تمتلئ بهم المحطات الطرقية لنقل المسافرين، ووسائل النقل العمومي نفسها بما في ذلك القطار، إذ دأبت مؤخرا جماعة على الصعود من محطة تابريكت بسلا وعرض مسرحية الشحذ من سلا حتى مشارف القنيطرة بمنتهى الإتقان، فيزعم هذا أنه قد خرج من السجن للتو، وأنَّه لا يملك مليما واحدا للرجوع إلى مدينته، ويزعم ذاك أنَّ السبيل قد انقطعت به، بعد أن فقد أمواله وأوراقه خلال عودته من سفر إلى هذه المدينة أو تلك، لزيارة قريب له، وتخرج تلك دزينة من الأوراق زاعمة أنَّ

والدتها مريضة بالسرطان، وأنها قد طرقت جميع أبواب المساعدة، لكن دون جدوى، فلم يبق أمامها سوى ملاذ واحد، هو ركاب القطار، بعد الله، على حد تعبيرها، وما إلى ذلك. بل رابطت إحداهن في المحطة الطرقية للمسافرين بمدينة الرباط سنينا طويلة تستجدي. كانت تأتي يوميا، وتصعد الحافلات واحدة واحدة قبل إقلاعها، فتزعم أن كل ما تحتاجه هو ما تسد به رمقها وتؤدي به ثمن الإقامة في نزل، لأنها سوف تجري عملية جراحية في غضون يومين بالمستشفى الجامعي ابن سينا. تعاقبت السنون، دون أن تجري عملية جراحية ولا هم يحزنون...

قلتُ ربما هذا بالضبط ما قامت – وتقوم - به عجوز اليوم. فهندامها يفضح احترافها التسول: القبعة الرياضية للوقاية من الشمس جراء قضاء وقت طويل تحتها، والحذاء الرياضي لقطع المسافات الطويلة مشيا على القدمين، وشدة التعب ووشك الإغماء المزعومان تبددا بمجرد ما حصلت العجوز من جاريَّ على ما أرادت. يبدو أن اللعبة انطلت على جاريَّ، أو تظاهرا بتصديق المتسولة: أعطياها صحني بطاطس مقلية، وقطعة دجاج مشوي ولحما مشويا، وزاداها السلطة التي كانت تشتمل على خضر وسمك وجبن أصفر ومايونيز، فحرصت على أن تسكب عليها مزيدا «المايونيز»، ثم طلبتْ ورق ألمونيوم، ولفت بداخله ما نالته، وانحنت لتدسه في حقيبتها التي حرصت على إخفائها تحت مائدة الجالسين، استرقتُ نظرة إلى ما

بداخل الحقيبة، فإذا بها ممتلئة إلى النصف بسائر أنواع موبقات مرض القلب: نقانق، دجاج، لحم، لحم مفروم (كفتة) وسط أنصاف دوائر الخبز. أشفق عليها بعض الزبائن، سلموها بعض ما كانوا يأكلون، وضعت كل شيء في الحقيبة، وقفت، خطت بضع خطوات، اختفى تعبها، مشت مشية عادية، وقفت في مائدة قصية بالجهة المقابلة، وها هي تماوتُ مجددا، وتستأنف عزف أنشودتها من جديد:

- أكاد أموت جوعا، لم آكل شيئا منذ الصباح، أنا على وشك أن يُغمى عليَّ. أنا مريضة بالقلب، ها هي الأدوية التي أتناول، سوف أجري عملية جراحية على القلب في غضون يومين، ها هي وثيقة المستشفى!...

صلاةٌ بالجُمْلَة (أو الشحاذ الفيلسوف)

في المطعم، قبل قليل، بينما كنتُ مستغرقا في معالجة طبق كسكسي الأسبوعي وأنا جالسٌ كالعادة في المائدة المركونة في أقصى اليمين، والتي أختارها دائما لأنها تمنح شعورا بشبه الانزواء، فضلا عن كونها تقع بمحاذاة شبه سور قصير جدا من مزهريات أعشاب، غالبا ما تجلس فيها قططٌ منتظرة أقل إشارة من هذا الزبون أو ذاك، فتلبي نداءه بمنتهى السرعة. الجوعُ غلاَّبٌ!... بينما كنتُ كذلك، إذا بأحدهم يتسلل من الزاوية المقابلة، أتى الشيب على رأسه كاملا، ارتدى القادمُ جلبابا قصيرا بنيا مال إلى الصفرة جراء الغبار أو كثرة الاستعمال، تحته سروال دجين أزرق، وحذاءان عُقدَ خيطاهما بشكل «ملخبط»... لم أفطن إلى ذلك كله إلا عندما سمعتُ عزف كمان فوق رأسي، اتضح أنَّ الغريبَ متسولٌ وأنه هو من كان يعزف، وأن العزفَ كان مطلع إحدى أغاني العيطة العربية الشهيرة. قام بذلك دون أن يفطن (أو يكترث) إلى أنَّ مُوسيقى هادئة كانت تنبعث من مكبرات الصوت الصغيرة المثبتة في سقف ساحة المطعم وداخله، وأنَّه بعزفه قد أحدث تشويشا حال دون الاستماع

الواضح لأي من النغمين... مع ذلك، وحتى لا يمضي عزفُ الغريب هباء، أرسلتُ إليه بيدي إشارة مُبهمة بألا ينتظر مني أن أعطيه شيئا. كان بودي أن أتركه يكمل أداء المدخل الآلاتي ويغني بعض أبيات القصيدة، ثم أمنحه ما تيسر ليس بنية التصدق، بل بنية أداء مستحق ما سمعتُ، لأنَّ أكثر أشكال التسول إزعاجا هو هذا النوع الذي يُحاصرُ فيه المتسولون المتصدقين المحتملين، كأن يباغتوا المرءَ وهو جالسٌ في مطعم أو وسيلة نقل عمومية، أو بصدد أداء ما تسوق في دكان أو محل تجاري، أو مستغرق في سحب النقود من صراف آلي، فيكون ذلك منتهى الإحراج الذي لا يترك للمرء أي مجال للتملص أو المراوغة...

كان عُذري في إرسال الإشارة المبهمة لصاحبنا أني كنتُ مستغرقا في الأكل، وإطعام قطة كانت بجانبي الأيمن، وحرصي على عدم نسيان شرب الدواء في منتصف الوجبة. أكثر من هذا وذاك، كانت يدي مبللة بحساء الطعام، فلم يكن بإمكاني دسها في الجيب لإخراج قطعة نقود ما لم أقم إلى بيت النظافة لغسل اليدين أو أسكب ماء عليهما من زجاجة الشرب الموضوعة فوق المائدة، ثم مسحهما بالورق المنشف، ما كان سيؤدي إلى توسيخ أرضية المطعم... وبالجملة، فقد كان سوء حظ صاحبنا أو جرأته مماثلين لذلك الصنف من المتسولين الذين يستوقفك أحدهم في الطريق، وأنت سائر بخطو مهرول، ويداك مشغولتان بحملين ثقيلين، ثم يطلب منك

صدقة مع أنه يدرك تماما - أو يتجاهل - أن الاستجابة لطلبه ستقتضي منك أن تتوقف عن المسير، وتضع الأثقال، وتدسّ اليد في الجيب، وما إلى ذلك... أو الصنف الآخر الذي ينزوي قرب الصراف الآلي، ويحاصر الزبائن بالاستجداء. لا ينفع أن تعيد لازمة أنه ليس في جيبك قطعة نقدية معدنية واحدة، وأنَّ الصراف لا يعطي سوى أوراقٍ...، إذ يُواصل المتسول إصراره، بل قد يملي عليك ما يجب عليك أن تفعله، فيأمرك قائلا:

- اسحب النقود، ثم اذهب إلى تلك المحلبة أو ذلك المقهى، واطلب كأس عصير ليمون، ثم صرِّف، وتصدق عليَّ!...

لقسم كبير من هؤلاء أعذارهم، لكن المستنقع كبيرٌ عميقٌ، واسعٌ شاسعٌ، لا يتسع المقام للخوض فيه. فلولا المستنقع لكان هذا الفيلسوف يلقي الآن دروس فلسفة في مدرجات إحدى الجامعات، أو مستغرقا في تأليف مصنفات في محبة الحكمة بدل تأبط هذا الكمان المهترئ وجَوب المطاعم والحانات والملاهي نظير أن يستلَّ ما يقتات به من جيوب من شاء عبث الأقدار ولا مبالاة مسؤولي البلد أن يضعاه هو بالذات في هذا الموضع... ولكن للمتصدقين في مثل هذه المواقف بدورهم أعذارهم الأخرى التي يستدركونها مع متسولين آخرين في سياقات أخرى مناسبة، تتأتى بسرعة البرق، يستحيل أن تعود إلى بيتك دون أن تصادف متسولا أو متسولة آخرين. البلاد تعج بجيوش عرمرم من الشحاذين، ربما باستثناء

العاصمة التي كانت من النرجسية بحيثُ زعمت - أو توهمتْ - أنها وصلت إلى عصر التنوير، فتسمت بـ «مدينة الأنوار» تاركة شقيقاتها وراءها في عصور أخرى: هذه في النهضة، وتلك في القرون الوسطى، هذه فيما قبل التاريخ، وتلك في العصر النيوليتي، بل ومنها ما تُركَتْ في العصر الحجري، حيثُ لازال من يعيشُ في الكهوف!... وما لم تمنحه لهذا المتسول أو تلك سيكون دائما بإمكانك إعطاءه لآخر وأخرى، في لمح البصر، بسرعة الضوء، وأسرع من «خير البر عاجله»...

مثل قِرد، كَرَّر إشارتي المبهمة الزبونُ الذي كان جالسا عن يساري مستغرقا في أكل دجاج وبطاطس مقلي، ومثلُهُ ومِثْلي أعاد الإشارة ذاتَها الزبونُ الثالثُ الذي كان عن يسار جاري. لم يفاجئني ذلك، لأن التقليد متأصل في الثدييات، قططا كانت أو أرانب أو بشرا أو قردة...

أوقف المغني عزفه، ثم خاطبنا مبتسما بنبرة ساخرة:

- كلكم «لا»؟!
- و«اللاَّ» هي «اللاَّ»؟!

ما يفيد أنَّه خبيرٌ بـ «حرفته»، يمارسُ عن وعي ما أسميتُه للتو بتقنية «المحاصرة» و«الإحراج»، بل وأنه، بخلاف معظم من يزاولونها، قادرٌ أيضا على إفهام مخاطبيه أنه قد أدرك ما حسبوا أنه لم يفهمه!، بمعنى أنه يجيد

الحديث أيضا بـ / وفي «الميتا لغة»، بل يمكن المضي أبعد واحتمال أنه قادر على فهم درجات عليا من التجريد:

فبتأمل قوله: « كلكم «لا»؟! و«لا» هي «لا»؟!» يتضح أنه ربما يدرك جيدا وجود مستويات من الـ «لا» ومستويات من الـ «نعم»، إذ قد تفيد «لا» معنى «لا» فعلا، كما قد تفيد معنى «نعم»، أي عكسَ منطوقها، وقد تعني «لا»، و«نعم»، ومثلها هذه الأخيرة، كما في حالة الحياد الذي توجد فيه مستويات لا يُدركها إلا النبهاء، إذ هناك الحياد المحايد والحياد المنحاز، والحياد الإيجابي والحياد السلبي، والحياد الإيجابي المائل إلى السلب والحياد السلبي المائل إلى الإيجاب، وما إلى ذلك، مما يكون للسياق وإشارات اليد وملامح الوجه فيه الكلمة الفصل.

ومن يدري؟ فقد يكون المغني، من خلال سؤاله السابق، كان يريد استدراجَ زبون أو أكثر إلى ضرب موعد في حانة أو ملهى ليلي للاستمتاع بأجود أغانيه في فضاء أنسب، فينال من صاحب الموعد هناكَ أضعاف ما يُمكن أن يعطيه هنا، وما إلى ذلك، لأن الخمرة يمكن أن تحول بُخا البُخلاء إلى حاتم الطائي بمجرد أن يتوغل في الشراب مسافة ميل أو ميلين... إذا صحَّ هذا الاحتمال، لم يكن مُرور صاحبنا بالمطاعم والمقاهي في هذه الساعة «المبكرة» سوى عملية تسخين أولية تمهيدا للعب مباراة في هذه الحانة أو تلك، أو تزجية للوقت في انتظار أن يحل الليل فتمتلئ الخمارات عن آخرها

بسكانها الحقيقيين الذين لا تشرق شمسهم إلا بعد غروب شمس سكان المدينة الآخرين...

*

*　　　*

فطنَ نادل المطعم إلى وجود المغني المتسول، هرول نحوه، ثم طرده وهو يوبخه بنبرة ساخرة:

- أما استحييتَ؟! اليوم يوم جمعة. بدل أن تذهب إلى المسجد وتصلي، أمسكت كمانا وجئتَ إلى هنا تعزف؟!

تبين من قسمات الوجه أنَّ النادل لم يكن جادا في مؤاخذته للمغني. اتضح ذلك من نبرة كلامه وملامح وجهه ولا معقولية هذه المؤاخذة. وهذا طبيعي جدا: فلو كان جادا لكان ينهى غيره عما يأتيه هو نفسه، ولحقّ أن يُوجَّه إليه ما يلي:

- أما استحييتَ أيها النادل؟! اليوم يوم جمعة، بدل أن تذهب إلى المسجد وتصلي، جئت إلى المطعم لتشتغل؟!

ثم لو كان جادا في لومه، لاستاء كل زبائن المطعم؛ إذ سيجدون أنفسهم معنيين بتلك المؤاخذة، لأنهم سيكونوا هم الآخرون «لم يستحيوا، وجاؤوا إلى المطعم بدل أن يذهبوا المسجد لأداء صلاة الجمعة»... ثم من

خلال ابتسامة النادل وحركات يديه وإشارات وجهه التي رافقت كلامه، كان واضحا أنَّ الأمر لا يتجاوز ما يدخل في باب الاستهزاء بالمقدس، وهو استهزاء شاسع بين الناس قديما وحديثا، ويمر عبر نكت وطرائف لم تتورع في إثباتها الكثير من كتب التراث الجادة، بل وحتى الفقهية والدينية، وتَناطُ «بطولة» تلك الحكايات والنوادر غالبا إلى أعراب أو حُمقى ومغفلين. من ذلك ما تعج به مواقع في شبكة الأنترنت وصفحات في بعض شبكات التواصل الاجتماعي، مثل:

«صلى أعرابي خلف إمام فقرأ «إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه»، ثم وقف وجعل يرددها، فقال الأعرابي: «أرسل غيره يرحمك الله، وأرحنا وأرح نفسك»، ودخلت أعرابية على قوم يصلون فقرأ الإمام «فانكحوا ما طاب لكم من النساء»، وجعل يرددها فجعلت، الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها، فقالت: «يا أختاه ما زال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا علي»، وقيل لأعرابي: ما يمنعك أن تَغْزو؟ قال: «والله إني لأبْغِضُ الموتَ على فِرَاشي، فكيف أمضي إليه رَكْضاً!»، وغزا أعرابيٌّ مع النّبي صلى الله عليه وسلم، فقيل له: ما رَأيتَ مع رسول اللّه في غَزاتك هذه؟ قال: «وضع عنا نصفَ الصلاة، وأرجو في الغَزاة الأخرى أن يضع النصفَ الباقي»...

أدركَ المغني أن النادل كان يمازحه، فبادله الفكاهة بأخرى، أجابه بنبرة ساخرة مبتسمة:

- أو ظننتني لا أصلي؟! لقد أديتُ صلوات الفجر، والصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، مجتمعة في منزلي قبل أن أخرج. جمعتُ الصلوات كلها في واحدة، ثم جئتُ!

قال ذلك، ثم انصرف. اجتاز الطريق، اتجه صوبَ حانة تقع قبالة المطعم، ثم أمسك كمانه استعدادا للعزف. قبل أن تطأ قدمه عتبة البار، التفتَ إلى الوراء، دون أن يُعرف أكان من خلال التفاتته تلك يتحدى النادل أم كان يتأكد مما إذا كان هذا الأخير هو الآخر يُتابعه بنظراته، فيتصرف (الشحاذ العازف) في المرة المقبلة بناء على نتيجة «تحرياته» أو تقصي أخباره.....

لقب «الحاجّ»

عدتُ للتو من حصة المشي اليومية التي ألزمني بها الطبيبُ. ومن عادتي عندما آخذ وجهة شمال المدينة أني أوقف المشي في منتصف المسافة، وأجلسُ في مقهى شعبي لكي أستريح، فأتناول شايا، ثم أقفلُ راجعا إلى البيت. مما فاجأني اليوم أنَّ صاحب المقهى جاء وصافحني بحفاوة غير مسبوقة، مُكرما إيايَ للمرة الأولى بلقب «الحاج»، كما لو كنتُ قد عدتُ للتو من أداء مناسك هذه الفريضة! دون أن أتساءل عن السر في ذلك، سعدتُ بلقبي الجديد، لأن اللقب القديم (أستاذ) جعله الباعة والتجار والحرفيون من الابتذال بحيث أصبحَ يُمنحُ لمن هبَّ ودبَّ، فينادى به الجزار والخضار وماسح الأحذية، وكل من زار محلا أو مكانا ليقتني شيئا، إذ يرشو صاحب المحل الزبون بلقب «الحاج» لكيلا يغادر الزائر المتجر إلا وقد اقتنى شيئا أو عدة أشياء... وبالفعل، كنتُ أنادى في المقهى بـ «أستاذ» دون أن يعرف صاحبها ولا أي من النادلات أني أستاذٌ فعلا!

جلستُ منتشيا بلقبي الجديد، أحتسي براد شاي ولويزة، لكن ما إن مرت بضع دقائق حتى تماسَّت نادلة، لدى مرورها بجانبي، مع المائدة وها

هو البراد يطيرُ ويقع على الأرض مرفقا بالكأس، فانكسرت الكأسُ، وتدفق الشاي فوق الأرض. قلتُ في نفسي: ما تكون هذه إلا صفعة آتية من لص النساء الذي سبق أن سرق فنجان قهوة هنا فعاقبته، إذ كتبتُ عنه الجزء الأول من نص «لص النساء»[1] أو من صاحب «التخنزير» الذي كنتُ عاقبته أيضا بإفراد نص له بعنوان «العصير والتخنزير»[2]، فخشيتُ أن يُفطَنَ للسبب فأفقد لقبي الجديد، لكن ها هو صاحب المقهى يأتي قائلا:

- لا عليك، أ الحاج. هذا مما يقع. سنتكفل بكل شيء!

وفعلا، فقد تكفلوا بكل شيء: أرسل لي براد شاي ولويزة جديدين، بعد أن محت النادلة آثار الحادثة، بتنظيف المائدة والأرض، فواصلتُ احتساء الشاي منتشيا بلقبي «الجديد» الذي لم يكلفني انتظار نتائج قرعة، ولا أداء مستحقات مالية، ولا شد حقائب، ولا امتطاء طائرة، ولا تدافعا مع الحجاج، ولا رجم الشيطان، ولا القيام بأي شيء من طقوس هذه الشعيرة. بيد أني ما إن عدتُ إلى البيت حتى تذكرتُ المثل المغربي الشائع: «ثلاثة أشياء لا تؤتمَنُ: الحاج، والعجاج، والفيراج (= منحرف الطريق)»، وفي رواية أخرى «أربعة أشياء لا تؤتمَنُ: الحاج، والزّاج (= الزجاج)،

[1] منشور بالعنوان نفسه في الكتاب الحالي.

[2] منشور بالعنوان نفسه في الكتاب الحالي.

والعجاج، والفيراج»، فتلاشت نشوتي، وتوجستُ كثيرا من لقبي الجديد، لأنه سيجعلني محل احتياط وارتياب من لدن الكثيرين!

بعد مرور حوالي عام، راج في اليوتيوب وبعض مواقع التواصل الاجتماعي شريط فيديو يدعو فيه أحد الجزائريين مواطنيه إلى مقاطعة الحج، كما دعا بعض النشطاء من أكثر من قطر عربي إلى هذه المقاطعة، لأسباب عديدة، في مقدمتها حرب اليمن، فكتبتُ الإدراج التالي:

«أغناني لقب «الحاج» الذي أصبح يُغْدَقُ عليَّ يمينا وشمالا في الأسواق والمحلات التجارية، وغيرها من الأماكن العمومية، مع ألاَّ شيء يوحي بأنني شخص متدين، فحتى ما سيمونه ب «دينار الصلاة» لا يوجد في جبيني... أغناني عن أداء هذه الفريضة وعن الحرج الشَّديد الذي كنتُ سأضع فيه نفسي أمام دعاة مقاطعة الحج...! سأقول لهم: أنا حَجَجْتُ قبل أن تطلقوا حملتكم، لم أخنكم. لي شهودٌ على ما أقول!»».

*

*　　　*

لاحقا، حضرتُ واقعة ذات صلة بلقب «الحاج»، فدونتها كالتالي:

نحمد الله أن منحنا صدرا رحبا تجاه لقب «حاج» الذي أصبح بعضهم يوزعه يمينا وشمالا، كلقب «الأستاذ»، وذلك بخلاف بعض النساء، فقد شاهدتُ بأم عيني بائعا سعى لإكرام إحدى

المشتريات بلقب «الحاجَّة»، فإذا بها تنتفض في وجهه قائلة: «الحاجَّة هي امُّك!»، فتطور الخلاف بينهما إلى تلاسن كاد أن يفضي إلى اشتباك باليدين، وتبادل للضرب والجرح، فحضور سيارة الإسعاف، ثم الشرطة، فلا تكون للحكاية تمة إلا في مخافر الشرطة وردهات المحاكم، لولا تدخل الحاضرين، وإصلاح ذات البين بين الاثنين...» هههههه».

حسِبتُ المرأة انتفضت في وجه البائع لأنها ظنتْ أنه، من خلال مناداتها بـ «الحاجة»، قد اعتبرها امرأة متقدمة في السِّن، وهذا من أشد ما تخشاه عموم النساء اللواتي تعتبرن الصغر والجمال رأسمالهن الأوحد والوحيد، فإذا ببعض الأصدقاء يوضحون في تعقيباتهم على الإدراج بأن لقب «الحاجَّة» في بعض مناطق المغرب يُطلقُ على مديرات أوكار الدعارة (القوادات)، ولقب «الحاج» كان يطلق على جلادي بعض المعتقلات السرية إبان سنوات الرصاص بالمغرب:

«ههه هذه كارثة ثقافية اجتماعية وإنسانية. مع الأسف بنفس بالمعنى القدحي يرتبط لقب الشريفة في بعض المناطق الشيخة القوادة العجوز.... لقب الشريفة متداول ومرغوب فيه في العديد من المناطق وعلى رأسها مكناس، فاس، وزان، الشاون، مدن الشمال، وتافيلالت، ما عدا ذلك تقريبا "إذا قلتيها لشي مسخوطة

تندمك"... المسخوطة المقصودة ترفض تصنيفها ونعتها بالشريفة بالمعنى المنحرف والقدحي المترسخ في ذاكرتها...» (عزيز الذهبي).

«نعم إنه قدحي. خاصة بالنسبة للمرأة، إذ هو ما تلقب به المكلفات بإدارة وكور الدعارة عادة.. وتداولها كذلك هو نتيجة اكتساح الفكر المذهبي لشاشاتنا الرديئة البرامج.. وهو لاستمالة ماكرة بوجهين.» (خديجة زواق).

«شخصيا، أرفض تسمية الحاجة لأسباب كثيرة منها أن لها معنى قدحيا مهينا لدى الكثيرين، ومنها أن الحجاج معروفون من هم في تاريخنا الراهن؛ فهم الجلادون الذين كانوا يخفون أسماءهم ويعوضونها بلقب الحاج، أفضل أن أسمع لفظة الوالدة عوض الحاجة. أما لفظة أستاذ وأستاذة فقد أصابها الابتذال، وربما كان هذا مقصودا.» (دامية بنخويا).

«في الأسبوع الماضي حدث لي نفس الأمر مع إحدى الشابات وهي معذورة طبعا! أردت اقتناء حلويات وما إن وقفتُ أمام صندوق العرض حتى بادرتني "أش حب الخاطر أ الحاج؟ "، قلت لها لست حاجا ولا أحب الحجاج! وإن كان علي أن أحج، فسأحج إلى الكريملين! الفتاة لم تعرف سبب غضبي طبعا! وأنا لم أفسر لها: أن الجلادين في الدرب الحقير كانوا يسمون أنفسهم حجاجا!» (الذهبي المشروحي).

«قد يكون هذا التداول الاجتماعي للفظة "حاج" مقبولاً في سياق تشريف المناداة أو منحها حمولة تقدير واحترام، لكن ما قد يجهله الكثيرون من المغاربة هو استعمال اللفظة ذاتها في سياق عذابات استثنائية؛ فالذين قدر لهم المرور من جحيم المعتقل السري /العلني "درب مولاي الشريف" بالبيضاء، حيث كانت مدد الحراسة النظرية بالسنة وزيادة... أولئك يعرفون أن المعتقل الذي تعصب عيناه بحيث لا يرى سوى الظلام، وتكبل يداه... يُطلب منه إن أراد ارتياد المرحاض أن ينادي الجلاّد بلفظة "الحاج" لكي يسوقه إلى "بيت الما"، في إهانة وضرب وركل وسب.... فيالها من مفارقة عدوانية وسادية كانت، تفرغ لفظة الحاج من سياقها التعبدي والديني والرحيم... هذا فقط بما أن الشيء بالشيء يذكر.» (توفيق عبد الحق البقالي).

ماكياج العُمرة!

أثناء عملي في إحدى المؤسسات التعليمية، قبل عقود، وقع الحدث المثير التالي:

كان أحد الأساتذة مشهورا بكسله وتهاونه، إذ لم يسبق له أبدا أن جدَّد دروسه أو حيَّنها، على امتداد سنين طويلة، بحيثُ بليت جذاذاته، وأصبحت رثة صفراء اللون جراء تقادمها وكثرة استعمالها. لم يكن الحاسوب الشخصي قد انتشر بعدُ. وحدث يوما أن كنتُ بمعية أحد مسؤولي المؤسسة رفقة جماعة من الأساتذة والأستاذات، في مجلس عزاء، فإذا بالمسؤول يتلقى مكالمة هاتفية من الأستاذ المذكور. تَطَيَّر متلقي الاتصال، لأنه لم يكن من عادة ذلك المدرِّس أن يهاتفه، فظنَّ أنَّ المكالمة كانت جراء طارئ سيء، كأن يكون الأستاذ قد ارتكب حادثة سير أو يكون أحد أقاربه قد توفي، وما إلى ذلك، فإذا بالأمر بخلاف ما توقع تماما، إذ كان نص المكالمة، حسبَ المسؤول، هو:

- ألو، السي فلان.

- ...

- كيف أحوالك؟ بخير؟

- ...

- أنا بخير والحمد لله. هل عرفت من أين أكلمك؟

- من أين؟!

- من الديار المقدسة. أنا الآن بصدد إجراء العمرة رفقة زوجتي، وسأعود في اليوم الفلاني!

لم تنطل الحيلة على أي من الحاضرين؛ تغامزوا متضاحكين:

- ربما ذهب إلى الديار المقدسة ليحين دروسه هناك. ترقبوا أن تأتي أوراق الدروس ناصعة البياض...!

ولكن ما حصل منذ ذلك الحدث العظيم هو أنَّ صاحبنا أهمل لحيته، وواظب على تشذيبها بمنتهى الأناقة، وربما أخذ يأتي إلى المؤسسة لابسا جلبابا إعلانا على أنه أصبح يتمتع بهالة قدسية، لإخفاء رداءته، بل ولشرعنتها أيضا والإمعان فيها، إذ واصل إلقاء دروسه بالطريقة نفسها وإملاءها من الأوراق ذاتها. آنذاك، أصبح الجميع يتندَّرُ ضاحكا:

- لاشك أن دروسه أطول وأكبر من أن تقوى العمرة على تحيينها بسبب قصر مدة هذه الشعيرة. يلزم دروسه الحج! ترقبوا أن يحج في السنة المقبلة أو التي تليها، فيعود بدروسه وقد تحينت وانكتبت من تلقاء نفسها في صفحات ناصعة كالثلج أو الحليب!

«العْصير» و«التخنزير»

خرجتُ صباح اليوم إلى مقهاي بالحي الشعبي، وجلستُ في مائدة عن يمينها مائدة أخرى أحاطت بها جماعة من أنصاف البدو وأنصاف الحَضَر. ومع أنهم يرتدون قبعات وسراويل الدجين أقمصة أوروبية كان حديثهم لا يدور سوى حول الأبقار والأغنام والزرع والخضر والأعراس والمحاكم، وما إلى ذلك. انصرفت جماعة أخرى كانت جالسة في المائدة التي كانت ورائي، تقع في أقصى ركن بالمقهى، بحيث إذا جلستَ فيها صار كل الجالسين في المقهى يقعون عن يمينك وأمامك، في حين يقع الشارع عن جانبك الأيسر، وأهم من هذا وذاك أنك إذا اخترتها اجتنبتَ دخان السجائر الذي يعج به المكان. فرحتُ لأن تلك المائدة قد فرغت من جلاسها (كانوا حوالي أربعة أشخاص) الذين قاموا وغادروا المقهى، قمتُ، مسحتُ بعيني الكؤوس التي كانت فوق المائدة للتحقق مما إذا كانت هذه قد تحررت فعلا، فإذا بالأكواب كلها فارغة، قررتُ الجلوس، وضعتُ حقيبتي اليدوية في كرسي، ثم شرعتُ في نقل الكؤوس إلى «مائدتي

«القديمة» لاستبدالها ببراد شاي وكأسي، وها هو أحد من غادروا المائدة قبل قليل يعود:

- باقا «الدكيكة» ديالي هنا، قال، ثم أشار إلى كأس قهوة لم تجاوز ما بقي فيه بضع ميللترات!

قلتُ:

- تفضل!

ثم عدتُ إلى مائدتي، متوقعا أن يخلي صاحبنا المائدة بعد مرور بضع دقائق لا غير، لكن ما وقع هو أنَّ جلوسه امتد إلى نصف ساعة، أي إلى ثلاثين دقيقة بالتمام، دخن خلالها سيجارتين أو ثلاثا، وبين الفينة والأخرى، كان يصل صوت «طاق» الناتج عن وضعه الكأس بيده فوق المائدة بعد أن يرشف من الكوب جرعة. استغربتُ أن تكون بضع الميللترات التي كانت في الكأس كافية لكل تلك الرشفات والدقات على المائدة، وأنا أتساءلُ: «هل يشربُ تلك «الجغيمة» (= الشفطة) في الكأس فعلا أم أنه يتظاهر بشرب القهوة في حين يشرب الهواء؟!»

خمنتُ أن يكون ليس هو من أدى ثمن فنجان قهوته، بل أحد جلسائه قبل قليل، وأنَّه ربما كان فقيرا، وأنَّ الجلوس في المقهى يعد عنده ضربا من المعجزات، لذلك ربما استغفل جلساءه، رافقهم إلى أن تحقق

من ابتعادهم عن المقهى، ثم تسلل وعاد خفية لينعم بالجلوس لمزيد من الوقت...

راودتني فكرة أن أنادي النادلة، وأهدي لصاحبنا كأس قهوة، تراجعتُ لأني خشيتُ أن يقوم ويلوي على ياقتي، ويوسعني لوما وشتما، وهو يصرخ في وجهي:

- لماذا أهديتني قهوة؟! هل حسبتني شحاذا؟ لماذا تحتقرون الناس؟! اعلم أني قادر على تسديد ما يتناوله كل رواد هذا المقهى، من الصباح حتى المساء!»...

استفدتُ في تراجعي ذاك من حكاية مماثلة مع خضار تستحق نصا كاملا. استقبل الخضارُ عرض سخائي وإشفاقي عليه بأن زعم أنَّه يستطيعُ شراء كل ما كان في السوق (حوالي عشرين شاحنة كبيرة جدا)، فيما كان ما يبيعه لا يتجاوز صندوق بصل أو طماطم!

أخيرا، غادر صاحبنا المائدة. كانت الكأس فارغة تماما، انتظرتُ أن يتلاشى من المكان، فإذا به يقف قبالة المائدة ببضعة أمتار، ويستوقف أحدهم، ويستغرق في تجاذب أطراف حديث معه دام حوالي ربع ساعة! كان واقفا وهو يمسح المائدة بعينيه بين الفينة والأخرى، مشيرا بذلك إلى أن المائدة كانت لازالت «ملكا له» وأنه ليس من حقي ولا من حق زبون آخر الجلوس فيها. وبالفعل، لم يكن من حقي، شخصيا، أن أجلس فيها

مادامت نظرات صاحبنا كانت لا زالت مُسَمَّرة، وهو الذي كان قد منعني قبل ذلك بقليل من أن أجلس فيها؛ فهو لم ينصرف من المقهى بعد، ثم إنه لازال يملك فيها «دكيكة» قابعة في أحد كؤوس تلك المائدة....، فتركتُها مِلكية حصرية له إلى أن تأكدتُ من انصرافه تماما، وآنذاك، آنذاك فقط، جلستُ فيها، وطلبتُ براد شاي جديد...

مُرشَّح برلماني حالم

راودتني فكرة أن أترشح للانتخابات البرلمانية الأخيرة عن مديني الحالية، وهي القنيطرة، حفزني على ذلك ما سبق أن نشرته في إدراج سابق:

«نحنُ العرب أكثر الشعوب المعاصرة ديمقراطية ومُساواة بين الناس في تمثيل بعضهم بعضا، والدليل على ذلك أنَّ البرلمان عندنا لا يغلق بابه في وجه القادم من وراء قطيع أبقار أو أغنام، فيمثل الأميين والمثقفين والباعة واللصوص، وعلية القوم وأسفلهم خير تمثيل، وقد يغيبُ وزيرٌ عن مجلس وزاري فيُفتح البابُ لسائقه، كي ينوب عنه، فيوقع الاتفاقيات والمعاهدات ويسير المصالح الإدارية ويقضي كافة شؤون الوزارة على الوجه الأمثل.»

وضعتُ لحملتي الانتخابية برنامجا طويلا وعريضا، حرصتُ على أن يكون مختلفا تماما عن برامج السياسيين، وأن يحمل لمسة الأدباء والمثقفين، بشكل جلي وصريح، فأطلقتُ العنان لخيالي، هذا بعض ما ورد فيه:

1) بناء ميناء ليس أقل من ميناء طنجة بغاية تنشيط السفر البحري بين الحواضر الشاطئية المغربية، فيصير بإمكان المواطنين أن يتنقلوا بحرا بين طنجة والقنيطرة والدار البيضاء، وأكادير، وما إلى ذلك؛

2) تسوية الهضبة الفاصلة بين المهدية والقنيطرة بالأرض، فتكف عن حجز الهواء القادم من المحيط الأطلسي إلى المدينة، ويصبح جوها معتدلا كطقس مدن الرباط، والدار البيضاء، وآسفي، والعرائش، وما شابهها؛

3) توسيع وادي سبو، بحيث يصبح عرضه كيلومترا أو اثنين، ثم «تصديع» رؤوس وزراء الحكومة الذين يقال إنهم يجيدون إقناع المستثمرين الأجانب بالمجيء إلى المغرب، «تصديع» رؤوسهم بطلبات استقدام مستثمرين أجانب كبار إلى المدينة ليبنوا على شاطئ الوادي فنادق وعمارات ومقاهي وحانات وملاهي ومطاعم ومسابح وأحواض تمارَس فيها كافة الألعاب الرياضية المائية، وما إلى ذلك، على ضفتي الوادي التي ستنسكب فيها مياه المحيط (انظر النقطة التالية)؛

4) جر مياه المحيط الأطلسي إلى الداخل بمسافة لا تقل عن 25 كيلومتر، وهو طول متواضع مقارنة مع طول قنوات أخرى، كالسويس على سبيل المثال، مما سيتيح لسكان المدينة وزائريها من السواح أن يقوموا بنزهات على متن بواخر، كتلك التي تجوب نهر السين بمدينة باريس،

ليستمتعوا بجمال الضفتين اللتين تكسوهما أشجار الغابات، ويمارسوا الصيد، ويستجموا ويسبحوا، وما إلى ذلك؛

5) إحياء المآثر الرومانية في غابة المعمورة، ببناء مسارح وتماثيل وقصور، وما إلى ذلك، فتصبح مزارات للسواح المعجبين بالحضارة الرومانية؛

6) إحداث جائزة لاقتراح أفكار عبقرية، على الصعيد الوطني، يتصور المرشحون لها أنشطة تسفر عن رواج محلات هذه المولات (القيساريات) التي تنبت حاليا في المدينة كالفطر، والتي اهتدى وحوش العقار إلى الربح السريع، من خلالها، ببنائهم قيسارية أسفل كل عمارة، حيثُ يبيعون المتر الواحد منها بسعر خيالي، ما يؤمن لهم استرداد مجموع كلفة بناء العمارة بمجرد بيع المول وطابقين أو ثلاثة طوابق من البرج، فتبقى الطوابق المتبقية كلها ربحا على ربح، ثم تسلَّمُ الجائزة للفكرة / الاقتراح الذي يجب أن يؤدي ليس فقط إلى تشغيل جميع دكاكين هذه المولات، بل وكذلك إلى تحويل المدينة إلى مزار ممتلئ عن آخره، طيلة السنة، بالقادمين من سائر أرجاء العالم لكي يتسوقوا ويتبضعوا منتجات سوف تنتجها نساء المدينة وشبانها وشاباتها المعطلين والمعطلات. ويجب على صاحب الفكرة الذي سينال الجائزة الآنفة أن يقترح قائمة بأسماء هذه المنتجات التي لن

تترك عاطلا واحدا أو عاطلة في المدينة، لأن السوق ستكون من الرواج بحيث تقول دائما: هل من مزيد!؛

7) تسوية جميع الأحياء السكنية الشعبية بالأرض، ثم إحداث أبراج (عمارات) لا يقل علو الواحد منها عن 20 إلى 30 طابقا، ما سوف يتيح ربح مساحات شاسعة، لتوسيع الطرقات، وإحداث مساحات خضراء، ومرائب للسيارات، وحدائق عمومية، ومنتزهات للأطفال، وما إلى ذلك.

هذا كل ما تذكرته الآن من برنامجي الطويل.

لكن عندما أجريتُ الحسابات، استنجتُ أن هكذا برنامج سيحتاج إلى عشرات ملايير الدولارات لن تستطيع الحكومة توفيرها لأن البلد غارق في الديون الخارجية، بحيث بلغ نصيبُ ما على كل مواطن تسديده منها زهاء 30000 درهما في السنة، ومع ذلك فقد يتحمس للمشروع أقوامٌ لغاية «في نفس يعقوبهم»، وينجحوا في إقناع الحكومة بالاقتراض وإقناع العديد من البنوك الأجنبية بالإقراض. سيكون هذا رائعا بالتأكيد، لكن من يدري؟ فبعد وصول حاويات الأموال قد يقوم أحد الرقاة الشرعيين أو السَّحرة الماهرين ممن تعج بهم البلاد ويتردد عليهم علية القوم بتحويلها إلى خفافيش أو أفاعي أو حتى بخارا يتلاشى في الهواء، فتصير القنيطرة حسيمة

أخرى! انتابني خوف شديد، تراجعتُ، مزقتُ برنامجي مكتفيا بمشاهدة ما سبق في الحلم والخيال، كما خططتُ...

*

* *

لاحقا، وقفتُ في المدينة على أشياء تافهة كثيرة رسخت قناعتي بأن قرار تراجعي عن التقدم للانتخابات البرلمانية كان حكيما وصائبا، فلم أندم عليه إطلاقا. وقد خصصت لذلك إدراجات، منها:

بعضهم هنا اطلع فقط على مسودة مشروع تجديد محطة قطار القنيطرة المدينة، فلما رأى أنها ستصبح شبيهة بمحطة الدار البيضاء الميناء بالكاد، طار عقله وشهق شهقة ثم أغمي عليه، كأنَّه دخل جنة عدن وشاهد الحور العين، نخشيتُ على نفسي وكتمتُ أمري. تُرى لو علمَ أمثال هؤلاء بنيتي أن أسوي الهضبة التي تقع بين المدينة وشاطئ المهدية بالأرض، وأوسع النهر بكيلومتر أو اثنين، وأحول الوادي إلى قناة يتوغل عبرها البحر في اليابسة بمسافة 25 كلم على الأقل، وأبني على طول ضفتي النهر أبراجا شاهقة وفنادق ومطاعم وحانات ومقاهي وملاهي ومسابح، وما إلى ذلك، مما كنتُ مصمما على إنجازه بعد فوزي في تلك الانتخابات، ماذا سيفعلون؟ قد يتهمونني بالكفر والزندقة ويعتبرون عملي ضربا من السحر والشعوذة، فيصلبونني...

*

*   *

مثل الذي فقد عقله وشهق شهقة ثم أغمي عليه - في الإدراج السابق - فرحا بتجديد محطة قطار مدينته، كمثل عدد كبير من سكان الأرياف المغربية. فمع أنَّهم لم يخرجوا من العصر النيوليتي بعد، إن تسأل أحدهم عن أحوال معيشتهم يجبك: «كل شيء جيد وممتاز وعلى ما يُرامُ ولله الحمد، بل قد ازدانت الدنيا وتجملت إلى أن أصبحت عروسا. ولعل وقتنا هذا هو المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم (ثم يروي الحديث الآتي المكذوب الذي لا وجود له في أي صحيح):

> «عندما يحين يوم القيامة، ستزدان الدنيا وتتجمل وتتعطر إلى أن تصبح عروسا، فتُزفُّ في هودج إلى بعلها، وهو الموت والفناء»».

ها قد صارت الدنيا في أيامنا عروسا بالفعل؛ من كان يتصور أن تصل حنفيات الماء في يوم من الأيام إلى قريتنا، وتغنينا عن قطع مسافات طويلة على متن البهائم لإحضار الماء من العيون والآبار؟! من كان يتخيل أن تكون لنا كهرباء في يوم من الأيام؟! وأن نستغني بالجرار عن المحراث؟! وبآلة الحصاد عن المنجل؟! من كان يحلم بأن يعم كل هذا الأمن والسلم، بعد أن كنا في أيام

«السيبة» ننام في حظائرنا مع بهائمنا لنحميها من سطو اللصوص؟!...».

*

*　　*

للمرة الثانية، في أقل من 24 ساعة، أخذت سيارة أجرة صغيرة تصادف أن كان سائقاها معا مُدجَّجين بأسلاك وآليات جعلت كلاهما يبدو كأنه ربَّان طائرة؛ خيطان موصولان بالأذن، ثالث في طرفه ميكروفون لاصق في الفم، ثالث يصل الهاتف الذكي بالأجهزة الموسيقية الصغيرة المثبتة في العربة: مذياع، قارئ أقراص مدمجة، مضخم صوت، وما إلى ذلك، فيسوق السائق العربة، وهو يستمع ويتكلم في الهاتف، ويشاهد أشرطة فيديو في شاشة الهاتف الذكي، ويقلب الموجات الإذاعية، مما يعطي الانطباع للراكب بأنَّه يوجد على متن طائرة وليس سيارة أجرة صغيرة، مع أن المدينة تصغر عن جارتها الرباط ربما بأربع مرات أو خمس...

قلتُ:

امتد بنا العمر وأصبحنا نتنقل داخل مدننا بالطائرات. والله إننا لأكثر تقدما من الإمارات التي قالت الأخبار مؤخرا إنَّ أول سيارة طائرة ستحلق في سمائها قريبا بالكاد... زاغَ عقلي وارتكبتُ

خطأ جسيما عندما فكرت في الترشح للانتخابات البرلمانية الأخيرة، فكل ما خططتُ لتحقيقه للمدينة هو موجود فيها بالفعل، ربما منذ زمان وأفضل بكثير مما وضعتُ في برنامج حملتي الانتخابية، وما يحول بيني وبين رؤيته سوى تردي قدراتي البصرية بسبب تقدم السن وإدمان القراءة. عليَّ أنْ أذهب إلى جراح عيون فورا!».

سحرُ الماكياج

شاهدتُ اليوم مثالا حيا ودليلا ملموسا على فتنة الماكياج، هذا التجميل الاصطناعي الذي مدحه بودلير في أحد نصوصه ولم يتردد في اعتباره سحرا، بل ربما رأى شاعر الحداثة أنَّ هذا القناع يرفع المرأة إلى مصاف ربات الجمال!

فبعد أن أخذتُ القطار من القنيطرة، جلستُ في مقصورة تصادف أن لم تكن فيها سوى امرأة. كانت تلك المقصورة هي المكان الوحيد في العربة الذي شغرت مائدته الركنية التي أحرص في كل أسفاري على أن تكون في متناول يدي لأضع فوقها ما أصطحبه معي من كتب للقراءة. كانت المرأة في حوالي الثلاثينات من عمرها. جلست وقد وضعت أمامها حقيبة سفر يشي حجمها بأنَّ صاحبتها كانت عائدة من سفر استغرق بضعة أيام أو في سفر سيدوم بضعة أيام، لأن الحقيبة تتسع لأشياء كثيرة وكثيرة جدا...

كانت جارتي ترتدي ملابس عادية جدا: قميص بكمين طويلين حجبا الذراعين، سروال شبه «كولون» أخفى الرجلين إلى الكوعين، فولار حرص على تغطية شعر الرأس بحيث لا تبدو منه شعرة واحدة، «شالٌ» حجب العنق والصدر، وما إلى ذلك، مما جعلها تبدو كأي واحدة من هذه الزوجات اللواتي ينهكهن العمل وخدمة الزوج والعناية بالبيت ورعاية الأبناء أو واحدة من بنات ونساء الحواضر اللواتي يضطررن اضطرارا إلى حجب جمالهن اجتناب التحرش الذي استفحل نتيجة ارتفاع وتيرة الهجرة من الأرياف إلى المدن وزحف الأحياء الهامشية التي يتنشر فيها الانحراف والفقر والكبت والجريمة...

كانت «جارتي» تحمل في يدها هاتفا ذكيا، أولته طوال السفر اهتماما بالغا أوحى بأنها لو خيرت بين فقدان حقيبة السفر والهاتف لاستصغرت خسارة الأولى واستعظمت فقدان الثاني. من القنيطرة إلى الرباط، استغرقتُ في القراءة، في حين كانت المرأة تنام بضع دقائق، ثم تستيقظ، تتثاءبُ أحيانا، ثم تستغرق هنيهة في مشاهدة المناظر الطبيعية من النافذة، ثم تنام مجدَّدا، كأنها بذلك كله كانت تستعجل الوصول.

في محطة القطار الرباط المدينة صعد ركابٌ آخرون، امتلأت المقصورة بركاب جدد كلهم ذكور. وما إن ابتعد القطار عن مدينة الرباط بحوالي ربع ساعة إلى عشرين دقيقة حتى ظهر سرّ حرص المرأة على إمساك

حقيبة سفرها بيد والهاتف الذكي بيد أخرى، وانقشع جانب كبير من الضباب الذي كان قد لفها وجعلها امرأة مبهمة من القنيطرة إلى ما بعد الرباط؛ توالت الرنات قادمة من المحمدية ليتضح أن هذه المدينة كانت هي محط رحال امرأة الثلاثينات، وأنَّ الست جاءت من مدينة طنجة، وأنَّها كانت طنجاوية، وأن من هَاتفها أكثر من مرة كان رجلا يسكن في مدينة المحمدية، وأنه كان ينتظرها على أحر من الجمر، ما يفسح المجال أنّ علاقة الاثنين كانت صلة عشق وغرام تُوِّجَ أخيرا بوصال للمرة الأولى.

ثم فجأة أخرجت المرأة من حقيبتها اليدوية (لا حقيبة السفر) مرآة صغيرة. تأملت وجهها مليا في المرآة، فأخرجت شبه مقلمة، مملوءة بلوازم الماكياج، واستغرقت في تجميل وجهها، وهي تحرك المرآة ببطء واضعة إياها قبالة كل جزء من أجزاء الوجه، كأنها تفحصه بميكروسكوب إلكتروني. قادها ذلك البحث إلى الإمعان في تجميل الحاجبين؛ أتقنت تشذيبهما بحيث لم تترك فيهما ولو زغيبة واحدة سائبة. بعد ذلك، خلعت الفولار، فإذا بشعر رأسها قصير، سرحته جيدا، وعيناها مسمرتان في المرآة، ثم خلعت القميص الذي كان يغطي اليدين إلى الكفين، واكتفت بشبه قميص كان تحت القميص الأول؛ كشف القميص «الجديد» الذراعين، والقسم الأعظم من الصدر إلى حاشية النهدين، وجزءا صغيرا من البطن. بعد ذلك، استأذنتْ في الذهاب إلى بيت النظافة. لحظات، وها هي تعود بساقين

عاريتين، بعد أن خلعت الـ «كولون». قامت بذلك كله دون إيلاء أدنى اكتراث للجالسين:

وقف القطار في المحمدية، وها هي تقف وتستعد للنزول، بهيأة ساحرة جذابة خلابة لا علاقة لها إطلاقا بالمرأة التي كانت إياها منذ أن ركبت القطار في طنجة: كأنها خلعت هيئة ولبست أخرى، أو «كأنها ربة جمال نزلت للتو من أولمب الإغريق»، كان سيقول بودلير بالتأكيد لو رآها...

أما أنا، فقلتُ: يمكن أن تكون كل شيء سوى أن تكون «ربة جمال»، ثم استحضرتُ ملاحظاتي حول العلاقة بين الجنسين التي دونتُ العديد منها هنا، فإذا بالمرأة تقع فيها، فتتبخر وتتلاشى في بخار الاحتمالات كما تتلاشى الكواكب والنجوم في الثقوب السوداء[3]. من تلك التدوينات:

> يبدو أن مشكلة السواد الأعظم من المغاربة هي مسألة «لحمية» في المقام الأول. اللحم لحوم، كما هو معلوم، لكن الشغل الشاغل لسوادنا الأعظم لحمان: لحمٌ يُحرم الناسُ منه فلا يصلون إليه إلا

[3] الثقب الأسود: اصطلاحٌ يشار به إلى مناطق في الفضاء تكون فيها الجاذبيةُ من القوة والكثافة بحيث لا يفلت أي شيء يقترب منها من الوقوع فيها، بما في ذلك الضوء، وأيا كان الشيء الذي يبتلعه ثقب أسود (نجم، ضوء) فمصيره يُجهلُ، لأن قوانين الفيزياء الحالية عاجزة عن معرفة ذلك.

في العيد الأضحى، ولحمٌ يحرمون أنفسهم منه مع أنه في متناولهم على مدار العام!

***

من أسطع علامات غيَاب مفهوم الزّوج le couple في العَالم العَربي، وعدم الاعتراف به، بل ورُبّما حتّى حظره وطرده، كونُ أوَّل مَا يَقوم به الزّوجَان بَعد الاقترَان ببَعضيهما هُو إنجَاب أطفَال، كأنّ هذا الإنجاب طريقة لتحَاشي أن يُنظرَ إليهما بأنهما اجتمَعا للحب والمُتعَة الجَسَدية لا غير. كأنَّهما، من خلال هذا الإنجابِ، يُخاطبان الجميعَ قائلين: إنَّ هذا [= إنجاب الأبناء وتربيتهم] هو ما يجمعُنا وليسَ ذاكَ [= الحبّ والمتعة]! وقد يسخر الزوجان اقترانهما بالفعل لأداء هذه الوظيفة حصرا، وهيتَ للكبت والخيانة الزوجية والأمراض والعقد النفسية!

***

عموما، تبدأ العلاقة بين الجنسين في المغرب، التي تنتهي بنهاية «سعيدة» هي الزواج، تبدأ حداثية، لكنها تتجه تدريجيا نحو التقليد: يتعارف زوجا المستقبل ويرتبطان بعلاقة خارج الأعراف والتقاليد، غير معترف بها اجتماعيا وعائليا وقانونيا، يرتكبان فيها غالبا المحظورَ المعلوم من وجهات نظر ثلاث (المجتمع، والعائلة، والقانون): المباحَ من وجهة نظر الحداثة التي تعتبر تلك العلاقة أحد حقوق الفرد المشروعة. لكن، ما إن يحل موعد الاقتران

حتى تأتي فروض «الصّداق»، وتـ«جوج من الحاجة»، و«خيمة العرس» أو «قاعة الأفراح»، و«النكافة» (المزيِّنة)، و«الطبالة والغياطة»، و«العمارية»، وما إلى ذلك من الأمور الغارقة في التقليد التي تضرب الحداثة السابقة في صفر.

***

يُعادلُ ركوبُ «العمَّارية» عند معظم البنات المغربيات، وربما الزواج لدى العربيات عامة، بُلوغَ سدرة المنتهى، ولا يهم ما يقع بعد ذلك. التواطؤ هنا قائم بينهن وبين المجتمع دون أن يتساءل أحدهما عما إذا كانت جميع الإناث قد خُلقنَ لهذه «العمارية» ولهذا الزواج أصلا ولا عما إذا كانت هذه «العمارية» قد صُنعتْ لتركبها جميع الفتيات وعما إذا كان الزواج قد أنشئ لجميع الإناث... ومع أن هذه هي حال معظم من لم يركبنَ هذه «العمارية»، ويتزوجن، طوعا أو كرها، فالجميع يتحاشى طرح مثل هذه الأسئلة، لأن حب «العمارية» والتعلق بالزواج أقوى...

***

في صلة بتدوينة سابقة هنا (الدين والجنس عند العرب وجهان لعملة واحدة)، ما وراء هذا التهافت على الجنس عندهم، لا جنسَ يُمارَسُ في الحقيقة. الجنس الحقيقي عندنا لا يمارسُ عادة إلا مسروقا أو منهوبا، على حافة الخطر، بل ويقدمُ أيضا رشوة مقابل مصلحة... ويبقى على علماء الاجتماع المتخصصين في

العلاقة الحميمية إيجاد اسم للإشارة إلى ما يمارَس باسم الجنس في مجتمعنا دون أن تكون له صلة به على الإطلاق!

***

الجنسُ والدِّينُ عند العرب وجهان لعملة واحدة: إدمانُ الطقوس الدينية ولا تعبد: لا يتجلى الدينُ في الحياة اليومية، وإدمانُ ممارسة الجنس ولا إشباع: لا تصل اللذة الجنسية إلى الدماغ...!!!

***

حدثني أحد أصدقائي المتزوجين قال:

«ارتبطتُ بواحدة مطلقة، مدة من الوقت، وأدخلتني جنتها، فقطفتُ ما شئتُ من ثمارها الدانية. وبعد حين، دخلت صاحبتي في مساومات الزواج، لما يئست قالت لي:

> «إن أردت أن أستقبلك مجددا، فاحضر والدك ووالدتك، وجماعة خطاب. أيضا، يجب أن تفكر جيدا في أمر الصداق. لن يقبل والدي أقل من مليوني سنتيم. والعرس، لازم أن يكون في القاعة الفلانية، وأن تتألف الأجواق الموسيقية من الفرقة الفلانية والفلانية والعلانية، دون نسيان الفرقة العيساوية. لا تنازل عن هذه!» »

وما إلى ذلك من شروط «الخزيرات» (= الجزيرة الخضراء) التي شهرتها صاحبته في وجهه،

وحدثني آخر قال:

«ارتبطت بي مدة، وأغدقت عليَّ من نعيمها بدون حساب، ثم جاء يوم المكاشفة، فاختارت أن تكون عبر الواتساب:

- متى تتزوجني؟
- لكني متزوج يا سيدتي!
- لا يهم، أنا لا مانع عندي.
- ولكن من غير المنطقي ولا الأخلاقي أن أتزوجك وأنا أب بنين وبنات!!!، ثم إني أحب زوجتي!!

صرخت في وجهي:

- بلوكينيييي! بلوكينيييي! = احظرني! احظرني = احذفني من قائمة اتصالاتك».

حَدَّثَ ثالث، قال:

«ارتبطت بإحداهن، فأوتني شهورا، وتعلقت به إلى أن نادتني بـ «مولاي»، و«سيدي»، و«معبودي»، وما إلى ذلك مما يشيع على لسان الصوفية، ثم هاتفتها يوما، منتظرا أن تدعوني إلى بيتها كالعادة، فإذا بها تفاجئني بصوت خفيض:

- إياك، ثم إياك أن تكلمني ثانية! لا تكلمني بعد اليوم!».

سألني الصديق عن السر، فقلتُ له:

- الأمر واضح وضوح الشمس: كانت تريدك للزواج، ولما يئست زواجكَ، بحثت عن شخص آخر الراجح أنها كانت تأويه لما

هاتفتها كما أوتك من قبل، وأنها كانت تناديه بما نادتك به من قبل!

ثم استشهدتُ له بمقطع من إحدى الروايات، ورد فيه:

«دوَّخني حكيها عن مغامراتهن: من الأستاذة الجامعية التي بلغت في المغامرة مع الرجال شأنا جعلها تكون سائرة في الشارع فسيتوقفها رجل للتحية، فلا تذكره، ويضطر المسكين لصرف ربع ساعة أو نصفها في استعادة تفاصيل الأسامي وجزئياتها، ظانا أنها ستتذكر فيه ذاك الرجل الذي أدخلها النعيم ليلة ساقته إلى فراشها وأذاقها «طعم فاكهة لم تذقها مع أي رجل من قبل»، على حد تعبيرها، منتظرا أن تعانقه وتغرق وجهه بالقبلات وتدعوه مُجددا إلى الفراش، ولكنها ما تتعرف عليه حتى تتنكر له قائلة، وتجيبه ببرودة من ثلج قائلة:

- آه أنت؟! الآن تذكرتك، كيف أحوالك؟ كل شيء على ما يرام؟ إلى اللقاء. تحياتي»[4].

[4] قنديل سلامات، امرأة من سلالة الشياطين (رواية)، ص. 34-35. (متوفرة في شبكة الأنترنت).

أريد أن تحبني!!

قبل بضعة أيام كنت في مقهى، فتصادف أن جلس حول مائدة غير بعيدة مني شابٌّ وشابة، بعد أن ترجلا من دراجة نارية من النوع الكبير. هو يبدو أكبر سنا منها بحوالي عشرة أعوام، أهمل شعر رأسه إلى أن أصبح كشعر امرأة، لكنه حرص على ربطه من الخلف، يرتدي ملابس من النوع الذي يتهافت عليه شباب اليوم: سروال دجين يبدو شبه ممزق، قميص عبارة عن كرنفال من الألوان تتصدره رسومات... أما هي، فتركت رأسها قصير الشعر سافرا، كما لم تقصر في صبغ وجهها وطلائه بمساحيق، وتكحيل عينيها، وتلوين شفتيها بأحمر شفاه داكن، فضلا عن ارتداء تنورة قصيرة كشفت نصف الفخذين، وقميصا عرى جزءا من البطن والذراعين كاملين، وحذاء رياضيا... يبدو أنها قامت بذلك كله لكي تبدو فتاة «عصرية»، ولكن انعدام انسجام واضح بين ألوان الملابس ونوعها فضح أصلها البدوي، فبدت كل شيء سوى أن تكون طالبة أو موظفة...

بعد الجلوس، طلب الاثنان مشروبين، ثم استغرقا في حديث حميمي، تخلله ضحك، وتشابك أصابع اليدين، وغنج ودلال ساق البنت غير

ما مرة إلى اتخاذ كتف صاحبنا وسادا، وما إلى ذلك، مما لا يمكن أن يقع بين شاب وشابة إلا في حالتين:

أن يكونا قد انتهيا للتو من التحليق في الأجواء العليا، قاما بذلك في بيت الشاب ثم جاءا مباشرة إلى المقهى لمواصلة حديث الوسادة خارج غرفة النوم المغلقة، أو يكونا بصدد اجتياز الطقوس الممهدة للغطس والتحليق: فور مغادرتهما للمقهى سيتجهان إلى البيت لقضاء الغرض... كل شيء يوحي بأن الشاب ابن أحد أثرياء المدينة، وله كل مؤهلات التعامل مع البنات بقاعدة «خير البر عاجله»! لا وقت له كي يصرفه في مفاوضات قد تستغرق أياما أو أسابيع لاستدراج «غودو» قد يأتي وقد لا يأتي...

واصل الشابان جلستهما الحميمية، وإذا بما لا يمكن أن يخطر على بال كل من رآهما على تلك الحال يقع. قالت الفتاة:

- أنا بغيتك تبغيني! بغيت غير تبغيني (= أريد أن تحبني، فقط أن تحبني)!

أمام مراوغات الشاب، كررت الفتاة العبارة نفسها، وهي مُسَمِّرة عينيها في عينيه بالجسارة التي لا تصدر عن المرأة إلا «لحاجة في نفس مريم»..

لم أتمكن من سماع جوابه عن الطلب الملحاح. فجأة، قام، اتجه صوب دراجته النارية، امتطاها، شغل محركها، ثم انطلق بها وهي تزمجر كوحش. أما البنت، فدست وجهها وسط كفيها، ثم انخرطت في نوبة من البكاء. من حين لآخر، كانت ترفع وجهها، ثم تمسح الدمع بكفيها وتطيل النظر فيهما...

حول مائدة قريبة من مائدتها الباكية، كان شاب وشابة جالسين اتضح أنهما كانا على موعد معها بدون علم صاحبها الذي غادر المقهى قبل قليل. فجأة، التحقت بهما، تبادل الثلاثة بضع كلمات، ثم قاموا وغادروا المقهى... مشت البنت بجانبهما مشية الواثقة من نفسها، العازمة على القيام بشيء ما، لا يبدو عليها أي انكسار، بل بدت أساريرها مبتهجة كأن ما جرى لها قبل قليل لم يحدث على الإطلاق!

قلتُ: واحد من اثنين: إما نصَّابَة وقعت في يد نصَّاب أو «بوجادية» (مبتدئة، عديمة الخبرة) وقعت في يد «قافز»(شاطر،خبير) «حاضي راسو»:

طلبُ البنت في ظاهره بسيطٌ للغاية: «كل ما أريده منك هو أن تحبني»؛ «أريد فقط أن تحبني»، ولكنه يخفي ثقلا لا يستهين بصعوبته إلا مغفل أو بليد، إذ بعد هذا «الحب فردا لفرد»، سيظهر الأب، والأم، والإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والجيران والصديقات، والحي،

والمجتمع... كل بطلباته ورغباته، وأوامره ونواهيه. وقبل ذلك كله وبعده، سيتعين إيجاد شقة سكنية، والفراش، والأثاث، ولوازم المطبخ، ثم سيكون الحمل والولادة، ووجوب توفير الحليب، وملابس المولود، والحفاظات، والعربة، واللعب، والطبيب، والمحفظة والمدرسة، وعبوة الغاز، وتسديد فاتورة الماء والكهرباء، وما إلى ذلك، وسيكون من باب المعجزات أن تكتفي المرأة بمولود واحد: ستنجب ثلاثة، أو خمسة، أو حتى سبعة أبناء، كما تفعل الزوجة من هذا النوع من النساء عادة!!! عملا بالمثل الشعبي القائل «المراة بلا اولاد بحال الخيمة بلا اوتاد» (المرأة بدون أولاد كالخيمة بدون أوتاد).

البحث عن الذهب

1) معجزة الأصم الأبكم الذي تكلم

أنهيتُ للتو مباراة اليوم. خرجتُ منها منتصرا بهدفين نظيفين: أحدهما في شباك القطار، والثاني في مرمى المستشفى، ولم يكن السر في ذلك سوى أني عملت بالمثل الشعبي المغربي القائل: «الفياق بكري بالذهب مشري». استيقظتُ باكرا جدا لكي أبحث عن ذهب مثلنا الشعبي، في السادسة والنصف صباحا، وبعد مرور ساعة على رنين منبه الساعة لإيقاظي.

ضحيتُ بإحدى وصفات الطب التقليدي التي واظبتُ على تناولها يوميا على الريق منذ أزيد من شهر، مع أنَّ مفاوضاتها مع الجسد طيلة هذه المدة بدأت تعطي مؤشرات إيجابية، فيما يبدو، ثم دسست فطوري وأدويتي في حقيبتي، وناولتُ القطط فطورها باكرا على غير المعتاد، ما أثار توجسَها كثيرا، لاسيما القطان اللذان سبق أن شاهدا بأم عينيهما ما فعلتُه بقطة كانت واظبت على افتراس طيور المنزل، دونَ أن ينفع معها تنبيه ولا تحذير ولا ضرب ولا منحها مهلة عساها تثوب... لم ينفع معها ذلك كله، فما كان مني إلا أن استيقظتُ ذات صباح باكر ووضعتُها في قفص، ثم

أخرجتها من البيت، وألقيتُ بها بعيدا في ساحة قطط خلوية، فلم يرها القطان بعد ذلك أبدا... تناولت القطط فطورها، وهي تراقبُني متوجسة حتى إذا حان وقتُ الخروج، وفتحتُ الباب، سارت في كل الاتجاهات، واختفت في رمشة عين، ربما حَسِبتْ أني أضعها في القفص وأخرجها إلى حيث لا رجعة نخافت وفرت...

محطة القطار. الساعة الثامنة صباحا. أمنتُ شرَّ ركوب قطار أمس الذي يبدو أنه اعتنق مذهب التأخر عن سبق إصرار وترصد فأصبح للكثير من المسافرين في هذا التأخر مآرب؛ قال أحد المسافرين يوم أمس لصديقه، بعد أن طال الانتظار، وغصّ الرصيف بحشود المسافرين الذين ينتظرون مجيء القطار:

- هذا القطار هو الوحيد الذي يتأخر دائما بأكثر من نصف ساعة، لم يصل ولو مرة واحدة في توقيته! وربما كان عدد كبير من المسافرين يتعمدون ركوبه أصلا للسفر بدون أداء، لأن الزحام يحول دون مرور مراقب التذاكر، بين القنيطرة والرباط، على الأقل!

رجحتُ أن يكون هذا التفسير صائبا، إذ لبعض المسافرين في مراوغة الأداء تقاليد راسخة وحيل لا تخطر على البال. من ذلك ما حكاه أحدهم ذات سفر، بعد أن ضبطه مُراقبُ التذاكر، قال:

- هذه هي أول مرة أؤدي فيها ثمن السفر! وقد راوغتُ المُراقب مع ذلك، إذ زعمتُ له أني ركبتُ في القنيطرة، وأني ركبتُ القطار بالخطأ، في حين ركبتُ في الحقيقة من محطة طنجة!

ثم طفق يحكي قصصا طويلة عن فنون من الاحتيال للسفر «مجانا»، أبرزها أنه كان يشتغل وخمسون صديقا له في ورشة بناء بالدار البيضاء، فاجتهدت الجماعة إلى أن نجحت في إرشاء مُراقب باب دخول رصيف الركوب بمحطة القطار، فكان الخمسون فردا يمدون الحارس ببضعة دراهم للشخص، فيسمح لهم بولوج الرصيف القطار تذاكر السفر، ثم تفننوا في الاجتهاد إلى أن نجحوا في إرشاء مراقب القطار نفسه، فكان كلما ضبطهم، أثناء السفر، سلموه خمسة دراهم للفرد، فيمضي وفي جيبه 250 درهما فرحانا مسرورا، بدل أن يصدع رأسه باللجاج والخصام مع كل واحد منهم على حدة. لِجاج سيفضي دون شك إلى مشكلة كبيرة لأنه سيتعذر عليه، بعد كل شيء، أن يلقي القبض عليهم جميعا، ويسوقهم إلى الشرطة!

اكتظ الرصيف عن آخره بالمسافرين. معظمهم حمل هاتفا ذكيا واستغرق في التفاعل مع شاشته، تارة بالتصفح، وتارة بقراءة الرسائل، وتارة بالكتابة... لو شاهد أجنبي هذا المنظر وسألك ماذا يفعل كل هؤلاء بهواتفهم؟ وأجبته بأنَّ الحكومة المغربية قد قررت الالتحاق باليابان أو كوريا الجنوبية، وأن جميع المواطنين بصدد تعلم البرمجة أو تصميم برامج، أو

تعلم صناعة الأجهزة الرقمية، لانتابه الهلع، وقرأ صلاة الجنازة على فرنسا وإنجلترا، وربما حتى على أمريكا! في حين الحقيقة المرة هي (وأراهنُ هنا برأسي):

باستثناء بضعة أشخاص يعدون على رؤوس الأصابع، الشغل الشاغل لمعظم هؤلاء هو محادثة الجنس الآخر: الذكور يبحثون عن الإناث ويدردشون معهن ويراسلوهنَّ، والإناث يفعلن الشيء نفسه. الإناث ابتغاء ركوب «العمارية» والخيانة الزوجية وممارسة الجنس بمقابل أو لقضاء مصالح، والذكور ابتغاء المراوغة والخيانة الزوجية وإبراز العضلات الدون جوانية... لا يُستثنى من ذلك متزوجون ومتزوجات، كهولٌ وفتيانٌ وفتياتٌ: ذات سفر، جلس أحدهم بجانبي، شبه بدوي أو عامل بسيط جدا ينحدر من مدينة صغيرة، ثم استغرق في التعامل مع هاتفه استرقتُ النظر فإذا بشاشة الواتساب ممتلئة عن آخرها بأسماء نساء: أستاذة، أسماء، سهام، سكينة، عزيزة، بنت كازا، بنت تمارة، بنت طنجة، بنت وجدة، وما إلى ذلك...

وصل القطار، لكن المقاعد لم تسع كل المسافرين. قبل الصعود كان مكبر صوت المحطة قد أنشد أكثر من مرة، بصوت أنثوي رخيم، أغنية باللغتين العربية والفرنسية، مفادها:

«أيها المسافرون، لكيلا تسافروا واقفين، الرجاء ركوب القطار الذي يحمل الرقم المسجل في تذاكركم!»

حسنا، هذا جميل، ها كل المسافرين قد استجابوا للنشيد فلماذا لم يحترم القطار المسافرين ولا نفسه، فحمل ما لا طاقة له به؟!...

راودتني فكرة أن أتسوَّل مقعدا، وذلك بأن أتجه صوب مسافر أو مسافرة بدينين، ممن يبدو أنَّ مرض القلب والشرايين متربص بهم جراء الخمول وعدم المشي، وأتظاهر بالتعب الشديد، ثم أدلي بملف المستشفى الكبير المكتوب على غلافه «أمراض القلب والشرايين»، كما يُدلي العديد من المتسولين بأوراق طبية لا أحد يعرف حقيقة ما إذا كانت صحيحة أم مزورة... شجعني على الفكرة أني قلتُ: لو فعلتُ فسأكون أسديتُ جميلا كبيرا لمن يتصدق (تتصدق) علي بمقعده، لأنَّ الوقوف سيفقده (سيفقدها) مئات السعرات الحرارية وسيُنزلُ نسبة الكوليسترول الضار من بدنه (بدنها)...، لكني نجلتُ من نفسي، فتراجعتُ.

في أقصى العربة، كانت توجد شبه دعامة حديدية مخصصة لوضع أمتعة المسافرين التي لا تتسع لها المقصورات. وبما أنها كانت فارغة، فقد جلستُ فوقه وخرجتُ من الباب الواسع. لحظات، وها هي سيدة في الثلاثينات، تفعل مثلي تماما، وتجلس بجواري. لحظات أخرى وها هي

سيدة ثانية تفعل مثلنا. أيقنتُ أن التقليد متأصل في الثدييات، قططا كانت أو أرانب أو بشرا أو قردة...

في منتصف الطريق، انبجس المراقبُ، كان رجلا تدلى شعرُه الأبيض تحت القبعة الزرقاء الشبيهة بقبعات الشرطة والدرك وضباط الجيش، طلب التذكرة من جارتي، سلمته ورقة نقدية محترمة، سلمها صك السفر بسعر مضاعف، ثمَّ شكرها بأدب ولياقة كبيرين، وانصرف. أغلب الظن أنَّ جارتي أخطأت القطار، ربما تعودت ركوبَ قطار 8.30 دقيقة الذي لا يصل دائما قبل الساعة 9.00، والسفرَ مجانا، فإذا بها تؤدي ضريبة العجلة... أغلب الظن أيضا أن أَداءَها بورقة نقدية محترمة كان رسالة موجهة لمسافري المقصورة وللمراقب مَفَادُها: لست «سالتة». أملك ما من المال ما يغنيني عن القيام بهكذا مخالفة! من أقصى المقصورة، تشابك بالأيدي، وصراخ. اتضحَ أن المراقب كان مشتبكا مع أحدهم «سلتَ» هو الآخر، أي صعد إلى القطار بدون تذكرة سفر، لكنه رفض الأداء. لحظات، وها هو «السَّالت» يندفع في ممر العربة مهرولا لاهثا، وكان شخصا سمينا قوي البنية، يمسك بإحدى يديه كاش حالة مدنية... اندفع، ثم وقف في أقصى طرف العربة المعاكس للذي كان فيه قبل قليل. اتضحَ أنه كان أصم أبكم. أجهد نفسه في مخاطبة المسافرين، فما أسعفت حنجرته ولسانه سوى الأصوات التالية التي كان يرفقها بإشارات يدوية:

- أه، أه!

- ممممه، ممممه!

- ببَّه ببَّ!

اتضحت حكايته: هو أيضا «سلت». لكنه، بخلاف جارتي، نجح في مراوغة المراقب ومواصلة السفر دون أن يخرج من جيبه مليما واحدا أو يلقي المراقب القبض عليه: أنقذه كل من عاهته وعجز القابض عن التواصل معه! (فاتَ المكتب الوطني للسكك الحديدية توظيف مراقب أصم أبكم ليتواصل مع هذا النوع من المسافرين!)، بخلاف البنت الأخرى الجميلة الأنيقة التي سيباغتها المراقبُ لحظة تهيؤها لصعود القطار، من محطة سلا تابريكت، بدون تذكرة، إذ لم ينفعها الاحتجاج ولا الصراخ، ولا إشهار ثلاث بطاقات اشتراك، ولا إعادة اللازمة التالية مرارا وتكرارا على مسمع شرطي القطار:

- بطاقتي انتهت مدة صلاحيتها يوم أمس فقط، أنا أسافر منذ ثلاث سنوات، وكل موظفي محطتي الرباط والقنيطرة يعرفونني حق المعرفة!

كان المراقبُ ينصت إليها جيدا، بدم بارد جدا، ثم يعيد هو الآخر على مسمعها اللازمة التالية بمنتهى الهدوء:

- متشرفين ألالّة، أنا ما كذبتكش، طالب منك حاجة وحدة: خلصي ثمن التذكرة!

وسبب هدوئه وبرودة دمه أنه كان قد اعتقل البطاقة الوطنية لمخاطبته... عندما تحققت الفتاة بأنَّها لن تجني طائلا من وراء تعللها وصراخها، وأنَّ الشرطة ستكون في انتظارها إذا واصلت الاحتجاج، سددت ثمن التذكرة، ثم صعدت، ومرقت إلى عربة أخرى تحاشيا لنظرات المسافرين...

وصل القطار إلى الرباط، نزل الأصم، تقدمني ببضعة أمتار، في باب محطة القطار، بينما كنتُ أبحث عن سيارة أجرة صغيرة كان الأبكم نفسه قد سبقني إلى واحدة، فإذا بي أسمع بأذني وأرى بأم عيني المعجزة وهي تقع قبالتي: لقد شفي صاحبنا من صمه وبكمه في لمح البصر: خاطب سائق سيارة الأجرة بلسان فصيح طليق وصوت مسموع!!!

البحث عن الذهب

2) صوت الحساء الكوني في قلبي

التاسعة صباحا. المكان المستشفى. فرحتُ، لأني وصلتُ أخيرا قبل الموعد بكثير، لم يكن سبب تأجيل راديو القلب وقياس المجهود البدني، في الزيارتين الفارطتين، هو فقط اكتظاظ القاعة بالمرضى الزوار، بل كذلك، وربما أساسا، عدم مناسبة التوقيت لإجراء هذا النوع من الفحوصات، إذ سيُؤثر على برنامج القاعة بكامله:

- الأفضل أن تعود يوم الثلاثاء باكرا على الساعة التاسعة والنصف، إذا لم يكن لديك مانع!، قال الطبيبُ يوم الأربعاء الفارط.

دخلتُ قسم أمراض القلب والشرايين، فإذا بالقاعة مرتاحة لا تئن من كثرة الزوار، اتجهتُ صوبَ موظفة الاستقبال، كانت قد فرغت للتو من إخضاع أحدهم لفحص التخطيط، وأثناء خروجها تركت باب القاعة مفتوحا، فإذا بالمريض الذي فرغتْ من تخطيط قلبه للتو يلوحُ وهو يكمل ارتداء ملابسه: كان رجلا مسنّا، في حوالي منتصف الستينات، أتت

حقول الشيب على رأسه كاملا، انهمكَ في دس قميصه الداخلي الأبيض في السروال بحركات أبدته، وهو واقفٌ بجانب الستار الذي يحجبُ سرير إجراء تخطيط القلب، كأنَّه يتهيأ للخروج من ماخور ضاقت غرفه عن استيعاب زبائن فقسَّم القائمون عليه كل غرفة إلى عدة مقصورات، لا يفصل الواحدة عن الأخرى سوى ستار من الثوب! ألا إن أكثر الأمكنة تباينا في الظاهر لأشد تشابها في الباطن! بدت الموظفة، وهي خارجة من القاعة، كأنها تقول Au suivant تماما كما نادت عاهرات جاك بريل زبائنهن الموالين في أغنيته «في ميناء أمستردام» « Dans le port d'Amsterdam»، بل ذلك بالضبط هو ما قالته موظفة المستشفى بالذات بعد إنهاء حديثها معي، لكنها أدت نداءها بلحن ومعنى مختلفين عن ترديد جاك بريل للازمة نفسها في أغنيته الآنفة...

Blabla بيني وبين الموظفة. الطبيب غير موجود هذا الصباح. Blabla أخرى، فهمتْ الموظفة لماذا ضرب لي الطبيبُ موعدا في الصباح، مع أنه لن يحضر إلا في الزوال ليستقبل المرضى، وأدركتُ سرَّ نصيحته بالمجيء باكرا. كان موجودا في الطابق الثاني من العمارة المجاورة، يُمارِسُ التوليد بطريقة شامان قبائل الهنود الحمر الذي أفرد له ليفي ستروس فصل «الفعالية الرمزية» من كتابه «الأنثروبولوجيا البنيوية» (الجزء الأول)، مثلما

يفاوض الشامان[5] الإله المسؤول عن خروج الأجنة من أرحام أمهاتهم أحياء بعد طول المخاض وعُسره، و يفاوض الطبيب شبح الموت المتربص بالراقدين في قسم العناية المركّزة، من خلال رعايتهم التي لا تختلف في شيء عن العناية ببذرة الحياة المزروعة في أنبوب اصطناعي، بل ربما بحرص أكبر ما دام حظ خروجِ المريض من العناية المركزة حيا وحظ خروجه منها ميتا يستويان، هذا الحرصُ هو سر وصل جسد كل من يرقد هناك بعدد من الأسلاك الكهربائية الموصولة بدورها بأجهزة تعرض في شاشاتٍ أدقَّ تفاصيل ما يجري في جسد المريض، وسرّ حصر الزيارات في وقت مضبوط ووجيز يكتفي الزوار فيه بالإطلال على قريبهم أو صديقهم من نافذة زجاجية تقع في ممر يقع في الجهة الأخرى من البناية... باستثناء الطبيب والممرضات وعاملات النظافة وعامل إحضار وجبات الطعام، لا يحق لأي كان أن يدخل إلى الغرفة. ومن دخل، لضرورة قصوى، فإنه لا يفعل إلا وقد ارتدى قبعة وبذلة وحذاء من الثوب أو البلاستيك حرصا على راحة المريض ومنعا لأي عدوى! يقضي الطبيبُ حصة عمله الصباحية في تفقد المرضى، فيأمر بإجراء هذا التحليل الطبي أو ذاك على هذا المريض، إعطاء هذا الدواء أو ذاك للمريض الآخر، نقص كمية الأكسجين أو زيادتها للمريض الثالث، وما إلى ذلك. كلٌّ وما قالتْ شاشته. لا مجال

[5] الشامان: الساحر في الشعوب البدائية.

لأقل إهمال أو تقصير؛ فالموت متربص بكل من في داخل هذا الرحم الكبير. جلستُ في أحد الكراسي المصطفة قبالة باب هذا الجناح أنتظر أن يخرج الطبيب ليلتقط أنفاسه أو يمتثل لأمر إحدى الأرواح التي استغرق في مفاوضتها في الداخل...

بين الفينة والأخرى، كان يخرج عاملان يقودان عربة تحمل مريضا أو مريضة؛ هذا في غيبوبة، وتلك تفتح عينها بالكاد. بمحاذاة بعض العربات، كان يتحرك قضيبٌ حديدي عُلقتْ فيه زجاجة للتغذية عن طريق الحقن بالسوائل... هذا المريض إلى قسم الجراحة، وذاك إلى القسطرة، هذا إلى التصوير بالأشعة وتلك إلى جناح الرُّقود، بعد خروجه من دائرة الموت سليما، وما إلى ذلك. ولم تكن تلك الأجساد الممدودة المحمولة سوى دنان عُتّق فيها العجزُ والوَهنُ إلى أن فتح شهية الموت الذي يعرف وحده أيها سينتقي ويحتسي، كما كتبتُ لاحقا في أحد الإدراجات:

الموتُ ووَهنُ الجسَدِ وعجزِه سيفانِ مُسلَّطانِ على الإنسانِ
ينتهيانِ بإسقاطِه طالَ الزَّمنُ أم قصُرَ؛ منْ لم يمرَض أو يَمُتْ صَغيرا
يتهاوَى جسَدَهُ في الكبَرِ ويُمحَى كهْلا عَجوزاً!...

أما العمال الذين يدفعون العربات، فكانوا يبدون لامبالاة تامة بمن يدفعون. هذا يشير إلى ذاك بيد، والآخر يغرق في محادثة زميل أو زميلة له، بصوت خفيض يزاوج بين الابتسام الناتج ربما عن تبادل نكتٍ حتَّى...

فلفرط إدمان حمل الأجساد المتعبة المنهكة ودفعها وجرها وحملها ووضعها، انتهى بهم الأمر إلى الاعتياد على ذلك كما يعتاد بائع الخضر سياقة عربته في الأزقة والطرقات... ومع ذلك، فهدوء المكان وهندسته يفرضان هيبة وخشوعا استثنائيين تبديانه مثل معبد، إذ انكسر الزمن نفسه وتوقف. يكفي أن يرتدي كل من في المكان ملابس سومرية أو فرعونية، وأن تُستبدل العربات الحديدية بأخرى خشبية... وها نحنُ في القرون الحالية التي لم نبرحها بعد، في الواقع، كما كتبتُ في إدراج سابق:

> في الواقع، من سومَر إلى أيامنا هذه لا شيء تغيَّر، بل نحن سومريون من حيثُ أنَّا لا نفعَلُ سوى مواصلة بناء ما بدأوه، لكن بإيقاع أكبر: نكتبُ، نبني مُؤسَّسات، نشيدُ شبكَات، نضاعفُ التخصُّصات...

خرج الطبيبُ، بابتسامته وتحيته المعهودتين، حرر المطلوب. عدتُ إلى البناية الأخرى.

*

* *

في شبابيك الأداء، blalba شبه سوريالية مع الموظفة كادت أن تفضي إلى تأجيل الزيارة إلى الأسبوع القادم لولا تدخُّل العمّ الحاسوب الذي حسم التلكؤ بتسجيل إصابة النصر، وها أنا جالسٌ في البناية الأولى

بغرفة الانتظار لإجراء الراديو، لكن بجوار من؟ البنت التي قال طالعها الأسبوع المنصرم إنها ركبت سفينة الأحلام مع أحدهم، وتوغلت في البحر أكثر مما يجب، فإذا بها في قعر المحيط. ها هي نفسها جالسة في الكرسي نفسه الذي جلست فيه يوم الأربعاء السابق: جميلة، أنيقة بالملابس نفسها، (سروال دجين أزرق وقميص صوفي أسود)، والشفتين المزينتين بطلاء الشفاه الأحمر القاني، وشعر الرأس الأسود القصير، والوجه المحمر دون أن يُفصح عمَّ إذا كانت حمرته بسبب البكاء أم بمساحيق التجميل. الفرق الوحيد بين هذا الصباح وذاك هو أنها جاءت وبرفقتها بنت أخرى احتجبت بالطريقة التركية، فبدت بنحافة جسدها كعارضة أزياء متنكرة في هيئة ناسكة: سروال أزرق داكن اتسع أقصى طرفاه السّفليان إلى أن صار يبدو كتنورة طويلة فضفاضة، قميصٌ علوي قصُرَ والتصق بالجسم إلى أن صرَّحَ بممتلكات الصدر والظهر والذراعين كاملة، فولارٌ أطبق على شعر الرأس، لكنه زهد في الوجه وأذن لفنون المساحيق بالسفور..

خرجتُ إلى بهو المستشفى لاقتناء فنجان كابوتشينو من آلة الخدمة الأوتوماتيكية. ومع أنَّ العملية لم تستغرق أكثر من حوالي دقيقتين، فسرعان ما علا صوتان داخل القاعة: موظفة الاستقبال تقول:

- فلان، أين فلان؟

والطبيب يعيد:

- فلان، أين فلان؟؟

قلتُ وأنا ألج القاعة مهرولا:

- ها أنا! ها أنا!

ابتسم الطبيبُ وقال مداعبا:

- أين كنت أ السي فلان؟ منذ الصباح ونحن نناديك، فما ظهر لك أثر...

بادلته المداعبة بأخرى، صافحته بحرارة، دخلنا الغرفة، ثم توالت أوامره:

- اخلع ملابسك!
- تمدَّد فوق السرير!
- تمدد على جنبك الأيسر لا الأيمن!

ثم أمسكَ بيده اليمنى مجسا في رأسه شِبه كرة مطاطية، وطفق يضعه في أنحاء شتى من القلب ومحيطه، في حين انشغلت يده اليسرى بتشغيل أزرار جهاز موصول بحاسوب وشاشة أبديا الآلة كمقصورة قيادة طائرة أو سفينة فضائية. يضع الطبيب المجسَّ بيده في صدري، وهو يطيل الإنصات ويرى في الآن نفسه ما تعرضه شاشة الحاسوب. بين الفينة والأخرى يخرج صوتٌ قادم من بعيد، شبيه بأصوات تقليب موجات المذياع، قدَّرتُ أنَّ

الصوت كان يخرج من جسدي، وأنه لم يكن سوى بقية من بقايا غليان حساء الكون البدئي الذي نظَّرَ له العالم كاموف Gamow في منتصف القرن الثاني واكتشفه العالمان بنزياس Penzias وولسون Wilson حوالي عقدين بعد ذلك... لم أتفاجأ لذلك، إذ افترضتُ في إدراج سابق أننا بقايا كواكب ونجوم:

إذا صحَّ أننا مِن غبارَ السَّماء أتينَا، من السِّليسْيوم ومن سَديم نجمْ كبير انفجَر منذُ حوالي أربعة مَلايير ونصْف مليَار سنة جئنا، وأنَّنا نحملُ في أجسَادنا بقايا النّجوم، كان ما نقومُ به ونتكلَّمُ به كلُّه أفعالٌ وأقوالٌ صادرة عن الكواكب والنجُوم.

*

* *

خلعتُ عني بقايا الحساء الكوني، ثم صعدتُ مجدَّدا إلى بناية أجنة الأنابيب، حيث تركتُ الطبيبَ مستغرقا في مفاوضة المسؤول عن كل نطفة رقدت هناك، بغاية إقناعه بإخراجها حية. أريتُه نص تفسير الحساء الأولي، أمر بالاتجاه إلى إحدى القاعات، تبعتني ممرضتان. داخل الغرفة المغلقة، باشرت إحداهما قراءة تراتيل الطقس والقيام بحركاته التمهيدية، في حين وقفت الثانية تراقبُ المشهد صامتة كمومياء محنطة. قالت مُزاولة الطقس:

- اخلع ملابسك!

ثم انهمكت في وصل ما يُشبه أقطابا كهربائية بأنحاء شتى من صدري وبطني، مع وصل رؤوسها بأسلاك كهربائية مرتبطة هي الأخرى بحاسوب، ثم لفت حول ساعدي الطرف الأول لجهاز قياس ضغط الدم الموصول طرفه الثاني هو الآخر بالحاسوب عبر شريط كهربائي... طرحتْ بضع أسئلة، أفضت الإجابة عنها إلى تنشيط ذاكرتها وذاكرتي: هي تعرفت عليَّ وتذكرت جيدا أني كنتُ قضيتُ أسبوعين هنا بقسم العناية المركزة، في حين تذكرتُ صديقي محمودا ميري الذي نام هو الآخر في الغرفة نفسها التي رقدتُ فيها، وخرجتُ منها حيا بينما غادرها هو ميتا، مع أنَّ وعكته كانت أقل حدَّة من نوبتي. سألتُ الممرضة:

- هل تتذكرين محمودا؟

- من هو محمود؟

قصصتُ عليها حكايته، أجابت:

- للأسف، لا!

دخل الطبيبُ، سألته:

- أتتذكر محمودا؟

- محمود؟ من هو؟

حكيت له القصة، استمع بانتباه شديد، ثم عقب:

- لا للأسف الشديد!

ثم أضاف:

- رحمه الله!

أيقنتُ أنَّني لو كنت أنا الذي خرجتُ من وعكتي ميتا، وكان محمود هو الذي خرج حيا، وكان هو الذي يخضع الآن لاختبار المجهود البدني بدلا منِّي، ثم سأل الممرضة والطبيبَ:

- أتتذكر(ي) أسليم؟

- لا، من هو أسليم؟

- هو صديق لي، وصفه كذا، عمره كذا، [وما إلى ذلك]. رقد أسبوعين في قسم العناية المركزة، بجناح القلب، في الغرفة نفسها التي رقدتُ فيها، لكنه غادرها ميتا، في حين خرجتُ منها حيا!

- للأسف لا! رحمه الله!

بدأ الطقسُ فعليا، مشيءً، ثم مشيٌ، فهرولة، فجريٌ، فوق البساط الكهربائي المتحرك الذي يزيد الطبيبُ سرعة دورانه تدريجيا وهو مستغرق، في الآن نفسه في قراءة ما تعرضه الشاشة، وفي قياس ضغط الدم بين الفينة والأخرى والمرأتان في أقصى درجات اليقظة والتأهب، ربما تحسبا لأقل

حركة غير عادية قد تفضي إلى عياء فانهيار، ثم سقوط، فيكون المآل مجددا هو مناداة عربة، وهيًّا إلى الرحم الكبير، كما طار بي إليه صديقيَّ سعيد بنگراد وجعفر عاقيل يومَ داهمتني الضربة المفاجئة وأسقطتني...

*

*   *

الساعة الواحدة بعد الزوال وبضع دقائق. قلتُ:

- يستحسن أن آخذ وجبة الغداء في مطعم المستشفى لكي أربح الوقت، وأعود إلى المنزل مباشرة، وأشرع في كتابة هذا النص الذي وقع هو الآخر نطفة في ذهني، منذ أخذتُ القطار في محطة القنيطرة، وأحطتُ نموه وتطوره بكامل الرعاية والعناية داخل أنبوبه الاصطناعي في رأسي...

اكتظ المطعم عن آخره بثلاث فئات: شباب وشابات في مقتبل العمر يبدو أنهم ممرضون وممرضات طلبة، وهم الأغلبية الساحقة، زوارٌ أتوا لعيادة أقاربهم وأصدقائهم، وهم قلة، ثم حفنة من عمال المستشفى وعاملاته، وهم أقل. وفيما أنا أتناول الغذاء في مائدة بركن قصي من القاعة، ها هو محمود ميري يلوح لي، واقفا مع المصطفين. رغم أنه كان مشيحا وجهه إلى الجهة الأخرى فعيناي لم تخطئاه؛ كان هو نفسه: محمود بقبعته الرياضية الزرقاء، وشعره الأشيب القصير المتدلي تحت حواشيها، وسروال دجينه الأزرق، وقميصه الأزرق المخطط بالأبيض، وحذائه

الرياضي. راودتني فكرة أن أقوم، وأمسِكه من خلف كما كنتُ أفعل في مثل هذه المواقف قبل أن يرحل إلى الضفة الأخرى، لكني خشيتُ إزعاجه. قلتُ:

- فلأتركه بسلام داخل غيابه. إن يرغب في لقاء أحد مَّا مجددا، فسيُمسك بصوانه، ويستدير إلى القاعة ويستغرق في البحث عن مقعد. آنذاك سيشاهدني لا محالة أو أناديه، وسنتدبر أمر الحصول على مقعد، فيجلس بجواري، ونتناول وجبة الغذاء معا كما تناولناها مرارا في بعض مطاعم المدينة.

لكن العكس هو ما حدث، ما إن استلم وجبته من إحدى عاملات المطبخ حتى أخذ وجهة الباب، وانصرف دون أن يلتفت إلى الوراء. ترك الأحياء لشؤونهم، وانصرف لشأنه. خرج من باب القاعة، واختفى تماما...

*

*   *

أخذت قطار العودة من محطة الرباط أگدال. كانت المقصورة شبه فارغة. في محطة الرباط، التحقت بمقصورتي امرأتان إحداهما في منتصف الثلاثينات مرتدية ملابس عصرية جميلة وأنيقة، كاشفة شعر رأسها، طالية وجهها بفنون من مساحيق التجميل، في حين كانت مرافقتها امرأة شبه سمراء وضعت على رأسها فولارا ولفت جسدها بشبه رداء. على عكس ما

توقعتُ، جلست الأنيقة بمحاذاتي تماما، عن يميني، بينما جلست المحتجبة قبالتي. انطلق القطار، وبمدى توغله في السير اتضح أن صدفة السفر وحدها هي التي جمعت المرأتين، وأن أيا منهما لم تكن تعرف الأخرى أو ترافقها. خرج القطار من تلوث مباني المدينة، أخرجتْ جارتي مصحفا صغيرا واستغرقت في قراءته، صحتْ ذاكرتي، فإذا بالمرأتين هما البنتان اللتان كانتا صباح اليوم في قاعة الانتظار بقسم أمراض القلب والشرايين:

المرأة التي ارتدت الملابس العصرية هي البنت التي أفصحت قراءة طالعها عمَّ ألَمَّ بها، يومَ كانت شابة في الأسبوع الماضي، وصباح اليوم. والمحتجبة هي رفيقتها عارضة الأزياء التي كانت قد تنكرت صبيحة يومنا هذا وراء اللباس التقليدي...

(انتهى)

تأديب قطٍّ

القط الأصفر رابع قطط البيت في الترتيب حسب تاريخ التبني، كان تبنيه في غاية السهولة، بل لم تكن لي نية في إحضاره إلى المنزل لولا إلحاحه؛ فقد كان جالسا في رصيف مقهى عندما كنتُ عائدا ذات مساء إلى البيت، ناديتُه:

- بش بش، بش بش!

وكان قصدي مجرد أن ألمس رأسه وفروه، ثم أواصل السير. حسبتُه مِلكا للمقهى، لكن اتضح أنه كان بخلاف ذلك؛ لم يستجب فقط لندائي، بأَن جاء واستحلى اللمس وانحنى، بل تمسك بي، وأخذ يمسحُ ساقيَّ بفروه. حملتُه، فإذا به يستحلي الحمل، ويستغرق في الشخير الذي لا تقوم به القطط عادة إلا عندما تكون في غاية السعادة والاطمئنان أو قبيل النوم بجوار مربيها، خاطبته:

- هل ترغب في الذهاب معي؟

أجابني نادل المقهى الذي اتضح أنه كان يراقب المشهد على بعد خطوات:

- خذه إن شئت، فهو ليس لأحد، خذه وأحسِنْ إليه!

- لا عليك، عندي ثلاثة قطط، سيكون رابعهم، وسيسعد كثيرا برفقتهم...

- ...

في البيت، اتضح أن القط كان في غاية الذكاء، تدبَّرَ أمر اجتياز طقس «الترحيب المهين» الذي تخصصه قطط البيت عادة لكل وافد جديد، فقطعه في وقت قياسي وبمنتهى السلاسة، مثلما يكره الطفل كراهية شديدة مولود أبويه الجديد، خشية أن يأخذ مكانته، فيعبر عن كراهيته بالبكاء الشديد، وربما حتى بالسعي لإيذاء أخيه أو أخته فعلا، فلا ينقلب ذلك النفور إلى قبول وحب إلا بعد مرور وقت طويل، كذلك تكره القطط كراهية شديدة حلول أي قط أو قطة جديدين بالبيت، ما إن تقع أعينها على القادم حتى تتوجسُ منه، تبتعد عنه، ثم تستغرق في إطلاق أصوات التحذير:

- ععع، عععع!

- خخخخ، خخخخ!

وهي متأهبة للانقضاض عليه، ما يبادله الوافد الجديد عادة بالتنحي في مكان ما بالبيت، وإطلاق الأصوات نفسها، والويل كله لمن سولت له نفسه أن يدنو منه! ومع ذلك لا يتردد بعض الذكور في التحدي، لاسيما أكبرهم سنا، يحرص حرصا تاما على تبين جنس القادم الجديد، فيتجه نحوه بحذر شديد سعيا لشم رائحة مؤخرته، ويسخر كل الطرق والوسائل لحسم الأمر بأسرع وقت ممكن، والخروج من ضباب «قد يكون» و«قد تكون» إلى جلاء اليقين...

اجتاز الوافد الصغير «طقس الترحيب» في وقت قياسي، وأبدى شجاعة منقطعة النظير، إذ هزمَ كبير القطط الذي يصول ويجول في البيت... هزمه أو تظاهر الثاني بالهزيمة من باب إبداء الإعجاب بـ - والانبهار من - جرأة هذا القادم الجديد الذي، رغم صغر سنه وضعف بنيته الجسدية، لم يتردد في المغامرة بحياته، فأشفق عليه وتظاهر بالهزيمة، واتخذه منذ ذلك اليوم أعز أصدقائه في البيت، لا يلاعب سواه... اجتاز الوافدُ ذلك بسرعة، واكتسب ودَّ القاطنين الثلاثة، فأصبح رابع أربعة، يبلو بلاء حسنا في اللعب والنط والقفز، وما إلى ذلك، وصارت باقي قطط البيت تتهافت على مداعبته وملاعبته والاستمتاع بحركاته البهلوانية...

*

*   *

لكن، بعد مرور حوالي ثلاثة أشهر أو أربعة، أصبح له رأي آخر: كلما فتحتُ باب المنزل استعدادا للخروج، تدبَّر أمر التسلل لمغادرة البيت. تارة أراه فأتبعه وأعيده، وتارة لا أراه، فيصادفه هذا الجار أو ذاك، هذه الجارة أو تلك، أو ذاك فيحمله من صادفه، ويطرق بابي:

- هاكَ قطك! وجدتُه في الدرج!

- هاك قطك، وجدته في سطح العمارة!

- هاط قطك، كان في مرأب السيارات!...

قلتُ: قد يكونُ سببُ هذا التحول استيقاظَ هرمونات صاحبنا الجنسية على غرار ما يتم لدى الشاب أو الشابة الآدميين عندما يبلغان سن المراهقة، فتفطن الفتاة، على سبيل المثال، لأول مرة في حياتها إلى أن لها من الممتلكات ما يليق التصريح به، فتشرع في ارتداء الملابس القصيرة، والسراويل الضيقة، والثياب التي تظهر مفاتنها الجسدية، كما تشرع في تصفيف شعرها بمنتهى العناية، وطلاء وجهها بالماكياج وتلوين شفتيها بأحمر الشفاه، وما إلى ذلك مما يبيحه لها والداها. إذا لم يأذنا لها به، فقد تتدبر أمر القيام به بعيدا، في الخفاء، فيكون تصرفها ذاك طريقة ربما تقول بها، لا شعوريا:

- ها قد كبرتُ! ها قد نضجتُ!

وتكون رغبتها اللاشعورية هي الإفتان والإغراء... وقد يتأتى لها ذلك، وقد لا يتأتى. وفي الحالتين معا، يكون اجتياز هذا الطقس للعبور أمرا لا مفر منه، وقد يكون المرور آمنا وقد يكون خطرا. فقد يُفضي بهذه الفتاة إلى بر الأمان ويلقي بتلك إلى التهلكة. كل وحظها ومدى يقظة أبويها للوحش الذي يستيقظ من داخل تلك المخلوقات المجهرية القاطنة في أجسادنا جميعا، إناثا وذكورا، دون أن نفطن لوجودها أو نفهم لغتها أو حاجياتها عموما التي تعبر عنها من خلال تواصلها ليس فقط فيما بينها، بل وكذلك مع العالم الخارجي في غفلة منا...

احتملتُ وقوع هذا، من قبل، فوضعت رهن إشارة القطط الثلاثة أنثيين: واحدة على وشك البلوغ، وثانية لازالت صغيرة لكنها بعد حوالي ثلاثة أشهر فقط ستصبح فاكهة ناضجة جاهزة للأكل...

ولكن القطة التي أشرفت على البلوغ كان لها رأي آخر: وقعت في غرام الحارس الليلي، وهو القط الأسود، ربما لأنه القط الوحيد الذي تماهى مع مربيه إلى أنْ أصبح يستعجل الخروج من هيأته القطية إلى أخرى آدمية؛ فهو لا يتواصل فقط جيدا من خلال حركات الجسد، بل يكاد ينطق بالحروف والكلمات، وما يخونه في سلامة النطق سوى أن الحرف الوحيد الذي يركب به الكلمات يشبه الميم أو النون فيخرج غنَّة من الطابق العلوي للحلق، فتكون مكافأة سعيه للكلام طبعا هي نيل عناية كبيرة مني...

لا تأذن القطة المذللة لحكيم البيت، وهو كبير القطط، ولا لبطل النص الحالي، وهو القط الأصفر، أصغر القطط وأحدث الوافدين، لا تأذن لهما بمجرد الدنو منها، فأحرى أن تقع في فخ أغرودة استدراج أحدهما إياها. لم ينفع الحكيم تهديد ولا مطاردة ولا وعيد، رغم انتفاخ عضلاته وضخامة جثته، وقوته الخرافية، فلم يجد بدا من قبول الأمر الواقع؛ أصبح ناسكا منطويا على نفسه، يبتعد عن الجميع، ويكتفي بمراقبة ما يجري ويدور من بعيد، لكنه شرع في الآن نفسه ينتقم من الحارس الليلي شر انتقام كلما تأتت له الفرصة...

ما علينا، قلتُ، بمرور الوقت قد تنتهي الجماعة إلى تسوية ما، فيتنازل هذا لذاك، أو تشفق هذه على الآخر، أو يمل أحدهما فاكهة شريكه، فيطلب التنويع، وما إلى ذلك، كما يقول بعض كبار ذكور الإنس: «أكلُ الطبق نفسه كل يوم يؤدي إلى الملل»، أو «اللحم تخاوى» (= تآخى اللحم، أي أصبح لحم الزوج والزوجة أخوين)، وما يشبه ذلك من أقاويلهم لتبرير تنويعهم للخليلات وخيانتهم للزوجات. ولكن قطنا الأصفر كان على عجلة من أمره، فواظب على عادته الجديدة المتمثلة في رغبة الخروج، بل تمادى فيها وأمعن عن سبق إصرار وترصد.

مؤخرا، انسل من الباب، فتبعتهُ، لكي أعيده إلى البيت، ولكنه فعل الأفاعيل:

يجري بضعة أمتار، ثم يقبع، أتبعه، ولكن عندما أدنو منه يثب وينطلق مجددا، فيقطع بضعة أمتار جريا، ثم يتوقف ويقبع، أوشك أن أمسكه، يثب وينطلق مجددا، وهكذا دواليك: من طابق لآخر، من درج لآخر...، عندما أدركُه في الأسفل، وأكادُ أن أمسكه، يتملصُ مني بسرعة، وينطلق إلى الأعلى، وعندما ألحق به في الأعلى يعود إلى الأسفل...، فاجتهدتُ إلى أن أمسكتُه، وعدتُ به إلى البيت. فتحتُ الباب، منتظرا أن يقفز من يدي ويندفع إلى الداخل، لكنه ظل مشرئبا ناحية الخارج، إشارة منه إلى أنه لا يود العودة إلى البيت، قلت له:

- هل تريد الخروج؟ حسنا! هيا بنا، نحن هنا لا نلزم أحدا بالبقاء معنا، حريتك أغلى وأثمن!

*

* *

غادرتُ البيت حاملا إياه بين يدي، فإذا به فرحٌ مسرورٌ على امتداد الطريق الفاصلة بين الإقامة وفيللا مهجورة في الحي، يحيط بها سورُ تخللته دوائر إسمنتية جعلها البناؤون شبه شباك لتلك الإقامة التي اتخذتها عشرات القطط مسكنا لها، فأصبحت بمثابة مجمَّع سكني لهذا النوع من النوارس، مليء بالآباء والأمهات والأبناء وربما حتى الأحفاد والحفيدات، من كافة الأنواع والألوان والأحجام والأشكال، شجعها على ذلك أمران:

الأول الطعام الذي يوفره لها بعض سكان الحي، إذ نادرا ما تمر بجانب تلك البناية دون أن تصادف شخصا يُطعم حشد القطط القاطنة فيها؛

الثاني وجود حاويتي أزبال كبيرتين في حاشية أحد شوارع الحي يفرغ فيهما سكان العمارات المجاورة نفاياتهم المنزلية، فتمتلئان عن آخرهما في المساء، لكن شاحنة النظافة لا تأتي لإفراغهما إلا بعد منتصف الليل... ومع أن السكان يحرصون على رمي الأزبال داخل الحاويتين، فإنه ما إن ما ينزل الظلام حتى تفد أفواج «الميخالة»: هذا بدراجة نارية ثلاثية العجلات، وذاك بعربة مدفوعة باليدين، وثالث بعربة يجرها حمار أو بغل، وما إلى ذلك، فيتعاقب المنقبون الليليون على إخراج أحشاء الحاويتين وتقليبها بالمجهر لاقتناص ما يمكن العثور عليه من أشياء «نفيسة»، إلى أن يمتلئ الرصيف وقسم من طريق السيارات عن آخره بالأزبال، فتتسابق القطط إلى ركام النفايات بحثا فيه عن الطعام...

أدخلتُ القط من إحدى فتحات الشباك الإسمنتي المحيط بالإقامة المهجورة، دخلَ عن طيب خاطر، ثم جلسَ في الجانب الداخلي للسور. راقبَ المشهدَ قطان من ساحة الفيلا، جريا نحو الوافد الجديد، بدآ طقس «الاستقبال» بالبخبخة والعَعْعَة والتكشير عن الأنياب وإخراج المخالب تأهبا للوثوب. لم يأبه القط بتهديدهما ولا بوعيدهما. عرضتُ عليه أن يعود إلى البيت، رفضَ: استحلى البقاء، احترمتُ قراره. ودَّعتُهُ ثم عدتُ إلى البيت

بشعور مزدوج: حزن على ما قد يصيبه من أذى وسوء هناك؛ ارتياحٌ لأني حررته من اعتقال مُفترض، لاسيما أنَّه من الشارع جاء، ووفد إلى البيت وعمره حوالي شهرين. تحتاج القطط الكبيرة إلى وقت طويل لتتكيف مع متبنيها الجدد ومساكنها الجديدة، بخلاف القطط التي تولد في المنزل أو تتبنى وعمرها لا يتجاوز بضعة أيام، إذ تفتح عينيها في البيت وتعتاد عليه إلى أن يصبح الخروج إلى الشارع يثير فيها فزعا ورعبا حقيقيين...

في اليوم الموالي، أثناء عودتي من التسوق مساء، اتجهتُ إلى الإقامة المهجورة لتفقد أحوال القط الأصفر. ناديته من شباك السور، فإذا به يُجيبُ ليس من داخل البيت الخرب، بل من الجانب الآخر من الشارع. أجاب، وهو جالس في باب العمارة المقابلة للخربة، يستغيثُ:

- مياو! مياو! مياو!

اتجهتُ نحوهُ، تمسَّك بي بالطريقة نفسها التي قام بها يومَ صادفته في الشارع قبالة مقهى، بل وبإلحاح أكبر. حملتهُ، فرحَ وهو ربما لا يصدق أني أحمله، عدتُ به إلى البيت، لم يُمانع ولا استدار إلى الخلف على امتداد المسافة الفاصلة بين الإقامة المهجورة ومنزلي.... بعد الدخول مباشرة، أخذ يتفقد أمكنته القديمة، وأولها مكان الطعام. أكل، عاد إلى وسط المنزل، التفت حوله القطط وهي تفحصه بأعينها فحصا مجهريا، وتحرك رؤوسها، كأنها تسأله:

- أين غبت منذ ليلة أمس يا صديقنا؟

- حدثنا عما جرى لك.

- أين كنت؟

- ماذا حلَّ بك؟

- لماذا غادرت البيت؟

- لماذا عدت؟...

ومن خلال مداعباته وإشاراته، بدا أنه كان يجيبها بالفعل عن أسئلتها على نحو ما. من يدري؟ فلبعض الحيوانات طرقها في تبادل المعلومات، من ذلك أنَّ الفأر الذي يقع في فخ طعام مسموم، يُخبرُ باقي الفئران بما جرى له، فلا يتناولون السمَّ بعده أبدا ولو اعترض سبيلهم شهورا، فلا ينفع أهل البيت السعي لإبادة الفئران بهذه الوسيلة...

منذ ذلك اليوم، كف القط الأصفر عن التسلل إلى خارج البيت، بل صرتُ، لحظة خروجي منه، أترك الباب مشرعا، ثم أحضرُه، وأدعوه إلى الخروج قائلا:

- هيا يا صديقي تفضل!

فتكون استجابته دائما هي أنه يتراجعُ، ويجري بأقصى سرعته ليختفي في مكان ما في البيت، بعيدا جدا عن الباب! كأنه يقول:

- لا لا، لن أعيدها أبدا!

قط نصاب

قبل بضعة أيام، كنت أمشي ليلا بجانب الوادي عندما استوقفني قطٌّ صغير يموء. دنوتُ منه، أخذ يتمَسَّحُ بي، وهو يرفع ذيله إلى السماء كلاقط هوائي (أنتين)، طالبا مني حمله، استجبتُ له، شكرني بالتمرغ السخي على الأرض والالتواء بجسده يمينا ويسارا، لاسيما عندما استغرقتُ في لمس فروه بيدي. يقال إن القطط لا تقوم بمثل هذا التصرف مع شخص ما لم تمطئن إليه وتسعد بوجودها معه. خاطبني بائع حلوى وسجائر بالتقسيط، كان يراقب المشهد على بعد بضعة أمتار، بعد أن لاحظ أنني حملتُ القطيط وعزمتُ على أخذه معي:

- كم واحدٍ يأخذه معه، لكن ما إن يمر يومان أو ثلاثة حتى يعود!

- لا، في هذه المرة لن يعود. انظر، إنه متمسك بي، ربما لأنه شمَّ في يدي رائحة جبن وقطط. للقطط حاسة شم قوية جدا. عندي ثلاثة قطط في المنزل، لا شك أنه سيكون في غاية السعادة برفقتها...

ثم انصرفتُ وأنا أحمل القطيط بين يديّ دون الاهتمام بتعقيب بائع السجائر على قولي، كأنني بتجاهلي ذاك قد تباهيتُ عليه بمعرفتي بالقطط أو ازدريته لأنه تكلم فيما لا يعلم.

على امتداد المسافة الفاصلة بين الوادي والمنزل (حوالي 45 دقيقة مشيا)، ظل القطيط مستلقيا بين ذراعيَّ، وهو يشخر، ما يفيد أنه كان في غاية السعادة...

في المنزل، أكل بنهمٍ، لكنه بمجرد ما شبع غير سلوكه رأسا على عقب، بدل ملاعبة القطط أو مداعبتها، انزوى جانبا. قلتُ: ما علينا، هذه حال كل قط يدخل إلى البيت لأول مرة: يكشر عن أنيابه كلما اقترب منه أحد قطط المنزل، ويخرج مخالبه، يبادل التهديد بالتهديد والوعيد بالوعيد، وما إلى ذلك، ويستمر على هذه الحال بضعة أيام، بعدها تنقلب «العداوة» إلى صداقة. قد يكون هذا مما يدخل في باب طقوس القطط التي لا نعرفها نحن معشر البشر.

ولكن قطنا الجديد كان بخلاف ذلك، رغم أني لم أقصر في أداء طقس الترحيب به بغاية تبنيه: غسل، رش بمبيد حشرات القطط والكلاب، إرشاده إلى مكان الصرف الصحي، وما إلى ذلك، إذ لازم التقلب في سلوكه بين التودد والتلطف والاستعطاف عندما يجوع، لكنه بمجرد ما يأكل ويشبع ينقلب ليس على قطط البيت فحسب، بل وكذلك

علي يُخرج مخالبه، ويكشر عن أنيابه، ويتأهب لمهاجمة كل من دنا منه، كائنا ما كان. في اليوم السادس، لم يكن هناك بد من طرده من المنزل، بإعادته إلى الشارع.

*

*   *

وضعته في قفص، أقفلت عليه، فإذا به يستلقي على ظهره داخل الصندوق، ويبدي فرحة كبرى. كأنه عرف أن ساعة رحيله من البيت قد حانت فتنفس الصعداء. غادرتُ المنزل دون أن تكون لدي فكرة عن الوجهة التي سآخذه إليها، لاسيما أن الساعة كانت منتصف الليل. خارج البيت استقر رأيي على وضعه في خلاء غير بعيد عن المنزل، تقطنه أعداد كبيرة من القطط.

على امتداد الطريق، كان صاحبنا هادئا، لم يصدر منه أقل ما يفيد أنه كان غير راض على سجنه داخل القفص، ولا صدرت منه أية محاولة للخروج من القفص؛ كان يشرئب بعنقه، من داخل شباك القفص، إلى جهة الغرب (ضفة الوادي التي أخذته منها)، في حين كانت وجهة مشيي هي الشمال.

في خلاء إقامة القطط، بمجرد ما فتحتُ باب القفص وثَبَ صاحبنا إلى الخارج دون إبداء أي علامة خوف أو انزعاج. أكثر من ذلك، انقض

على أول بقايا أكل وقعت بين يديه من ركام الأكياس والنفايات الملقاة في الساحة. انسحبتُ وأنا أراقبه من بعيد. بمجرد ما أنهى الأكل غادر الساحة، واتجه جريا ناحية الجنوب...

*

*　　*

بعد يومين، شاهدتُ القطيط جالسا في المكان الذي أخذته منه، متربصا دون شك بشخص آخر، لكي يحمله، ويأخذه معه إلى البيت ويطعمه، ثم ينقلب عليه إلى ألا يجد بدا من أن يعيده إلى المكان الذي حمله منه أو يطرده من البيت، فيتكفل هو نفسه بالعودة إلى «بيته» في الشارع، إلى جانب الوادي، بجانب بائع الحلوى والسجائر بالتقسيط...

عندما رأيتُ القطيط جالسا هناك قبل بضعة أيام، آنذاك، وآنذاك فقط فهمتُ معنى ما قاله لي بائع الحلوى والسجائر قبل بضعة أيام:

- كم واحدٍ يأخذه، لكن ما إن يمر يومان أو ثلاثة حتى يعود!

طائرة باذجي شاطرة!

منذ بضعة أسابيع وأنا أظنُّ أنه لم يبق لي من طيور الباذجي (أو طيور الحبّ) سوى خمسة، بعد أن أهديتُ لأصدقاء لي مجموعة منها. أحسبها، ثم أعيد الحساب، فإذا هي دائما خمسة طيور لا غير. في أحد الأيام، من داخل أحد خمَمَة القفص، علت «أصوات» طائر أو أكثر فقس للتو. إلى هنا لا مشكلة، قد تكون إحدى إناث الطيور الخمسة قد فقست. حسنا، لكن الأمر سيصبح مشكلة حقيقية بعد ملاحظة أنَّ أيا من الأنثيين لا تدخل الخم أبدا لإطعام صغارها. افترضتُ أنَّ الأم تجتنبُ دخول الخمَّ في حضوري، لكيلا أخرجَها هي والخمَّ وصغارها ووالدهم، ثم أضعهم في قفص آخر، كما فعلتُ مع سائر طيور القفص التي أنجبت من قبل، وأنها تطعم صغارها خفية، في رمشة عين، ثم تغادر الخمَّ إلى القفص. فرضية أصبحت يقينا، بدوام الملاحظة.

لكن المفاجأة أنَّه قبل قليل، بينما كنتُ بصدد تحضير شاي في المطبخ، شاهدتُ طائرا بألوان ريش مختلفة عن ألوان الطيور الخمسة التي حفظتُها عن ظهر قلب. كان الطائر بصدد التهام الطعام. تسللتُ، دنوتُ

من القفص، فإذا به سادس ما ظننتُ أنهم كانوا خمسة طيور لا غير. ما إن اقتربتُ من القفص حتى تخلى الطائر «الجديد» عن تناول الطعام بسرعة البرق ثم لاذ بالخم الذي كانت تخرج منه «زقزقة» الفراخ حديثي الولادة! آنذاك أدركتُ أنَّ الأم الفعلية للطيور الصغيرة الموجودة داخل أحد الخمم ليست هي إحدى الأنثيين اللتين تديمان التواجد في القفص، ثم تطعم صغارها خلسة وتخرج، كما توهمتُ من قبل، بل الأم الحقيقية هي أنثى باذجي نجحت في التواري عن نظري منذ باضت إلى أن فرخت، واستغرقت في رعاية صغارها وإطعامهم بعيدا عن بصري... إلى أن حسبتُ أنَّ ما تبقى هو خمسة طيور لا غير، في حين كان ما بقي فعلا هو ستة!!

العجيب في الحكاية أنَّ هذه الأنثى قد لاحظت مصير الإناث اللواتي سبقنها إلى الإنجاب، وهو النقل إلى قفص آخر، فاستخدمت دهاءها وذكاءها لاجتناب المصير نفسه، فنجحت في تفاديه فعلا! أتخيل:

لو عرفتْ أنه رغم افتضاح أمرها، فإني لا أستطيع بتاتا نقلها وصغارها إلى قفص آخر ما دُمتُ لم أعرف زوجها بعدُ، لربما حثت زوجها على البقاء متخفيا، ولخرجت من سجنها (= خمها الحالي)، فلا تدخله إلا لإطعام صغارها، حتى إذا فعلتْ غادرته، وكلما دنوتُ من القفص ساعيا لمعرفة زوجها خاطبتْه قائلة:

- ابق متنكرا لكيلا يتعرف عليك مُربِّينا، فلا ينقلنا إلى قفص آخر ولو أطبقت السماء على الأرض!

ثم خاطبتني مزقزقة:

- ها قد أنجبتُ. إننا، أنا وزوجي وأبنائي، في هذا القفص لقاعدون، أحببت أم كرهتَ، فمت بغيظك!...

لعنة الحمام

لا أستطيعُ تقدير عدد اللعنات التي نزلت عليَّ مساء أمس ويومَه، وربما ستتواصلُ إلى حين إنهاء تجديد مكتبتي، من خلال استبدال الهياكل والرفوف الحديديين بأخرى خشبية. لعنات تنزلُ من بضعة أزواج حمام منزلية أربيها. فبمجرد ما رأت رفوف الأجزاء التي أخرجتُها لوضع اللمسات الأخيرة عليها، أخذت تحوم حولها، ثم شرعت، في انتقاء، وبعناية شديدة، ما حسبَتْهُ خمما جديدة أحضرتها لها.

يختار أحد الذكور رفا في أحد طوابق الهيكل الخشبي، ثم تلحق به أنثاه، وتأمره بالانتقال إلى رف آخر في طابق آخر، أو العكس؛ تنتقي أنثى «بيتا» ثم تدعو ذكرها إليه. يتبادلان العروض والزيارات تماما كما يتنقل أزواج البشر بين شقق العمارة الجديدة لاختيار المسكن المناسب لهما، فيقول الزوجُ لزوجته:

- هذه الشقة أفضل من تلك، لأنها مشمسة.
- نعم، ولكن أين غرفة الأطفال؟
- ها هي!

- لكنها صغيرة جدا، لا تتسع لأكثر من طفل واحد!

- ممه!

- تعال نعود إلى شقة الطابق الثاني.

- أوكي، هيا بنا...

أجرّ الهيكل الخشبي لطلائه فينزعج قاطنوه، يغادرون «بيوتهم» مفزوعين، وينتقلون إلى خزانة خشبية أخرى لانتقاء بيوت جديدة، والاستقرار فيها، وهكذا دواليك. ولما تكررت العملية مرات عديدة، كفت الأزواج عن زيارة «شققها الجديدة»، واكتفت الجماعة بتأمل ما يجري من مسافة غير بعيدة عني، مع الاقتراب من حين لآخر لتفقد سير الأشغال ومعرفة إلى أين وصلتْ.

عندما ستختفي الرفوف من شرفة البيت، ويطول انتظار ظهورها مجددا دون أن تنفع أغنية «طال انتظارك» التي سيترنم بها مرارا مغني الجماعة أو مغنيتها إلى أن ييأسا فيكفان عن الغناء... آنذاك، قد تنهال اللعنات علي مجددا، وقد يؤاخذ هذا الذكر أنثاه لكونها هي التي أوقعته في خديعة السكن الجديد، كما قد تؤاخذ هذه الأنثى أو تلك ذكرها لثقته العمياء في هذا المربي الذي لا يؤمَنُ جانبُه. وقد يتداول الجمعُ في المسألة، وقد فيستخلصُ - ضمن ما يستخلص - مثلا يلقنه كل زوج حمام لأبنائه وأصدقائه في السماء، أثناء التحليق، وفي سطوح الأبراج لدى الاجتماع هناك

للتعارف وتبادل الأخبار والنميمة في مربي الحمام وقص نوادرهم وأطوارهم الغريبة، وما إلى ذلك:

- لا تثق في إنسيّ ولو كان مربيك الذي يأويكَ ويُطعمُك! كلهم من طينة واحدة!

وهو ما تبادلناه ونتبادله هذه الأيام حول معظم زعماء أحزابنا السياسية قائلين:

- لا ثقة في زعيم حزب ولو غلظ الأيمان بأنه سيحقق سائر وعوده الانتخابية، فكلهم من طينة واحدة!

الديك الحبشي

1) القطط نمور صغيرة والنمور قطط كبيرة

أفقتُ مرارا ليلة أمس، وفي كل مرة كنتُ لا أفطن إلا وأنا أحرك قدمي أو ساقي جراء الألم الذي كان يوقعه بي أحد قططي، هو القطيط الرابع تحديدا الذي تبينتُه منذ بضعة أسابيع. ربما كان يحاول نهش لحمي. ليس جوعا، فصحون أكل القطط ممتلئة عن آخرها بالطعام، بل رغبة في أكلي. قد يبدو هذا غريبا، ولكن كل من يربي قططا، ينتهي به المطاف إلى معرفة أنها كالبشر تملُّ أكل نوع واحد من الطعام أو نوعين يوميا، فتشتهي طعاما جديدا؛ تتوقعُ أن يأتيها مربيها بطعام جديد في كل عودة له إلى البيت، لذلك ما إن يفتح الباب حتى تهرول إليه رافعة أنفها مثل رادار لتشمَّ رائحة الطعام المنتظر، ثم تدسه في قفة مربيها أو حقيبته بمجرد ما يضعها، وقد تفتشها تفتيشا، وعندما لا تجد فيها ما تنتظره، تستغرق في خدش القفة بمخالبها، والعبث بها، بل تمضي أحيانا إلى حد تطويحها في الهواء احتجاجا عليها أو على مولاها أو عليهما معا... وهي لا تقوم بمثل هذا السلوك إلا عندما تشعر بأنَّ البيتَ أصبحَ بيتها هي وليس بيت مربيها.

عندما تطأ قدما القطيط (أو القطيطة) الجديد البيتَ لأول مرة، فهو يلتهمُ كل الطعام الذي يقدمُ له، بخلاف القطط القديمة. بل قد يشدد الحراسة على أكله، فيستغرق في تناوله وهو «مزمجر» ومتأهب لصد كل قط أو قطة تسول لهما نفسهما الدنو منه مع أنهما يقومان بذلك لمجرد السخرية منه أو حتى لتعييره بأنه جائع، حسب ما يبدو... لكن بمضي الوقت، يلتحق قادم أمس بركب «قدماء المحاربين»، فتتفتح شهواته هو الآخر على أطعمة أخرى، وتتعدد رغباته ونزواته...

والقطط في ذلك مثل الطيور، إذ ينتهي طول المقام في البيت بالعصافير هي الأخرى إلى أن تعتبر نفسها هي مالكته، فتشرع في الاحتجاج على مربيها إذا أوقد المصباحَ، على سبيل المثال، وهي نائمة، إذ تصرخ بأعلى صوتها في البيت كأنها تقول:

- دعنا ننام! اتركنا ننام!
- اطفئ الضوء! اغرب عنا!
- تبا لك! أما تحترم النائمين؟!

لا تكف عن الاحتجاج إلا بعد إطفاء الإنارة! سلوكٌ لا تقوم به أبدا في الأيام الأولى، ولا في الأسابيع الأولى من إحضارها إلى البيت. في المقابل، تلوذ بالصمت، في الأيام الأولى، فلا تصدر تغريدة ولا زقزقة، لا تتشاجر فيما بينها، لا تتحاور، ولا هم يحزنون؛ تكتفي باستطلاع المكان

ومراقبة مربيها الجديد. تراقبه بحذر وتوجس كبيرين. لكن ما إن يمضي وقت حتى تشعر بالأمان، وتصبح قادرة على معرفة ما إذا كان مربيها قد فتح القفص لتنظيفه وإحضار الطعام والشراب أو لشيء آخر، فينقلب صمتها إلى ضوضاء، وتأخذ في صرف أوقات طويلة من اليوم في الزقزقة والشجار والتحاور فيما بينها، حتى ولو كان عددها ثلاثة طيور أو أربعة لا غير...

بعد طول معاشرة القطط، خامرني الشعور التالي، وهو أنَّ الحبَّ الذي تبديه هذه النوارس لمربيها قد لا تكون له أي صلة بمشاعر التعلق عندنا نحن معشر البشر. قد يكون رغبة في أكله. فالقطط قبل كل شيء وبعده هي نمور صغيرة مثلما النمور قطط صغيرة. وكما تفترسُ نمور الغابة البشر، فالقطط هي الأخرى يمكن تأكل البشر، بدليل افتراسها لمربيها إذا كان يعيش وحيدا ومات، ومرت على وفاته أيام أو أسابيع دون أن يُفطن إليه. آنذاك، لا تتردد في أكل مربيها، من شدة الجوع، فلا يُعثر من جثمانه سوى على ما تعذر عليها أكله... ربما لا يمنع القطط من أكل مربيها سوى خوفها منه لأنه أقوى منها، وتعلقها به لأنه هو من يطعمها ويأويها. إذا صح هذا، فهي تحمل إزاءه شعورا مزدوجا شبيها بذلك الذي يحمله الطفل تجاه والده خلال اجتيازه «عقدة أوديب»: يكره أباه، ويتمنى اختفاءه من البيت

ليتأتى له أن يستأثر بأمه، لكنه يتعلق في الآن نفسه بوالده جراء ما يغمره به من رعاية وحب وحنان...

الديك الحبشي

2) في السوق النيوليتي

لا أعرف لماذا بمجرد ما أفقتُ في الصباح قررتُ الذهاب إلى أحد الأسواق «النيوليتية» التي تقام مرة في كل أسبوع في ضاحية المدينة، مع أني لم أخطط لذلك يوم أمس ولا مساءه.

عندما نود الذهاب إلى مكان ما، تحضرنا عادة صورة أو عدَّة صور منه، وما حضرني من السوق الآنف تحديدا هو جثث ديكة حبشية، كان حجمها كبيرا، وكانت بأعداد كبيرة مدلاة هنا وهناك عند بائعيها، في شبه أقبية. كان منظرها ولونها الأبيض يجذبان البصر من بعيد، لاسيما إذا لم يسبق لرائيها أن اقتنى لحم هذا النوع من الديكة إلا بكميات قليلة جدا من أسواق المدينة، كما في حالتي.

اختزلتْ ذاكرتي السوق في هذا المشهد بالذات، دونَ أن أعرف أنني سوف أقتني أحد تلك الديكة يومه، بل ودونَ أن أعرف أنَّ السبب اللاشعوري لهذا الاقتناء قد يكون هو اتقاء المشهد التالي:

> توفيتُ، ومضت عدة أيام على موتي دونَ أن يفطن إلى ذلك أحدٌ، فلم تجد قططي بدا من أكلي من شدة الجوع! ها أنا ملقى والقطط مستغرقة في نهش جثتي، وفصل لحمي عن عظمي، وأكلي بنهم شديد!

نعم، تحضرني هذه الصورة بين الفينة والأخرى، لكني أطردها في لمح البصر بشعور مزدوج: فمن جهة، تثير فيَّ الإحساس بالاشمئزاز والقشعريرة لبشاعتها، ولكنها من جهة أخرى، تشعرني بالارتياح والطمأنينة مقارنة بصورة أخرى أفظع وأبشع:

> أموت، وتوارى جثتي تحت التراب، وينصرف مشيعو الجنازة، فتعود إلي الحياة ثانية، فأموت شر ميتة، مختنقا في حفرة ضيقة لا تتسع لكي أتقلب يمينا أو يسارا، ولا لكي أجلس...

أن تأكل القطط جثتي بعد وفاتي، فهذا أكثر رأفة ورحمة بكثير من أن أحيا في قبري بعد موتي دون أن يُفطنُ إليَّ. أقول هذا، ثمَّ أنوه بحكمة الثقافات التي اختارتْ سبلا أخرى للتخلص من جثث موتاها، غير الدفن، كإحراق الجثمان أو فصل لحمه عن عظمه وإلقائه للنسور والغربان، وأدينُ ثقافتي التي لا تحرم المرء فقط من حرية اختيار موعد موته وطريقته لتفادي عذاب مرض عضال أو كهولة لا تُطاق، بل تحرمه أيضا من حرية اختيار طريقة التخلص من جثته بعد وفاته...

*

* *

لاح السوق من بعيد. خلافا للمرة السابقة، لفه غبارٌ كثيف من كثرة المرتادين، بدا كأنه ساحة وقعة الجمل أو داحس والغبراء. بل يكفي استبدال عشرات الشاحنات المركونة في إحدى ساحات مداخل السوق بالجمال والخيل، واستبدال سيارات الأجرة الكبيرة والدراجات النارية ثلاثية العجلات بالجمال والخيل والحمير والبغال، فينتابُ المرءُ انطباع أنه يقف فعلا أمام إحدى أمهات المعارك القديمة التي تحكي عنها كتب التاريخ وقصائد الشعر القديم...

على غير العادة أيضا، أنزلنا صاحب سيارة الأجرة الكبيرة بجانب سوق الماشية. المكان مكتظ عن آخره بالأكباش. العيد الأضحى على الأبواب. وحيثُ لا يمكن الوصول إلى السوق بدون اجتياز هذه القطعان، فقد تدبرتُ أمر إيجاد ممر وسطها. أصوات الباعة تحاصرني من كل اتجاه:

- تعال يا حاج، عندي أكباش مليحة!

- أكباشي أفضل ما في السوق، سأبيعك خروفا بثمن مناسب جدا والله!

وبالفعل كانت جميع الأكباش مليحة ليسَ من حيث جودة لحومها وتربيتها، فهذا مما لا أفقه فيه شيئا ولا أتمنى أن أصبح من فقهائه في يوم

من الأيام. التجارة تقتل الفن والإبداع، وربما كانت لعنتها بالذات هي سبب إفلاس الشاعر رامبو، وإشاحة ربات الشعر وجوهها عنه، وغرقه في الصمت الأبدي: سافر إلى الصومال ابتغاء ربح المال، فإذا به ينقلب من شاعر إلى تاجر سلاح...

كانت جميع الخرفان مليحة بتجانسها، أمامَ هذا البائع قطيع خرفان متوسطة الحجم، كل خروف نسخة طبق الأصل من قرينه، كأنها خرجت من المختبر الذي أنجب النعجة دولي، وأمام ذاك أكباشٌ صغيرة الحجم، وأمام الثالث أكباشٌ كبيرة، فكان ذلك التجانس طوق نجاة شبه معجزة للتخلص من كثرة العروض التي كانت محور حديث الركاب منذ صعدنا سيارة الأجرة الكبيرة إلى أن وصلنا السوق... هممتُ بسؤال كل من عرض عليَّ بيعي خروفا: «وماذا تطعمه؟»، عملا بنصيحة رواد المطعم الذي جرت فيه حكاية «الكبش الذي يفطر بالأفوكادو، ويتغذى بالبسطيلة ويتعشى بالكالامار»، التي دونتها في إدراج سابق كالتالي:

عن الخروف الذي يفطر بالأفوكادو ويتغذى بالبسطيلة ويتعشى بالكالامار

نزلتُ لتناول وجبة الغذاء في حي شعبي، وبينما أنا مستغرق في الأكل دخل أحد الزبائن، وقال بصوت مرتفع ليسمعه كل من كان في المطعم من رواده المعتادين:

- باع فلانٌ كبشين بـ 9000 درهما، وآخرين بـ 7000 درهما!

علت جلبة:

- اوه خروف واحد بـ 4500 درهما!

- اوه 3500 درهما للخروف؟!

- غير معقول!

فراحَ حديث في المطعم موضوعه الرئيسي الصفقة المذكورة، بين مصدِّق لها ومكذِّب... الجميل أن النقاش انتهى بإجماع كل المشاركين على أن الثمن معقولٌ جدا، وربما كان دون السعر الحقيقي لتلك الخراف، لأنَّه يبدو أن صاحبها يناولها في الفطور عصير الأفوكادو، وفواكه جافة، و«بريوات محشوة بلحم فراخ الحمَام»، وفي الغذاء بسطيلة محضرة بالملج (وهو أغلى قطعة لحم تباع في العجل)، وفي العشاء طبق كمبري وكالامار وميرلان، وما إلى ذلك...، ثم تناصحَ المجتمعون فيما بينهم:

- لا تشتر كبش العيد إلا وأنت تسأل بائعه: «ماذا تُطعمُه؟!».

غادرتُ المطعم وأنا أقول في نفسي ساخرا: «ما تكون تلك الخرفان الأربعة إلا من صنيع أستاذ النص السردي الذي تحول إلى خروف «صردي»»، في إشارة إلى إدراجي السابق:

حكى أستاذٌ أنَّه كان مُسْتغرقا في الحديث مع
زميل له، وصَادفَ نطقُه لكَلمة «النّص السَّردي»
مرور أستاذٍ زميلٍ للاثنين فِي الكلية، فالتقطَت

أذن المارّ كلمَة «السّردي» دونَ «النصّ» أو لمْ يسْمَع سِواها، وكانَ عيدِ الأضْحَى على الأبواب. وبعدَ أن التقَى مُلتقطُ الكلمَة من كانَ يَتجاذبُ أطراف الحَديث مع اختصَاصِي السيميائيات والسَّرْديات، سألَهُ:

- سمعتُ فلانا يتحدثُ عن «الصَّردي»، فهل يُعلّفُ خرفان «الصّردي»؟ أنا مَعنيٌّ بشِراء خَروفٍ «صردي» منه للأضْحية.

الواقعة حقيقية، وكلامُ الأستاذِ المُسْتفسِر كَان جدّا، ولم يكُن هَزْلا!!

*

* *

خشيتُ ألا يعرف هؤلاء الباعة ما الأفوكادو، والبسطيلة والكالامار، فأقع في ورطة، اهتديتُ إلى مخرج آخر: لأصحاب الأكباش الصغيرة زعمتُ أني أريد كبشا أكبر من حصان، ولأصحاب الخرفان الكبيرة زعمتُ أني أريد حملا أصغر من هر!، فتخلصتُ من ساحة الأغنام بسرعة لأجدني داخل السوق المحاط بالأسوار.

جديد هذه المرة أيضا غيابُ «الأطباء» بائعي الأدوية التي تشفي من كل الأمراض، حسب زعم باعتها الذين يؤكدون أنهم ورثوا أسرار

وصفات تحضيرها أبا عن جد. غاب أيضا باعة مبيدات الحشرات والزواحف والقوارض بسائر أنواعها: البعوض، والذباب، والناموس، والقمل، والنمل، والأفاعي، والعقارب، والفئران، وما إلى ذلك، كما غاب بائع الزيتون وزيته، الذي يشترط على الزبائن، من باب التدليل على جودة بضاعته، أن يأكلوا قبل أن يشتروا ليكونوا على بينة مما يشترون.. باختصار، ينعم السوق اليومَ بالهدوء والطمأنينة لأن معظم من جاؤوا إليه توجهوا إلى ساحة الأغنام لشراء أضحية العيد. ولكن مقابل غياب هؤلاء كَثُرُ حضور آخرين بشكل ملحوظ: باعة الخضر والفواكه على أشكالها، طرية وبسعر زهيد. فهمتُ لماذا لا يمكن انتظار خروج المغاربة محتجين في مظاهرات مليونية، وصدَّقتُ كلام الوزير الأول السابق الذي لقبه بعضهم بـ «عدوّ الموظفين» عندما قال غير ما مرة: «معظم المغاربة يعيشون بالخبز والشاي»، ثم سخرتُ من محرري التقارير التي تستغرب من عيش معظم سكان المغرب بدولارين في اليوم! كان على محرري تلك التقارير أن يزوروا مثل هذه الأسواق ليتحققوا مما يكتبون. أما للذين يسعونَ لأياً لتأليب المواطنين على السلطة، ودفعهم للاحتجاج على أوضاعهم المعيشية المزرية، فقلتُ:

- لن تظفروا بذلك في يوم من الأيام ما لم تحتكروا أنتم مصانع السكر والشاي والزيت ومطاحن المغرب، فترفعوا أسعار هذه المواد إلى حدّ إنطاق

الساكتين. أليست «ثورة الكوميرة» دليلا على ذلك؟! ليس هذا فحسب، بل يجب عليكم أيضا أن تمنعوا وصول نفايات قمامات الغرب إلى هنا...

من بعيد لاحت لي الديكة الحبشية، كالمرة السابقة، لكن عددها كان اليوم كبيرا بشكل ملفتٍ. دونَ أدنى تفكير، اتجهتُ صوب أحد باعتها. بعد أن حددت له حجم الديك الذي أريد، تولى هو عملية الاختيار. اتجه إلى سيارة محملة بالديكة، ثم أشار إلى أحدها، وقال:

- هذا هو ما يصلح لك، إنه من أفضل ما عندي!

وفيما استغرق البائع في مدح الديك، والإطراء على محاسنه، استغرقتُ في تأمل الطائر بمزيج من الافتتان والشعور بالذنب:

تعجبتُ من كبر حجمه، لاسيما أنه لم يسبق لي أن شاهدتُ هذا النوع من الدواجن عن كثب، وسحرني تناسق الألوان الأبيض والأسود والأحمر في جسده، وقفتُ على الشبه الكبير بينه وبين طيور الباذجي المنزلية التي أربيها. ربما ينحدر الاثنان من جدّ واحد بعيد، عاش قبل عشرات ملايين السنين، ولكن تشعب مسالك التطور، ساقت الاثنين إلى قدرين مختلفين: هذا يُقادُ إلى المجزرة ليُذبحَ ويؤكل، ذنبه الوحيد كبر حجمه، في حين تُساقُ الأخرى (طيور الباذجي والكروان وغيرها) إلى الأقفاص أو مزارع الطيور لتُربّى، فلا تُذبح ولا تؤكل. إذا صحَّ أن كل الكائنات الحية تنحدر من أصل واحد بعيد أحادي الخلية عاش قبل حوالي مليارين ونصف

ميار من السنين في مياه البحر، فقد كان بإمكان مسالك التطور المتشعبة وأقدارها أن تضعني مكان هذا الديك أو أحد طيوري المنزلية وتضع أحدها مكاني، فأكون أنا الذي سأساق بعد قليل إلى المجزرة ويكون الديك أو الطائر هو من سيذبحني... لكني شعرت بالذنب لأنني سأقود هذا الديك الجميل والبريء إلى المجزرة، مع أنه لم يلحق بي أي سوء...

حمل البائعُ الطائر، اتجه به إلى وسط ساحة واسعة، وهو يحمل سكينا كبيرا، في حين وقفتُ أراقب المشهد على بعد بضعة أمتار. كان البائعُ شابا ملتحيا، في أواسط الثلاثينات، يرتدي قميصا ناصع البياض، يشبه القميص الأفغاني إلى حد ما، لكنه طويل بحيث تدلى كثيرا أسفل الركبتين، كما كان يضع على رأسه طاقية بيضاء من النوع الذي يلبسه معظم الفقهاء والوعاظ والدعاة... لم يكن ينقص البائع سوى اللون الأحمر فيصبح نسخة من الديك الحبشي الذي يحمله. حمل الطائر بيد، ثم ذبحَه بيد أخرى، وأمعن في تمرير السكين في عنقه جيئة وذهابا إلى أن أيقنَ قتله، رماه أمامه، ابتعد إلى الوراء، انتفض الديك مرات عديدة جراء ألم الذبح، تطاير الدم يمينا ويسارا، تلطخ قميص البائع، وها هو يصبحُ نسخة طبق الأصل من ضحيته. بدا لي المشهد لا يختلف في أي شيء عن مشهد ذبح المتطرفين الدواعش لخصومهم، انتابني هلع شديد. غادرتُ المكان لأبحث عن كيس، في حين تكفل مساعد البائع بنزع ريش الديك الذبيح...

*

*   *

عدتُ بالديك إلى البيت، في الظاهر تيمنا بالعيد واستحضارا لأجوائه، وفي الباطن، ربما اتقاء لشر أن أموت في يوم من الأيام، دون أن يُفطن لوفاتي، فتأكلني قططي، لذلك قررتُ أن أقدم الديك هدية لها، كأني أتقرب إليها كما تقرب إليها قدماء المصريين الذين مضوا أبعد، فألهوها وعبدوها... لو كنتُ أعيشُ في مجتمع بدائي، حيثُ الإيمان بالسحر والعرافة يعادل الإيمان بالله عندنا، لما ترددَّتُ في تأكيد أنَّ كل ما قمتُ به اليوم منذ استيقاظي وذهابي إلى السوق، واقتنائي الديك الحبشي، حتى عودتي إلى البيت، لم يكن سوى امتثال لأمر قططي، وأنَّ ذلك العفريت الصغير، آخر الوافدين تحديدا، هو من حركني كدمية بين يديه... كأنه، عندما عضني أكثر من مرة وأنا نائم ليلة البارحة، كان يملي عليّ كل ما تعين علي القيام به اليوم، كأنه كان يخاطبني بعضاته قائلا:

- عندما ستفيق في الصباح، سوف لن تقرأ ولن تكتب ولن تقوم بأي شيء آخر. سوف تتجه إلى السوق الأسبوعي، لتحضر لنا ديكا حبشيا!...

ولعمري ذاك بالضبط هو ما فعلتُ!

*

*   *

لاحقا، سأفطن إلى أنني من خلال محاولتي الهروب من الموت، عبر اقتناء الديك الحبشي، إنما وضعتُ نفسي في ورطة تعمّق إحساسي بالموت، من خلال شعوري طيلة النهار بما يُشبه إحساسا بذنب «قتل» ذلك الديك الحبشي الجميل والبريء لكن، تلك المحاولة / الورطة نفسها، خلقت في المقابل علاقة جديدة بالقطط:

في البداية، توجستْ من جثة الديك، دنت منها أكثر من مرة دون أن تجرؤ على مسها... ثم تابعت، عن كثبٍ، طقس تقطيع الجثة لحظة لحظة، وفرم أجزاء منها بآلة الفرم الكهربائية، وتعبئتها في أكياس بلاستيكية صغيرة، ووضعها في الثلاجة... آنذاك، أيقنت أنَّ الأمر يتعلق بمأدبة كبرى لها، فغمرتها فرحة وسعادة كبيرتان، ترجمتهما بعض القطط إلى سلوك جديد: نام القطيط (الذي كان نقطة انطلاق الحكاية) وقطيطة أخرى، لأول مرة بجواري، مما جعل الحكاية، من هذه الزاوية، تشكل مثالا عن فكرة جدلية السعادة والحزن، الحرب والسلم، الموت والحياة، وما إلى ذلك، التي سبق التطرق لها، على نحو ما، في أحد مقاطع رواية «بالعنف تتجدد دماء الحب»، تمَّ إدراجه هنا منذ بضعة أيام:

«... سِلمُ اليوم جائزة عن حرب الأمس، لكنه يمهد في الآن عينه لحرب الغد؛ وحربُ اليوم عقابٌ عن سِلم الأمس، لكنها

تمهّدُ في الآن عينه لسلم الغد. حقيقة أروَع من سابقتها: الإنسانُ راكبٌ في أرجوحة، طرفها القصي الأوَّلُ سلمٌ وطرفها القصيّ الثاني حَربٌ، طرفها خيرٌ وطرفها شرٌ، طرفها أخلاقٌ وطرفها لا أخلاق»[6].

فأحيانا، لإسعاد هذا يجب قتل ذاك و/أو على شقاء ذاك تتوقف سعادة هذا.

*

*   *

لاحقا، بعد عامين، سأكتبُ الإدراج التالي:

«من الخير قد يَخرج الخير والشَّر معا، كما قد يخرجُ من الشَّرِّ الشرُّ والخيرُ معا!».

ومما عقِّبَ به عليه:

«الخير والشر من طينة واحدة وهما يولدان من نفس الرحم.» (ثريا بن الشيخ).

---

[6] محمد أسليم، بالعنف تتجدد دماء الحب (رواية)، مكناس، سندي للطباعة والنشر، 1998 (متوفرة بنصها الكامل في شبكة الأنترنت).

«Le bien et le mal coulent de la même source, (J .J. Rousseau).» (Abarkan Mohamed).

«لذلك لا يوجد خير محض ولا شر محض، وإنما العبرة بالنسب فقط.» (البشير المقدم).

«فكرة سبينوزية. الشر ليس ماهية أو كائنا، والأمر نفسه بالنسبة للخير. العلاقة مع الأشياء هي التي تجعل من الشيء نفسه خيرا أو شرا. فالماء عندما نشربه خير، وهو عينه في حالة الطوفان شر.» (محمد الحيسوفي).

«السالب والموجب... والسالب مع السالب والعكس صحيح.» (إدريس القري).

«يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.» (اسماعيل نوالي).

« كل مقرون يلازم مقرونه، فلا شر بدون خير، ولا خير بدون شر، وهذا ما أسماه الفكر الماركسي بـ: وحدة المتناقضين، أو الوحدة المتناقضة Unité contradictoire» (عبد السلام الشرگي أشجعي).

تبني قطة

عدتُ إلى البيت للتو، بعد أداء شعيرة المشي اليومية التي فرضها عليَّ الطبيبُ. كانت الوجهة هذا المساء شمال المدينة، فكان لزاما قضاء وقت في المقهى الشعبي للاستراحة كالعادة. حدثان بارزان:

الأول: شخصٌ بأسمال رثة، يتكئ على عُكازتين، احتسى الخمرة فأسكرته إلى أن أصبح يرى الديكَ حمارا. وأية خمرة؟! الكحول الصيدلي. شرب، فلم يرق له إكمال الشراب إلا في جانب رصيف المقهى المكتظ بموائد الزبائن. في إحدى تلك الموائد كان صاحب المقهى جالسا رفقة أصدقاء له. لم تجدِ طلباتُ الزبائن وصاحب المقهى للمخمور بأن ينصرف ويواصل شرابه في مكان بعيد. للخمرة منطقها وحججها المناقضة تماما لمنطق الصحو وبراهينه... ثم ها هي جماعةٌ من الزبائن تقوم وتتآزر وتمسك السَّكران بكلِّ ما أوتيتْ من قوة، وتجبره على المغادرة: حملته، ورمتهُ ككومة، اندفع، كاد أن يسقط، تماسك بصعوبة كبيرة، ثم غادر المكان بخطو متعثر؛

المشهد الثاني: أحد المشردين بأسمال رثة أكثر من الأول بكثير وشعر رأس اختلط حابله بنابله إلى أن صار لا يُعرفُ أهو مقلد للفنان الراحل

بوب مارلي أم واضع فرو خروف فوق رأسه. أصرَّ المتشرد على التسلل بين الموائد لاستجداء الزبائن، منعته النادلات، بدون جدوى، أصر على التنقل بين الموائد. فجأة، حمل صاحب المقهى مكنسة وأحد العمال عصا، تظاهرا بأنهما سيهويان على المشرد، أمطراه بالشتائم والتهديدات المصحوبة بالتلويح بالقضيبين، وها هو يطلق ساقيه للريح ويلوذ بالفرار: مرق بين السيارات القادمة من جهتي الطريق، قطع إلى الرصيف الآخر، ثم غادر دون أن يلتفت إلى الخلف...

انتابني شعور مرتبك: لم أعرف هل يستحق صاحب المقهى الثناء والشكر لأنه تدبر أمر توفير الراحة لزبائنه أم يستأهلُ اللوم والعتاب لأنه تصرف بقسوة فضحت عدم امتلاكه لذرة رحمة أو شفقة؛ عندما تميل إلى شكره توبخك إنسانيتك وتخجل من أنانيتك، وعندما تنحو صوب لومه تتذكر أنَّ ما قام به هو ما يقوم به بالضبط فريق الممرضين والممرضات في المعازل الطبية لمستشفيات الأمراض العقلية بالمرضى الذين تتحرر فيهم تلك القوى الغامضة القابعة في كل واحد منا من عقال الترويض الذي يخضع له الفرد منذ ولادته إلى أن تتأتى لها فرصة الإفلات من قيود الترويض فتكسِّر جميع القيود وتنطلق... الفرق الوحيد بين الحالتين هو أن ما جرى اليومَ تمَّ في الفضاء العمومي، على مرأى ومسمع من الجميع، في حين ما يجري في مستشفيات الأمراض العقلية يحدث ليس فقط وراء أسوار المستشفى،

بل وكذلك وراء جدران غرف مغلقة لا يرى ولا يسمع ما يجري فيها إلا من كان داخلها!...

*

*　　　*

ذكرني الحدثان بما كتبته في تدوينة سابقة:

> نعيشُ في مجتمع يستحيل أن يمشي المرءُ فيه خطوة واحدة دونَ أي يُكسِّرَ شيئا فيه (= المجتمع) أو يُكَسَّرَ شيءٌ منهُ (= المرء). وعندما سينتهي هذا التهشيم المتبادل، أو على الأقل عندما ستكون حدَّته قد خفت بشكل كبير جدا، بحيث يصبح غير مرئي وغير معيش في الحياة اليومية، آنذاك فقط سيكون دخولنا العصر الحديث قد اكتمل، وهو ما لا يمكن تحديد موعده ولا ضمان أن يعيشه جيلنا الحالي ولا حتى بضعة أجيال مجتمعنا المقبلة، ربما...

تساءلتُ: أيجدر بالمرء أن يلازم بيته ولا يخرج أصلا؟ أن يلوذ بالصمت الأبدي، ويعيش كجثة محنطة؟ لكن، أليس ذاك هو ما قام به بالضبط السكير الأعرج والمشرد المريض؟ ليس سُكْرُ ذاك ومرض هذا سوى ردين للفعل إزاء طبقات من الكسور القوية والجروح الغائرة التي تراكمت بمرور الأعوام والسنين!!!

*

*   *

بعيدا عن المقهى، صادفتُ سمكا بسعر زهيد. اقتنصتُ الفرصة فاشتريتُ ما تيسر منه لإسعاد قططي. بعيدا عن صاحب السمك، ها هو صوت «هرير» لا يتجاوز عمره حوالي أسبوعين يصرخُ بعد أن تاه أو تخلت عنه أمه مكرَهة: ربما لأنها وجدت نفسها بين خيارين أحلاهما مرّ: أن تطلق ساقيها للريح فتنجو بحياتها، لكنها تفقد أبناءها، أو تتمسك بهم فتصادف أذى كبيرا هي وإياهم! باستثناء هذا الموقف، تسخر القطة كل المجهودات والحيل للحفاظ على صغارها، بما في ذلك أن تعمد أحيانا إلى أكلهم متوهمة أنهم سيخرجون من رحمها لاحقا كما خرجوا يوم أنجبتهم!

يصرخ القطيط بأعلى صوته كمسافر على متن باخرة لا يعرف السباحة، ثم وجد نفسه فجأة مُلقى في عرض اليمّ... يصرخ تائها وسط الرصيف المكتظ بالمارة، لكن لا أحد يكترث له، بل الجميع يتحاشاه مع أنه أحد أبناء عمومتنا الثدييات... لو كان الصارخُ طفلا تائها لانقلب المشهد إلى منقلب آخر. ناديتُ الهرير، جرى نحوي، حملته، كف عن المواء. هاتفتُ صديقا لي كان قد أعرب لي منذ بضعة أيام عن رغبته في تبني قط أو قطة صغيرتين، وكنتُ أنوي إسعاده بالهرير التائه، لكن كان من سوء حظ هذا أن الصديق كان قد عثر على قطيطة قبل يومين، حسب ما قال.

اصطحبتُ الهرير معي إلى البيت، ظل صامتا على امتداد الطريق، لأنه شعر بالأمان...

بمجرد ما فتحتُ الباب ألقيتُ الوافد الجديد في الأرض، واستغرقتُ في مراقبة طقس استقبال قطط البيت الأربعة له: جرى الهرير في كل الاتجاهات، في حين لم تبدِ القطط أي تحمس لاستقباله، علامة على رفضها له؛ تبادل الخمسة تحية التهديد والوعيد: قطط المنزل، أكبر منه بكثير، تهدد، في حين يواجه القطيط التهديدَ بالوعيد، مع أنه لصغره يبدو أمامها كأكذوبة. إنها لغة الجينات والغريزة التي لا تقتضي تعلما ولا تلقينا... ربما كانت طقوسُ «الانضمام المهين» التي يُطلق عليها اسم «البيزوطاج Bizutage» التي يُلحق من خلالها أفراد الفوج القديم بمؤسسة تعليمية أو ثكنة عسكرية مَّا أبشع الإهانات بزملائهم الجدد إعادة إخراج لهذا السلوك «الثديي» السحيق، إذ مثلما تنقلب عداوة القطط فيما بينها إلى صداقة حميمية حتى ليخيل للرائي أنَّ جميع نوارس البيت، القدماء والجدد، أشقاء خرجوا من رحم واحد، كذلك تنقلب أشكال العبث الجسدي لقدماء الطلبة والجنود بنظرائهم الجدد، عقب طقس الاستقبال المهين، إلى صداقة نسيجها التعاون والتآزر والتآخي... فقط، في حالة القطط وأفواج الجنود والطلبة يكون التهديد مسرحية ساخرة تنتمي دائما بنهاية سعيدة. أما تهديد صاحب المقهى وعامله وزبائنه، فكان مسرحية في غاية الجد؛ كان مآل

السكير المتشرد اليومَ هو أن أمسكت به جماعة أشخاص بمنتهى القوة وطوحت بجسده بعيدا عن المقهى، ثم لاشك أن إصرار المريض عقليا على دخول المقهى قد أفضى به من قبل إلى تلقي ضرب مبرح إلى أن أصبح يلوذ بالفرار بمجرد ما يشاهد عصا أو قبضة مكنسة في يد صاحب المقهى أو أحد عمالها...

نحيتُ القطيط في ركن قصي بالبيت، أطعمتُه، سكن وهدئ روعه، وها هو يجلس فوق صدري الآن، عاضا عليَّ بالنواجذ وغاطا في النوم، يحتمي من باقي القطط ويستدفئ بحرارة جسدي بقدر ما أحميه منهم، أو أحتمي به مما لستُ أدري، وأستدفئ بحرارته، إلى أن أنهي جلسة اتصالي الاعتيادية بشبكة الأنترنت قبل النوم، بعد ذلك سأمنحه حماما دافئا، وأهيئ له مكانا لينام فيه، في انتظار ما قد أفعل به لاحقا عندما يكبر ويشتد ساعده بهذا القدر أو ذاك...

*

*   *

بمرور الأيام، تعلق بي القط تعلقا شديدا، كدأب سائر القطط التي تولد في البيت أو يتم تبنيها في سن صغيرة جدا، ما أثار في ذهني سؤال ما إذا كان تعلق القطط بالبشر يجد تفسيره في التباس الحدود بين الاثنين:

لا يفوت من يربي قططا ملاحظة توددُّدَها وتحبُّبها للإنسان وسعادتها بالتقرب منه ومجالسته وملاعبته، بل إذا خيِّرت بين الإنسان أو الطعام استغنت عن الطعام واختارت الإنسان، ما يبعث على التساؤل: هل في صغار بني آدم بقايا قطط أم في القطط بقايا صغار البشر؟

الشيخ الفرنساوي وعشيقته الصغيرة

عُدتُ للتو من سفر ميل على متن القطار. نبه مكبر صوت المحطة إلى أن رحلة الذهاب ستتأخر بعشرين دقيقة، فاتجهتُ إلى مقهى المحطة لقضاء ذلك الوقت فيها. هناكَ، وجدتُ نصا جميلا في انتظاري:

فرنسي في حوالي السبعين من عمره، أصلع، يكفي أن يرتدي طاقية بيضاء وسروال «قندريسة» و«تشامير»، فلا يعود هناك ما يمنع إطلاقا من أن يؤم الناس في الصلاة. كان العجوز مرفقا بفتاة صغيرة، في حوالي العشرين من عمرها، حرصت على إشهار انتمائها للحداثة، من خلال لباسها المتبرج وإمساكها سيجارة في اليد والجلوس بشكل يخيل للناظر كأنها نزلت للتو من حلبة لعرض الأزياء...

جلس الاثنان حول مائدة. البنت ذات بشرة وردية وعينين زرقاوتين، صبغتْ شعر رأسها بالأشقر وارتدت سروال دجين قصير التصق باللحم إلى أن أظهر كل تقاسيمه، وقميصا أصفر لازال يافعا، لذلك عجز عن إمساك النهدين على صغرهما فزاغا إلى الأمام، وعن حجب نصف البطن فخرج عاريا. وباختصار، فقد كان كل شيء يوحي بأن الرجل كان أمام

غنيمة لذيذة بقدر ما كانت البنت أمام صيد ثمين. ومع أنَّ صوت تلفاز المقهى كان مرتفعا، فقد حرص الشيخ على أن يتكلم بصوت مسموع كأنه كان يعلن بذلك لجميع الحاضرين أنه كان فرنسيا...

قبيل وصول القطار، انضم إلى الاثنين رجل في حوالي الثلاثين من عمره، قوي البنية، أسمر البشرة، يرتدي ثيابا متواضعة. جاء وهو يجر حقيبة، فاتضح أنَّه كان خادما للعشيقين. مرت لحظات، وها هو مكبر صوت المحطة يعلن أن القطار سيصل في غضون ثوان. قام العشيقان والخادم، ولجوا الرصيف، وقف القطار، صعد الثلاثة، راودتني فكرة الالتصاق بهم والجلوس معهم في مقصورة واحدة لمتابعة بقية النص الجميل، وكنتُ شبه متأكد من أن جلوسي معهم كان سيكون مضمونا لأن كل القطارات القادمة من الدار البيضاء والرباط تفرغ قسما كبيرا من أحشائها في محطة القنيطرة المدينة، لأنَّ هذه المدينة أصبحت الملاذ الوحيد لكل من عجز عن العثور على سكن مناسب في الرباط أو سلا أو حتى في الدار البيضاء، جراء اقتتال كبار حيتان العقار الدائر حاليا في عاصمة الغرب إلى أن أصبحت الشقق الأنيقة الجميلة، المصممة بأحدث طراز معمار الحداثة، بل وحتى ما بعدها، تتطاير مثل الشظايا وتنزل على الراغبين في الاقتناء أو الكراء بأسعار يعد العثور على مثلها في العاصمتين الإدارية والاقتصادية من سابع المستحيلات...

«لكن مطاردة هذا الشيخ الفرنساوي وعشيقته المغربية الصغيرة وحارسهما الأسود ستقتضي مني أن أكون متلصصا»، قلتُ، وهو ما استكثرتُ أن أقع فيه واستعظمتُه، فتراجعتُ، وصعدتُ عربة أخرى حرصتُ على ألا تكون فيها مقصورات معاقبا نفسي على ذلك الخاطر الشيطاني؛ ففي هذا النوع من العربات تصطف الكراسي اثنين اثنين على جانبي ممر العربة، فلا يجد النص أي منفذ للدخول، اللهمَّ إذا أصر وألح وعاند كما جرى يوم ساقتني الصدفة إلى الجلوس أمام العجوز الفاسية [7] التي استكثرتْ جلوسي بجوارها، لمجرد أني ذكرٌ. كأنها حسبتني جئتُ لأطبق قوله «وانكحوا ما طاب لكم من النساء»! نسيتْ - أو تناست - أنَّه قيَّد سكب بذور الحياة في أرحام النساء، إذ قال: «واختاروا لنطفكم!». من يشتت نطفه يمينا ويسارا، فليتوقع الإعصار الذي أتى على الأستاذ التطواني الذي كان لا يمنح طالباته أعلى العلامات إلا بمقابل التحليق معه في الماء، وأتى على أحد كبار مشايخ الدعاة عقب وقوعه في فخ فتاة في سن حفيدته!... صعدتُ وأنا أقول: ما لم يطلبكَ النصُّ فلا تتعب نفسك بملاحقته. أجمل النصوص هو من يأتي إليك وليس من تذهب إليه، يلاحقكَ ويُطاردك لا تستجديه أو تلهث وراءه، يطلبك ولا تطلبه...

[7] حكايتها منشورة ضمن الكتاب الحالي تحت عنوان «الحاجة الفاسية "العرنساوية"».

لكن ذلك لم يمنعني من تخمين سر العلاقة بين الصبية والعجوز. قلتُ: واحدة من اثنين:

إما أن الشابة وقعت ضحية حادثة سير جراء تهورها في قيادة مراهقتها، فساقها الأمر، كالعديدات أمثالها، إلى نشر إعلان بأحد مواقع التعارف في شبكة الأنترنت، كتبت فيه ما يشبه:

> «أنا شابة جميلة، عمري كذا، أرغبُ في الزواج من رجل أوروبي، يتراوح عمره بن 30 و90 عاما، أعده بأن أمنحه كل السعادة التي يطلبها».

فوقع العجوز على الإعلان، وشد حقائبه مهرولا إلى بيت الفتاة ممثلا دور العريس المنتظر؛

أو أنَّ العجوز مصور أفلام إباحية تنكر في هيئة عريس أو رب شغل يبحث فتاة لتعمل معه، أو ما شبه ذلك، ثم قصد الفتاة واستدرجها إلى مراكش ليجري معها سلسلة حوارات جسدية، ثم يطلق ساقيه للريح صوب أسواق النخاسة العجمية ليتاجر فيها بما غنمه من أشرطة.

*

*   *

في رحلة الإياب، وجدتُني في مقصورة رفقة سيدة في حوالي الثلاثين من عمرها يُصاحبها رجل بدين، انضمت إلينا امرأة مسنة بدينة

جدا، بحيثُ كاد وزن جسدها أن يبلغ ضعف مرافق بنت الثلاثين. بعيد انطلاق القطار، اتضح أن السيدة الصغيرة كانت أستاذة قادمة من طنجة، في حين كان مرافقها عراقيا كرديا، كما اتضح أن العجوز قد صعدت من محطة صُعودي نفسها، وهي القنيطرة، وأنها كانت متجهة نحو الدار البيضاء لزيارة أقارب لها.. نزلت الأستاذة والكردي، بعد وقت وجيز، في أول محطة توقف فيها القطار، فما كان هناك متسع من الوقت لتجاذب أكثر مما تحدثنا فيه نحن الأربعة، ولم يتعد التشكي من المرض وكثرة الحرارة وقلة حياء شباب اليوم، وما إلى ذلك.

كان ملفتا للانتباه أن العجوز السبعينية المتكَوِّمة داخل جلبابها مثل ناقة عظيمة، قد صعدت إلى القطار مدججة بحقائب: واحدة مجرورة باليد وعجلتين، وثلاث «حقائب» كبيرة تُحمل من اليدين، ما أثار شفقتنا أنا والكردي على المسافرة النازحة، فتآزرنا على وضع حقيبة هنا، وثانية هناك، وتعليق الثالثة في الأعلى، وما إلى ذلك. شكرتنا العجوز، وبررت حملها الثقيل بأن قالت:

- أنا ذاهبة لأصِلَ الرحم، وما أدراكم ما صلة الرحم! أخطأ من ظن أنها سهلة (علاه غير أجي ودير صلة الرحم؟!

كانت وجهتها الدار البيضاء. أشفقتُ على الذين خرجت تلك المرأة البدينة لشن غزوتها عليهم، والذين لن يكونوا سوى ابنها أو بنتها المتزوجين

هناك، وأبناءهما. نخلافا لما زعمتْ، أيقنتُ أنَّ رحلتها إليهم ستكون زيارة صُداع للرأس وقضاء شهرين أو ثلاثة في تنغيص حياة آمنين وترويعهم بسيل من الملاحظات والمؤاخذات والأوامر والنواهي. أما عندما احتملتُ أن تؤدي رحلتها إلى نشوب حرب عائلية كبرى فتتحول إلى نوع الزيارات التي تفضي إلى ارتكاب جرائم، كتلك التي أفضت بضابط شرطة القنيطرة إلى قتل حماته وزوجته، وآلت بضابط شرطة القصر الكبير مؤخرا إلى ذبح حماته، وبنادل مقهى سيدي بابا بمكناس إلى ذبح حماته وأخوات زوجتيه، وأفضت بآخرين كثر إلى ارتكاب أبشع الجرائم بحق أمهات زوجاتهم العجوزات، مما تتناقله أخبار الصحف والمواقع الإلكترونية، جراء سعيهن للتسلط والتحكم في أبنائهن وزوجاتهم، وبناتهن وأزواجهم، بل وحتى في أحفادهن وحفيداتهنَّ... عندما احتملتُ ذلك، عُذتُ بالله من الشيطان ومن هذا النوع من النساء ولذتُ بالنوم، فلم أصح منه إلا وصوت العجوز يناديني:

- قم يا سيدي، قم يا سيدي، ها قد وصل القطار إلى القنيطرة!!!

قمتُ ونزلتُ وأنا أشكر نومي الذي كان ألذ من كل ما كنتُ سأسمعه من العجوز على امتداد الرحلة...

مراقبة الهلال

ليلة البارحة، قبيل النوم، شغلني كثيرا موضوع سفر اليوم إلى الرباط، جراء تأخيرات القطار التي تواترت في الآونة الأخيرة بحيث كادت أن تدخل في باب العادات، فقررتُ عن سبق إصرار وترصد اجتناب قطار الثامنة، ولو كلفني الأمر البقاء نائما حتى منتصف النهار، فهو صار يتأخر دائما بنصف ساعة على الأقل!

استيقظتُ في الصباح الباكر، لكني تناومتُ... لما حان موعد الخروج، وجدتُني أبحثُ عن جلبابٍ أبيض، وطاقية بيضاء، ونظارتين شمسيتين سوداويتين، وعُكاز، بغرض أن أخرج بهيأة أعمى، تحاشيا لمجيء نص ما إليَّ، على عادة الأسفار السابقة، قلتُ:

- في هذه المرة، سيظنني النص أعمى، ويتفاداني.

لكني لم أجد جلبابا ولا عكازا ولا نظارتين شمسيتين ولا طربوشا، ولا هم يحزنون، رغم أني صرفتُ زهاء ساعة في تقليب البيت رأسا على عقب، الشيء الذي أثار دهشتي واستغرابي، بل ساورتني شكوك كبيرة

في أن يكون أحدهم قد استنسخ مفتاح البيت، في غفلة مني، فواظب على المجيء إليه دون علمي، ثم سطا على الجلباب والعكاز والنظارتين الشمسيتين السوداويتين وطربوش الحجاج الأبيض، لكن لماذا سيختار هذه الأشياء دون غيرها؟ ففي البيت ما هو أغلى وأنفس... تذكرت أني، جراء انشغالي قبيل النوم ليلة أمس بحكاية سفر اليوم، رأيتُ في المنام الحلم التالي:

«قبل الخروج إلى محطة القطار، لبستُ جلبابا أبيض، وقبعة بيضاء، ونظارتين شمسيتين سوداوتين، وأمسكتُ عكازا في يدي، وتوكلت على الله، ثم غادرتُ البيتَ بهيأة أعمى لكيلا أرى شيئا ولا أكتب عن شيء»..

لعنتُ هذا الحلم التافه، وما أضاعه عليَّ من وقت، فهرولتُ إلى المحطة، واشتريتُ تذكرتي ذهاب وإيابٍ كالعادة، على الساعة 12 و15 دقيقة، على أساس أن أسافر في قطار الساعة 12 و30 دقيقة، وأعود متى قضيتُ أشغالي في الرباط، فدقت الساعة الموعودة، وتلتها خمس دقائق، فخمسٌ أخرى، فخمسٌ، ثم خمسٌ، وها هي لوحات الرصيف الإلكترونية تقول إن موعد انطلاق القطار المقبل هو الواحدة بعد الزوال، وأن وجهته هي مراكش وليست الدار البيضاء الميناء، كما كتب في تذكرتي... عرضت اللوحات ذلك دون أن تكلف نفسها عناء تشنيف مسامع المسافرين بالأغنية المعتادة، باللغتين العربية والفرنسية:

«سيداتي، سادتي، انتباه من فضلكم! القطار القادم من مدينة كذا والموجه إلى محطة الدار البيضاء الميناء، سيتأخر عن موعده بنصف ساعة، نشكركم على حسن تفهمكم».

«Mes dames et messieurs! Votre attention s'il vous plait! Le train en provenance de (...) et à destination de Casa – port, aura un retard de 30 mn, nous vous prions de nous en excuser. Merci...!»

اجتَنَبت المحطة عزف هذه الأغنية، ففرضت الأمر الواقع، وخرجت من الباب الواسع!

ركبتُ قطار الواحدة، تحاشيتُ عربة المقصُورات، صعدتُ عربة الكراسي المصطفة بطريقة اصطفاء الكراسي في الحافلات، جلست بجانبي فتاة في سن ابنتي، ارتدت سروال دجين أنيق وقميص ثوب أبيض، وطلت وجهها بماكياج محتشم، استغرقت في معالجة شاشة هاتفها الذكي، في حين استغرقتُ في قراءة كتاب «الثورة الرابعة». في حوالي منتصف الطريق سألتني:

- سيل فو بلي مسيو (s’il vous plait monsieur)، هل يتوقف هذا القطار في الرباط أم لا؟

- نعم.

- ميرسي.

ثم استغرق كلانا في شأنه...

لم أعرف لماذا سألتني بالفرنسية مع أني كنتُ أقرأ كتابا بالعربية! خمنتُ أن تكون سبطة لـ «الحاجة الفاسية العرنساوية»[8]، هممتُ بسؤالها:

- هل أنت قادمة من فاس؟
- هل أنت سبطة «الحاجة الفاسية العرنساوية»؟

لكني تراجعتُ.

في محطة الرباط المدينة، خرج النص من قمقمه كالعفريت: أثناء الصعود في الدرج الكهربائي الذي يقع على يمين نظيره الإسمنتي المكتظ بالمسافرين الخارجين، لاحت امرأة، أغلب الظن أنها أعجمية، وهي تصعد الدرج الإسمنتي مهرولة. ربما اختارت الصعود على القدمين، بدل الصعود في الدرج الكهربائي، تفاديا للزحام وربحا للوقت أو لأن القطار تأخر عن موعد الوصول. إلى هنا لا مشكلة، ولكن الست نفسها نسيت أنها كانت ترتدي تنورة قصيرة جدا، تسلقت نصف نخذيها، وأنها بصعودها المهرول قد وضعت سرَّها في مرمى عيون زهاء نصف راكبي الدرج الكهربائي

[8] انظر النص المنشور بالعنوان نفسه في الكتاب الحالي.

الذين كانوا يرونها من الأسفل! وحيثُ أن المغاربة والعرب عموما حاذقون في هذا أكثر من أي شيء آخر، إذ لا شغل لمعظمهم غيره، فقد صوَّب أغلب الذين كانوا صاعدين في الدرج الكهربائي «تلسكوباتهم» صوب ما تحت كسوة المرأة، كأنهم يترقبون ظهور هلال رمضان أدرتُ «تلسكوبي» صوبَ الراكبين، فإذا بهم كلهم تقريبا شبه خاشعين، وبأفواه فاغرة يترقبون ظهور الهلال العجيب...

بعد الصعود، راودتني فكرة أن أقوم بأحد شيئين:

أن أصرخ في وجه مراقبي هلال رمضان:

- أرأيتم الهلال أم لا؟ هو هلال ماذا: شعبان أم رمضان؟

أو أن أتجه إلى تلك السيدة، وأقول لها:

- سيدتي! عندما صعدتِ الدرج الإسمنتي مسرعة كنتِ في مرمى عيون كل هؤلاء! كلهم راقبوا هلالك! ومن المحتمل جدا أن يكون أحدهم قد التقط صورة لك بهاتفه. تدبري ما تفعلي معهم...

لكني خشيتُ أن تتحول بقية الحكاية إلى رواية؛ فقد تحضر الشرطة، وتسوق جميع المسافرين إلى أقرب مخفر، وتصرف ساعات طويلة في تفريغ ذاكرات الهواتف المحمولة، وأصحابها معتقلون، بمن فيهم أنا طبعا باعتباري الشاهد الوحيد في النازلة. وقد تعثر الشرطة على صور للمرأة وقد لا تعثر.

وفي هذه الحالة قد يتابعني جميع الذين اعتقلتهم الشرطة باعتباري ارتكبتُ جنحة وشاية كاذبة، وما إلى ذلك، فيُحكم عليَّ طبقا للفصل 445 من القانون الجنائي المغربي بـ «الحبس من ستة أشهر إلى خمس سنوات، وغرامة من مائتين إلى ألف درهم»، علاوة على جواز أن تأمر المحكمة «بنشر حكمها كله أو بعضه في صحيفة أو أكثر» على نفقتي، فتصبح الرواية روايتين:

واحدة تدور أحداثها حول مراقبة الهلال وأخرى حول تجربة السجن... خشيتُ على نفسي، فتراجعتُ، لاسيما أني لم أكن مستعدا اليوم للاستجابة لنداء أي نص، لكيلا تؤجل هذه الاستجابة كتابة نصين لازالا في ذمتي، هما: الجزء الرابع من منتخب سيرتي، وعنوانه: «من التخوانجيت إلى التشيوعيت»، ثم حكاية «قدمٌ في الرحمان وأخرى في الشيطان»[9]. قلتُ:

- أمرُهم بينهم!

ثم نجوتُ بجلدي

*

*   *

[9] منشورة ضمن الكتاب الحالي.

محوتُ الحادثة من ذاكرتي «محوا تاما»، ثم خرجتُ مسرعا. لاحقا، صادفت هذه الذكرى أخريات شبيهات لها، بتنويعات مختلفة، فأفضت إلى التدوينة التالية:

> يبدو أن مشكلة السواد الأعظم من المغاربة هي مشكلة «لحمية» في المقام الأول. اللحم لحوم، كما هو معلوم، لكن الشغل الشاغل لسوادنا الأعظم لحمان: لحمٌ يُحرم الناسُ منه فلا يصلون إليه إلا في العيد الأضحى، ولحمٌ يحرمون أنفسهم منه مع أنه في متناولهم على مدار العام!

*

*   *

ركبتُ سيارة أجرة صغيرة، حصلتُ في أقل من ثلاث دقائق على الوثيقة الإدارية التي سافرتُ من أجلها، نزلتُ إلى وسط المدينة، تناولتُ وجبة الغذاء، عرجت على السوق المركزي لشراء لحم فرس مفروم لقططي، خشية أن تصاب هي الأخرى ببعض أمراض القلب والشرايين، فيتحول المنزل إلى جناح لأمراض القلب والشرايين...

عُدتُ إلى البيت.

أدت لي القطط تحية الاستقبال، ثم استغرقتْ في دس خياشيمها في حقيبتي اليدوية، بحثا عن الجديد. أخرجتُ المفاجأة، ناولتها قسطا من

اللحم، أكلته بنهم شديد، ثم شكرتني، فجلستُ هنا (في صفحتي بالفايسبوك) لأشْعِرَ باحتمال تأجيل كتابة نص «من التخوانجيت إلى التشيوعيت» ليوم أو يومين آخرين مادام لي موعدٌ يوم غد مع شغل سوف يلتهم وقتا أطول مما أكله سفر اليوم...

*

* *

لاحقا، سأفطن إلى أنني ربما ما كنتُ لأنشغل أو أفطن لحكاية مراقبة المسافرين لـ «هلال» المرأة التي دونتها في الإدراج أعلاه لو أني لم أتطرق للوضع الاعتباري للجنس في مجتمعنا، في إدراج آخر نشرته قبل حوالي أسبوعين، كان نصه:

الجنسُ... ذلك الوحش المفترس!

تنويه: هذا المقطع خلاصة لما يُمكن بسطه في إدراج أطول، يسعى لإظهار وجوه التقاطع بين أشكال الممارسات الجنسية في مجتمعاتنا: «سويها»، و«منحرفها»... وقد خطرت أفكاره بمناسبة تأمل حالة الشيخ الداعية المغربي المعروف التي أجدها لا تختلف عن سائر أشكال الممارسات الجنسية عندنا، بسبب غياب الاعتراف بالجنس أولا، ثم بعدم الاعتراف بحقوق الجسد ثانيا، ومُحاصرته ثالثا، ومن ثمة فقدر هذه الوظيفة البيولوجية في مجتمعنا

أنها تكون دائما سلوكا منحرفا، بما في ذلك أثناء مزاولتها داخل القفص الذهبي، ولو غابت فيه الخيانة الجنسية، مع اختلاف في درجات الانحراف، إذ يمكن افتراض وجود انحراف سوي معترف به يُعاقبُ صاحبه على سوايته داخل انحرافه، وانحراف غير سوي يعُاقب صاحبه على انحرافه داخل سوايته...

الجنسُ في مجتمعاتنا وحشٌ مفترسٌ خطيرٌ، لا ينفع الفرار منه وتحاشي مواجهته، بالإعراض عنه والزهد فيه، لأنَّه قادرٌ على أن يخرج من أقرب مقبعٍ، ويثب على المختفي الزاهد، ويفترسه أبشع افتراس، بأشكال شتى: حرمان، كبت، إنجاب عدد كبير من الأبناء، اغتصاب، زنا المحارم، وما إلى ذلك، كما من غير المجدي مواجهته، والانقضاض عليه، بالمطالبة به، أو ممارسته جهارا، فأحرى الإفراط فيه، لأنَّه يهزم الشخص الذي يجرؤ على ذلك، مهما بلغت قوته وشجاعته، بل وحتى وقاحته، يهزمه بوجوه عديدة: انحراف، مضايقات اجتماعية، وقوع في الدعارة، ارتكاب جرائم جنسية، التعرض لسَيفي الفقه والقانون المسلَّطين على الجميع، وما إلى ذلك، كما لا ينفع التفاوض معه ومهادنته في سبيل إقامة علاقة ودية وسلمية ومتوازنة معه؛ فهو مكروه ومطرود، لا يُمكن مقابلته، لأنه غائب تماما، بل حتى مجرد الكلام فيه ممنوع أصلا: في المدرسة، في البيت، في المسجد، في وسائل الإعلام...، لأنه غير مُعترفٍ به أصلا...

ولكن فرط غيابه ليس سوى الوجه الآخر لكلية حضوره؛ فهو الشغل الشاغل للجميع. والدليل على ذلك أن الكل مهووس به، بالرغبة فيه أو الخوف منه. من لم يتكالب ويتهافت عليه حمل عصا ومارس «مطاردة السحرة» لإخراج روحه الشريرة من كل من جرأ على الدنو منه أو المطالبة به أو الحديث فيه. والغريب - الذي ليس هو بغريب في الحقيقة ما دام الجنسُ يفترسُ الجميع - هو أن لا أحد من الأصناف الثلاثة ينجو من هذا الوحش المفترس:

- الكوميسيرُ الحاج الذي انتشر خبر غزواته الجنسية كالنار في الهشيم، في ربوع مغرب منتصف تسعينيات القرن الماضي، هو الشخصية النموذجية العليا لصنف من يفترسه وحشُ الجنس جراء تهافته عليه، إذ بلغ عددُ اللواتي نازلهنَّ هذا «البطل» في الفراش مئات الضحايا، برضاهنَّ أو بالتهديد والإكراه، فكان ثمنُ انغماسه في الجنس حتى الأذنين، وحرصه على توثيق غزواته بالصوت والصورة قبل أن يظهر الهاتف الذكي وتُصبح كاميرات التجسس في متناول من هبَّ ودبَّ، كان ثمنه أن اعتقل وحوكمَ وسُجِنَ وأعدمَ؛

- الداعي والداعية المشهوران اللذان ضُبطا متلبسين بممارسة «الفاحشة» داخل سيارة في أحد شواطئ المحمدية، بعد أدائهما صلاة الفجر، هما الشخصيتان النموذجيتان للصنف الذي يزهد

المنتمي إليه في الوحش الجنسي ويتحاشاه إلى أن يُحاربه، فإذا به يخرج من تحت جلباب مرتديه، حيثُ كان قابعا. يخرج دون أن يفطن إليه الزاهد فيه، ويثب عليه ويفترسه شر افتراس؛ لاكت الألسن ووسائل الإعلام الورقية والرقمية، المقروءة والمسموعة، قصة الداعي والداعية على امتداد أسابيع، فكان أن اختفيا وغابا الغياب الأبدي، فلم يصعد أحدهما منذئذ منبرا قطّ، ولا أقام مجلسا للوعظ والإرشاد، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن مُنكر جراء تعرضهما لافتراس الوحش الذي كان قابعا تحت جلبابيهما أيام كانا يعظان الناس ويرشداهم ويحذراهم منه!؛

- أما الصنف الثالث الذي ينجح في إقامة علاقة متوازنة مع الجنس في الظاهر، من خلال ولوج مؤسسة الزواج، فنموذجه الأعلى أولئك الأزواج الذين يرددون عبارة «اللحم تخاوى [= تآخى اللحم]» في إشارة إلى أن زوجاتهم لم يعدن يثرن فيهم الرغبة الجنسية على الإطلاق، فصارت ربة بيت الواحد منهم بمثابة شقيقته الخارجة من رحم أمه، ما يفيد أنَّ الارتباط الشرعي بامرأة واحدة لم يحقق الإشباع الجنسي الذهني والوجداني طبعا لا الجسدي والعضوي! وأنَّ الرغبة قد انتقلت إلى أمكنة أخرى، في الواقع أو المتخيل أو حتى الاستيهام!

*

* *

لاحقا، بمناسبة رواج العديد من الصور والنكت ذات الإيحاء الجنسي إبان عيد الأضحى، كتبتُ الإدراج التالي:

«يبدو أن مشكلة السواد الأعظم من المغاربة هي مشكلة «لحمية» في المقام الأول. اللحم لحوم، كما هو معلوم، لكن الشغل الشاغل لسوادنا الأعظم لحمان: لحمٌ يُحرم الناسُ منه فلا يصلون إليه إلا في العيد الأضحى، ولحمٌ يحرمون أنفسهم منه مع أنه في متناولهم على مدار العام!».

الحاجة الفاسية «العرنساوية»

كان لي موعدٌ اليوم مع صديقة لي في الرباط حوالي الساعة 12، فإذا بالقطار المفترض أن يصل على الساعة 11 و35 دقيقة يتأخر إلى غاية الساعة 12 و10 دقائق، فكان من الطبيعي أن يمتلئ رصيف المسافرين عن آخره بالركاب، وأن تكون هناك صعوبة كبرى في العثور على مقعد فارغ داخل القطار. لاحَ لي مقعد شاغر في مؤخرة العربة صعدتُ إليها، احتلته سيدة عجوز من خلال وضعها حقيبة يدوية بيضاء فيه، متظاهرة بأنه كان لشخص آخر برفقتها وأنَّ صاحب المقعد (أو صاحبته؟) كان سيعود إليه بعد لحظات. ارتدت العجوز جلبابا أبيض، ولفت رأسها بشال أخضر باهت، وتركت وجهها سافرا، حيث عجزت النظارتان البنيتان عن حجب الماكياج المحيط بالعينين، كما بدا الفم مصبوغا بأحمر شفاه داكن، والخدان بطلاء أخضر ممزوج بالأحمر. غير أنَّ ذلك لم ينجح في حجب التجاعيد الزاحفة على وجهها عن آخره... سألتُها:

- سيدتي! هل المقعد شاغر؟

أجابت متلكئة:

- نعم.

تهيأتُ للجلوس، قالت:

- من الأحسن أن تبحث عن امرأة جالسة بجانب رجل، وتطلب منها أن تأتي لتجلس بجانبي، وتجلس أنت في مكانها، بجانب الرجل.

قطبتُ حاجبي، لفتها بنظرة مستغربة، ثم قلت لها:

- ولكن غرضي هو الجلوس في مقعد شاغر دون أن يهمني أن يكون بجانب رجل أو امرأة! انظري: العربة مملوءة عن آخرها بالراكبين!

ثم هممتُ بتلبية رغبتها، اعترضت:

- حسنا! اجلس، اجلس!

رجحتُ أن يكون سبب اعتراضها على جلوسي بجانبها أني كنتُ أرتدي سروال دجين وقبعة رياضية، وأحمل قفصا بداخله زوج طائر باذجي، ومن ثمة ربما حسبتني بائع طيور متجها إلى المدينة لبيعها، في حين كنتُ ذاهبا بالقفص والطائرين لإحدى صديقاتي في الرباط. ربما اتضح لها من كلامي أني بخلاف ما توهمت، فتراجعت عن اعتراضها، وأذنت لي بالجلوس بجانبها. باختصار، فقد كانت المرأة من صنف الأشخاص الذين

يحكمون على الناس بالمظاهر، كنادلة المطعم في إدراج «الصدر للزوج والفخذان للزوجة»[10].

خلال السفر، رنَّ هاتف جارتي أكثر من مرة، فتبين أنها كانت عائدة من فاس إلى الرباط، وأنها بلكنتها التي تنطق «الراء» «غينا» كانت امرأة فاسية، وأنَّ سبب السفر كان إما زيارة مريض يحتضر أو تكملة مراسم جنازة. الغريب أنها، إلى جانب اعتراضها الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن امرأة غارقة في غياهب التقليد، أو ست من قطيع حريم، كانت تخلل كلامها بالكثير من الجمل الفرنسية، من ذلك:

- Ah bon?! Très bien !

- ...

- Je vois. Ok, ok. Il fallait le dire au médecin !

- ...

- Dans quelques minutes je serai à Rabat et on règlera tout ça...

تساءلتُ عمَّ إذا كانت، بعد وصولها إلى المصحة، ستتوجسُ من ممرض أو ممرضة بناء على لباسهما وملامح وجههما، فتشترط إخراجهما

[10] منشور بالعنوان نفسه ضمن الكتاب الحالي.

لتنفرد بالطبيب وتتكلم معه أم لا، وعمَّ إذا كانت ستمزجُ في حديثها مع هذا الأخير بين الفرنسية والعربية أم ستكلمه بلغة واحدة...

*

*   *

في الرباط، تناولتُ وجبة غذاء مع صديقتي في مطعم مجاور لمحطة الرباط المدينة. أثناء تجاذب أطراف الحديث، أعربتُ لها عن استحساني أول ناطحة سحاب في المغرب في مدينة الرباط بخلاف الشائعات التي راجت في العام الماضي زاعمة أن البرجَ سوف يُشَيَّدُ في الدار البيضاء. سألتْ مندهشة:

- صحيح؟! في أي مكان سيبنى؟ وكيف علمتَ بالخبر؟

- بين العدوتين، فوق مساحة تقتطعُ من النهر، بعد تحريف مساره، أو بإحدى ضفتي النهر... شاهدتُ صورة البرج في لوحة إشهارية منصوبة في عين المكان كتب فيها «أعلى برج في إفريقيا»...

- رأيتُ تلك اللوحة مرارا، والله، خلال تنقلاتي بين سلا والرباط، لكني ظننتُ دائما أنها تتحدث عن القنطرة المعلقة الرابطة بين سلا والرباط، وليس عن ناطحة سحاب... والقنطرة المعلقة، هل دشنوها؟

- منذ زمان!...

لاحقا، بعد حوالي شهرين ونصف، تذكرتُ هذا الحديث، فنشرتُ الإدراج التالي:

> عندَما سيتم إطلاق القطار فائق السرعة ويكتمل بناء أعلى بُرج في إفريقيا، سوف تصبحُ بلادُنا جميلة أكثر، أقصد سوريالية أكثر...

لكن، بعد حوالي سنتين، سافرتُ في القطار السريع إلى طنجة، فغيرتُ حكمي السابق بـ 380 درجة، إذ نشرتُ:

عن قطار «البُراق»

> بدل انتقاد إنشاء القطار الفائق السرعة في المغرب، بدعوى أننا «لسنا في حاجة إليه اليوم، وأن لبلدنا الآن أولويات أهم منه»، يجب قول: «هنيئا لنا بهذا الإنجاز الكبير في مجال النقل، ونطالب بتعزيزه بإنجازات مماثلة في قطاعات الصحة، والتعليم، والشغل، وما إلى ذلك». جربتُ مؤخرا رحلة إلى طنجة على متن البراق، فكان أكثر من رائع قطع المسافة الفاصلة بين عاصمة الغرب وعاصمة البوغاز في 50 دقيقة لا غير، بدل أزيد من أربع ساعات في القطار العادي، ما يذلل عقبة الوقت ويشجع على الحركة. كان رائعا حقا أن يتأتى للمرء أن ينطلق من القنيطرة على الساعة 14 و20 دقيقة، ويصل إلى طنجة ويتجول في الشاطئ وفي

جانب من الأحياء المحيطة بمحطة القطار، ويتناول فنجان قهوة ثم يعود في المساء نفسه، فيصل إلى القنيطرة قبل غروب الشمس!
أتمنى أن تغطي شبكة القطار شرق بلدنا وجنوبه في أقرب وقت ممكن، فيصبح بإمكاننا أخيرا التحرك في ربوع بلادنا في وقت أقصر وظروف أكثر راحة...

*

* *

لم أبدِ أي استغراب من عدم ملاحظة صديقتي لورش بناء البرج مع أنها تعبر القنطرة من سلا إلى الرباط يوميا تقريبا، فالحياة في المدن الكبرى تجعل المرء شبه غائب، فيرى الشيء ولا يراه، أو يراه ويرى شيئا آخر بدله، ثم إن الصديقة ابتليت بمرض وضعها بمحاذاة الموت، وأفلتت بأعجوبة، لكنه ترك فيها ندوبا جسدية، وربما نفسية غائرة، لا يدركها إلا من عاش تجربة مماثلة، ولي في ذلك إدراجات عديدة، منها:

يُمكنُ إدراجُ المَرَض الكبير الذي يعودُ منْه صَاحبه برؤية جدِيدَة لنفسِه وللنّاس من حَوله وللحيَاة عامَّة ضمنَ طقوسُ العبور التي ينتقل بها الفردُ من وَضع اعتباريّ أسَريّ أو اجتماعيّ إلى وضْع آخرَ جدِيد كليّا.

***

يعيشُ الإنسانُ دورةَ الحياة مثل نهر يسيلُ مُندفعا إلى الأمام، ملقيا في جانبيه معا بنفايات ومخلفا وراءه نفايات، همُ المَرضَى والعجَزة والقتلَى والمَوتى... وبما أننا جميعا نهرم ونمرض ونشيخ ونموتُ، فلا مفرّ لنا ولا إفلاتَ من أن نتحول إلى نفاية في مسيرة النوع الطويلة...

***

عجبا لتبختر أفراد النوع البشري وتباهيهم بالصور والهيئات فيما لا يجمع بينهم جوهرٌ واحد فحسب، بل وكذلك يوحِّدُهم مع سائر أنواع الحيِّ: هيكلُ عظام بداخله لحمٌ ودمٌ وأعضاء، وأوعية لاحتضان الطاقة وتجميع النفايات، وقنوات لمد الجسم بالطاقة وأخرى لتصريف النفايات إلى الخارج!

***

الحَياة رقعَة شطرنج نَحنُ فيها بيادقُ، تحَركنا أيادي الصِّغر والكبَر، الصِّحَّة والوَهن، الفرح والتَّرح، السّعادة والشقاء، البقاء والتلاشي... لا تُفلتُ البيدَقَ منا أيّ يدٍ من الأيدي السَّابقة.

حول مائدة الطعام، ترترنا (الصديقة وأنا) كثيرا في تفاهات الحياة، والموت، والمرض، وما إلى ذلك، مما يحوم حول الإدراجات السابقة، ثم سلمتها الطائرين، وانصرفتُ.

*

* *

في الساعة 14 و13 دقيقة، كنتُ في المحطة لكي آخذ القطار القادم من مراكش والمتجه إلى فاس. علا مكبر الصوت مُشعرا بأن القطار سيتأخر بساعة! وكذلك القطار الذي يليه من البيضاء الميناء إلى القنيطرة: سيتخلف بأربعين دقيقة. في المحطة، كانت الشمس حارقة، احتمى جميع المسافرين بالكراسي الموجودة تحت شبه الخيام أو المظلات الحديدية المنصوبة على الرصيف، بل اصطف كل من لم يجد مقعدا وراء كراسي الجالسين إلى أن صار المشهد أشبه بأغنام كاد أن يقتلها الحر فاستظلت بأي شيء يقيها من الشمس، ثم التصقت ببعضها البعض مستظلة ببعضها البعض. لم أجد مقعدا شاغرا. للاحتماء من الشمس، أدرتُ قبعتي الرياضية جهة الشمس، ثم جلستُ في أحد المقاعد الفارغة الكثيرة التي تحاشى المسافرون الجلوس فوقها لأنها كانت في مرمى الحر، ثم استغرقتُ في القراءة. مر الوقت بدون حساب، والشمسُ تحرقني كأني ملقى في فرن...

أخيرا وصل أول قطار. كان قطار مراكش، مع أنه كان سيتأخر عن قطار البيضاء الميناء بثلثي ساعة، حسب تنبيه أغنية المحطة... طقوس الصعود. نجحتُ في العثور على مقعد شغر للتو. كانت المقصورة ممتلئة بأجساد وكائنات متنافرة ألوان الملابس والأذواق وسحنات الوجوه: شبه

فسيفساء لدرجة أني تخيلتُ أننا راكبون على متن قطار تركي أو أمريكي لاتيني: قبالتي مباشرة شابة بدينة سمراء وضعت أحمر شفاه أبداها كمدمنة تبغ، كانت متجهة نحو مدينة سيدي قاسم. عن يمينها شابة أخرى متجهة نحو فاس، مرتدية شبه حجاب، لكنها وضعت على عينيها نظارتين شبيهتين بنظارتي المغني الكوري Psy في فيديو كليبه Gangnam Style، مع فارق أنَّ إطار نظارتي الفتاة كان من النحاس أو مطليا بلون نحاسي، وتخللته شبه حبات عقيق. عن يسار البدينة السمراء شاب حلق رأسه بطريقة جعلته يبدو أدميا برأس ديك، ارتدى هو الآخر نظارتين شبيهتين بنظارتي الفنان الفوضوي مُدمن الحشيش Snop Dogg الذي لا يتورع عن تخليل بعض فيديو كليباته بمشاهد إباحية. استغرق الشاب في التعامل مع شاشة هاتفة الذكي، لكن عندما جاءته مكالمة أخرج من جيبه هاتفا آخر ينتمي إلى العصر الحجري، ثم أجاب منه. لم تخذعني أقنعة الحداثة، إذ تذكرتُ ما كتبته في إدراج سابق:

> لا أفرحُ لرؤية شاب يرتدي آخر تقليعات موضة اللباس الغربية، حليق شعر الرأس على طريقة أشهر نجوم الفن العالمية. فقد ينقلب بين الفينة والأخرى إلى داعشي، أو متدين متزمت في أقل الأحوال... كما لا أسعد رؤية شابة ترتدي أحدث الثياب الغربية، وتتجمل بأرقى العطور والمساحيق. فقد ترتدي بين الفينة والأخرى جلبابا وخمارا وتجر قطيع أطفال، فيتضح أنَّ البنت

الحداثية التي كانت إياها قبل لحظات لم تكن سوى ممثلة في مسرحية..

*

*　　*

عن يمين الشاب جلست سيدة لا يدع مظهرها ذرة شك في أنها كانت ربة بيت محترمة؛ نصف محتجبة ونصف سافرة. عن يساري جلس رجل في منتصف العمر، من خلال نوعية ملابسه وطريقة ارتدائه إياها يسهل تبين أنه ينحدر من مدينة صغيرة. وهو ما تأكد؛ تلقى مكالمة، فاتضح أنه كان سينزل في محطة عين تاوجطات بضواحي مكناس. عن يميني حسناء جميلة غارقة في شاشة هاتفها الذكي، عن يمينها فتاة أخرى تقرأ رواية باللغة الإنجليزية... بجانب باب العربة مباشرة، وقف اثنان: شابة وشاب، بدا من خلال حديثهما أنهما محاميان متدربان. كانت الفتاة متواضعة الجمال بشكل كبير، لكنها اجتهدت في التصريح بكل ممتلكاتها: العلوية، والسفلية، والخارجية والداخلية. لا أعرف لماذا استنتجتُ من حديثهما أنَّ كليهما كان ملقيا شباكه على الآخر، وأن ظاهر حديثهما كان شؤون العمل ومتاعبه، في حين كان مرماه عند الشاب هو قصة البيض والحليب والشوكولاطة وكان قصده عند الفتاة هو ركوب العمارية التي كتبتُ عنها في إدراج سابق:

يُعادلُ ركوبُ «العمَّارية» عند معظم البنات المغربيات، وربما العربيات عامة، بُلوغَ سدرة المنتهى، ولا يهم ما يقع بعد ذلك. التواطؤ هنا قائم بينهن وبين المجتمعِ دون أن يتساءل أحدهما عما إذا كانت جميع الإناث قد خُلقنَ لهذه «العمارية» ولهذا الزواج أصلا ولا عما إذا كانت هذه «العمارية» قد صُنعتْ لتركبها جميع البنات وعما إذا كان الزواجِ أنشئ لجميع الإناث... ومع أن هذه هي حال معظم من لم يركبنَ هذه «العمارية»، ويتزوجن، طوعا أو كرها، فالجميع يتحاشى طرح مثل هذه الأسئلة، لأن حب «العمارية» والتعلق بالزواج أقوى...

هب أنها ركبت العمارية. بعد الركوب، سيتراجع الاثنان بآلاف الخطوات إلى الوراء: هي ستضطر للتراجع عن التصريح بممتلكاتها، في حين سيُلزَمُ هو بإخفاء تعلقها به، لأنَّ المجتمع لا يعترف بمفهوم الزوج الذي كتبتُ عنه في إدراج سابق:

من أسطع علامات غيَاب مفهوم الزّوج le couple في العَالَم العَربي، وعدم الاعتراف به، بل ورُبّما حتّى حظره وطرده، كونُ أوَّلُ مَا يَقوم به الزّوجَان بَعد الاقترَان ببَعضيهما هُو إنجَاب أطفَال، كأنّ هذا الإنجاب طريقة لتحَاشي أن يُنظرَ إلى الاثنين بأنهما اجتمَعا للحب والمُتعَة الجسَدية لا غير، وكأنَّهما، من خلال هذا الإنجابِ، يُخاطبان الجميعَ قائلين: إنَّ هذا [= إنجاب الأبناء

وتربيتهم] هو ما يجمعُنا وليسَ ذاكَ [= الحبّ والمتعة]! وقد يسخر الزوجان اقترانهما بالفعل لأداء هذه الوظيفة حصرا، وهيتَ للكبت والخيانة الزوجية والأمراض والعقد النفسية!

وستكون غرفة نومهما أسطع دليل على ذلك، كما ورد في نكتة شائعة في بعض مواقع التواصل الاجتماعي حول رائحة غرفة النوم بعد الزواج:

«من أول شهر زواج حتى أول سنة: بخور، مسك، عود، عنبر، عطور ياسمين، ورد، عنب، ورز، شوكولا، وشمع؛

من سنة إلى خمس سنوات: بودرة أطفال، زيت أطفال، كريم أطفال، حليب؛

بعد عشرين سنة وما فوقها: فاكس، أبوفاكس، أدوية، زيت خروع، فلاش، كلور، زيت محرك هههههه».

*

*   *

في المنزل، كانت القطط في انتظاري. كعادتها، شمت كل شيء: ساقي الأسفل، حذائيَّ، حقيبتي، ما أخرجته من الحقيبة، راحت خائبة.

على غير العادة، تعذر عليَّ نوم القيلولة، رغم تمددي في الفراش. أكبر الظن بسبب فنجان القهوة السوداء الذي هدأتُ به مزاجي عندما كنتُ جالسا بجانب العجوز الفاسية التي ما إن أنهت مكالمتها حتى فتحت

ما توهمتُ أنه حقيبتها اليدوية، فإذا به مصحف قرآن، ثم استغرقت في قراءته، وهي تخرج من حين لآخر حبات جوز من حقيبتها اليدوية الثانية، فتقرأ القرآن بصوت مسموع وهي تقضم حبات الجوز، في حين كنتُ أنا مديرا وجهي طيلة السفر صوب الممر الذي يتوسط العربة، لا ألتفتُ إلا بين الفينة والأخرى إلى جهة المرأة لأشاهد ما كانت تعرضه النافذة المحاذية لها...

لاحقا، عندما احتدم السجال حول لغة تدريس المواد العلمية بمؤسساتنا التعليمية، تذكرتُ الفاسية العجوز، ثم قلتُ:

- بدل كل اللغط الذي أقامه بعضهم حول لغة التدريس، كان أولى برئيس الحكومة أن يعين لجنة برئاسة الحاجة الفاسية «العرنساوية»، فيُحَلّ المشكل في ربع دقيقة، ويكفي الله المؤمنين شر القتال.



سجينة مرحاض القطار!

خرجتُ اليوم في سفر استغرق مائتي وعشرين كيلومترا ذهابا وإيابا. كل شيء فيه كان «ملخبطا»: الشعور، والمزاجُ، والمشاهد المعروضة على البصر من النافذة: اختلط حابل الحقول بنابلها، على يمين السكة ويسارها، لاحت مرارا مساحات شاسعة مترامية الأطراف من الحقول الصغيرة والمتوسطة، بعضها أخضر يوحي بفصل الربيع، بعضها أصفر يوحي بأن موسم الحصاد قد انتهى للتو، بعضها امتلأ عن آخره بقصب سكر، بعضها بذرة بيضاء في منتصف العمر، بعضها بدأ حرثه للتو. لا أعرف لماذا عندما وقع بصري على النوع الأخير توهمتُ أننا قد غادرنا فصل الربيع للتو، ودخلنا أسابيع الصيف الأولى، فاستغربتُ من استعجال بعضهم حرث حقوله في مستهل فصل الصيف!

في رحلة الذهاب، قبيل الوصول بحوالي أربعين دقيقة، علا صوت خبط بالأيدي داخل إحدى مقصورات العربة التي كنتُ راكبا فيها. توالى الخبطُ غير مصحوب بأي صوت، انتابني فزعٌ، قلتُ قد يكون أحد قطاع الطرق صعد إلى القطار حاملا سلاحا أبيض، وشرع في سرقة المسافرين

أو حتى في ضرب من رفض تسليمه نقوده وهاتفه، وتهديد كل من يهم بالصراخ أو الاحتجاج أو مغادرة مقعده بغرس السلاح الأبيض في جسده. كان لي ألف عذر في أن أفزع ما دامت مقصورتي كانت فارغة إلا مني، لأن اليوم يوم جمعة، وأفضل أوقات السفر عندي هو هذا التوقيت بالذات لأنَّ معظم الناس يفضلون تأجيل موعد سفرهم إلى ما بعد صلاة الجمعة في المساجد، ولكن لصوص اليوم لا يتورعون عن سرقة المساجد أنفسها، فأحرى أن يتهيبوا من السرقة في يوم مبارك. انتهى زمن كان المرء إذا خشي على ماله وضعه وسط مصحف، لأنَّ اللصَّ لا يتردد في سرقة كل شيء باستثناء القرآن الكريم خشية عذاب الله الأليم!...

من أعذار فزعي أيضا تواتر أخبار تعرض مسافرين للسرقة تحت التهديد من لدن عصابات مدججة بالأسلحة البيضاء والحجارة، تربصت أكثر من مرة بسائقي السيارات والشاحنات في عدد من الطرقات، وبركاب حافلات النقل الحضري في بعض المدن، وبمسافري القطار ذات رحلةٍ بين المحمدية والرباط: تنكرت جماعة لصوص في هيأة مسافرين، وما إن ابتعد القطار عن مدينة المحمدية ببضعة كيلومترات حتى أشهر المجرمون أسلحة بيضاء في وجه الركاب وأرغموهم على تسليم أموالهم وهواتفهم وحليهم وسائر ما خف وزنه وغلا ثمنه مما كان بحوزتهم، حتى إذا نالوا ما شاءوا

أوقفوا القطار بالضغط على مقبض الاستغاثة، ثم غادروه وتلاشوا وسط الحقول قبل أن يصل مسؤولو القطار لمعرفة من المستغيث وسبب الاستغاثة!

تواصل الخبطُ، وقفتُ، اتجهتُ صوب مصدر الصوت ملازما منتهى اليقظة والحذر، اتضح أنه كان في أحد طرفي العربة، اقتربتُ منه، وها هو سر الضرب ينكشف:

دخل مسافرٌ إلى بيت النظافة، ثم تعذر عليه فتح الباب، فارتأى أن يستنجد بالمسافرين بتلك الطريقة، هرعتُ إلى الباب، فتحتها، فإذا بالسجين امرأة مسنة ذات سحنة بدوية، لابسة جلبابا أخضر... عدتُ، وقفتُ بباب المقصورة المجاورة للمرحاض مباشرة، كانت شبه مملوءة بمسافرين من الجنسين، وجهتُ لهم اللوم:

- أَوَ لم يزعجكم ذلك الخبط القوي مع أنه كان يصدر من جواركم؟ لماذا لم يقف أي أحد منكم ليتبين سبب الخبط؟ لقد كانت امرأة سجينة داخل المرحاض، بعد أن تعذر عليها فتحه!

وقف بعضهم، أبدى تعجبه، في حين واصل البعض الآخر جلوسه، وكان القاسم المشترك في رد فعلهم جميعا هو: فغر الأفواه والنظر إلي في ذهول...

حاولتُ فهم موقف ركاب المقصورة، لم أفهم منه أي شيء:

يمكن إدانة لامبالاة الناس بما يحدث من حولهم، وهو سلوك بدأ ينتشر في مجتمعنا، وأحدث مثال عنه لامبالاة مسافري حافلة الدار البيضاء بمشهد اغتصاب فتاة من لدن شباب مراهقين داخل حافلة للنقل الحضري على مرأى ومسمع من كل من كان داخل المركبة، لكن يمكن اعتبار هذه اللامبالاة أحد مؤشرات بداية انتشار النزعة الفردية في مجتمعنا. فلكل واحد عذره ومن حقه أن يخشى على نفسه، وبذلك تكون بداية انتشار قيم الفردية في مجتمعنا أمرا محمودا في نهاية المطاف ومؤشرا على بداية تطورنا وتحضرنا بمعنى الكلمة، لاسيما أن الفرد عندنا مطحون ومُحاصر اجتماعيا وعائليا، وما إلى ذلك، كما كتبتُ في إدراج سابق:

> الفردُ أَسَاسُ المُجتمع ونواتُه وأَدَاةُ تقدّمه وتحرّره وَتغييره، لا يرى النُّورَ في الأسْرَة العَربية إلا صُدفةً، أو استثمارًا اقتصاديا وسِيكوُلوجيا، ومن ثَمَّة فهو مُنعدمُ الوُجُود، مَسْلوب الحرّية والإرادَة، مُجرَّد حبَّة في طاحُونَة التقليدِ وإعادَة الإنتاج الرَّهيبَة، الفائقة الطَّحْنِ والمُتعدّدَة الأرْحية.

ولكن باستحضار المآسي والمشاكل، بل وحتى الكوارث، التي استفحلت جراء انتشار وسائل الاتصال الحديثة، وفي مقدمتها الهاتفان الثابت والمحمول، يبدو أن هذه التقنيات تساهم في إعادة إنتاج رقابة الجماعة على الفرد، بل وتمد الجماعة بوسيلة رهيبة لتشديد الخناق على الفرد، فتساعد، على سبيل المثال، على استمرار العائلة الموسَّعة بشكل جديد، افتراضيّ، حيث

يُسَهِّل الهاتف دوام اتصال مجموع أفراد العائلة، يوميا ببعضهم البعض، مع ما يوازي ذلك من رقابة، وممارسة للسلطة والتسلط، وتدخل في الشاذة والفاذة من حياة الفرد، وخصومات، وصراعات، وما إلى ذلك. ولا ينفع الفرد أن يغترب ويستقر في بلد آخر يبعد عن وطنه بمئات آلاف الكيلومترات، لأن وسائل الاتصال الجديدة تنقل الكلام والصوت والصورة بسرعة الضوء فتحاصره مكالمات الأب، والأم، والأخ، والأخت، والعم، والعمة...، هذا يملي، وذاك يأمر، هذا ينهى، وذاك ويحظر.. ما جعلني لا أخلص إلى أي نتيجة سوى اعتبار عدم اكتراث أولئك المسافرين لاستغاثة المرأة حبيسة المرحاض كان مجرد واحدة من دزينة «اللخبطات» التي عمتْ سفر هذا اليوم الذي كان كل شيء فيه معوجا، ولم يكن باعوجاجه سوى شريط مصغر يلخص على نحو ما مجمل ما يجري في مجتمعنا حاليا بالفعل! لا قيم جماعية نبيلة ولا أخرى فردية مُحرِّرة، لا تقليد ولا حداثة ولا هم يحزنون!

الخروج إلى المستنقع

سافرتُ اليوم على متن القطار. كان كل شيء فيه «ملخبطا» إلى حد الشعور بالتقزز والغثيان، بدءا من تأخر القطار عن موعد إقلاعه بحوالي 40 دقيقة، دون إشعار ولا سابق إعلام، مما تسبَّبَ في تأخري عن الموعد الذي كنتُ مرتبطا به، مرورا باكتظاظ القطار عن آخره بالركاب، وكان قادما من فاس، فكان لابد من السفر وقوفا على القدمين، وصولا إلى تصرفات بعض الركاب المغرقة في الأنانية واللامبالاة:

تأتي هذه المرأة البدينة، كأنها خرجت للتو من حظيرة تعليف أبقار، وتشاهد بأم عينيها أن ممر العربة ممتلئ عن آخره بالمسافرين الواقفين، ومع ذلك تصر على المرور بحثا عن مقعد شاغر لكي تجلس فيه، لم ينفع أن قال لها أكثر من مسافر ومسافرة:

- جميع المقاعد مملوءة! لو كانت في المقصورات مقاعد شاغرة لما كنا واقفين!

تتجاهل المرأة كلام الركاب، تمضي إلى أقصى طرف العربة، وهي تسحق بجسدها البدين الركاب الواقفين، تفتش المقصورات واحدة واحدة، لا تعثر على مقعد شاغر، فتعود مجددا وهي تدهس الركاب من جديد...

من غمرة زحام أحد طرفي العربة، يخرج رجلٌ مُلْتَحِ، يرتدي قبعة بيضاء كقبعة الحجاج، بدينٌ هو الآخر كثور مصارعة، ينادي أحد معارفه في الطرف القصي الآخر من العربة:

- يا فلان! يا فلانٌ!

يجيبه الشخص الثاني، ثم يستغرقان في الحديث بصوت مرتفع. أمام تعذر سماع ما يقول أحدهما للآخر بوضوح، لبعد المسافة الفاصلة بينهما واكتظاظ الممر بالراكبين، وجلبة القطار الماضي بسُرعة، يطلب الشيخ البدين من مخاطبه الشاب:

- انتظر، ها أنا قادمٌ!

ثم يهرولُ نحوه، مارا من بين المسافرين بسرعة وبقوة في آن واحد، دون أن يكترث إلى أنه بمروره المتوحش إنما يسحقهم سحقا. يصل إلى الجهة الأخرى، يتبادل الاثنان أطراف الحديث هنيهة، ثم يعود الحاج العجوز إلى مكان وقوفه الأول، في الجهة القصية الثانية من العربة، بالطريقة نفسها التي عبر بها إلى رفيقه قبل قليل، معيدا نشيد السحق والدهس والرفس...

يُخرِجُ هذا الشاب الواقف بجانبك هاتفه الذكي، يطلبُ رقما، توحي طريقة كتابة الشاب وملامح وجهه بأنه يتباهى بمكالمة شخصية مهمة، فإذا بهذه المكالمة في غاية التفاهة والرَّداءة، مُلوِّثة لآذان السامعين:

- ألو عمي! لا بأس عليك؟ عرفتني ولا لا؟ أنا ابن أخيك فلان..

سألتُ الشابّ في نفسي:

- أن تسأل صاحبك عما إذا كان قد عرف صوتك أم لا، فهذا دليل على أنك ربما تكلمه للمرة الأولى! لا يُعقل ألا يعرف صوتك إن كنت تهاتفه باستمرار. لماذا تظاهرتَ قبل قليل بأنك ستكلم شخصية مهمة، وتباهيتَ بمعرفتك إياها؟!

واصل الشاب مكالمته:

- كيف حالك في السجن؟ إوَ أنت ارتكبتَ كذا وكذا (= ضرب وجرح وسرقة!)

- ...

- هل يسمح لكم مدير السجن بالخروج إلى الساحة أم لا؟

- ...

- كيفاش؟ نجي نونسك؟! الله ينجيني منكم ألحبَّاسة (= وقاني الله من معاشرتكم، أنتم معشر السجناء)

- ...

- أنا دابا غادي «ديبلاصمون» déplacement لواحد الشركة.

فجأة انكشف لغز المكالمة العجيبة: لم يكن الشاب ليُجريها لولا الفتاة الواقفة بجانبه. الجملة الأخيرة (أنا مسافر إلى إحدى الشركات في مهمة) كانت موجهة في الحقيقة للفتاة وليس للعم السَّجين والمعلومة نفسها كانت طريقة في تقديم الشاب نفسه للبنت وإغرائها، قال لها ضمنيا:

- لستُ عاطلا. أزاول مهنة هامة تتطلب مني التنقل كثيرا لقلة من يزاولونها!

وباختصار، اتضح أنَّ الشاب كان يريد أن «يصطاد» البنت الجميلة، فتفتقت عبقريته عن هكذا مدخل لمراودتها...

سلوك صاحبنا الشاب نموذج حي لأحد القواسم المشتركة بين الإنسان والحيوان: يحدثُ، على سبيل المثال، أن تناولَ القطط الصغيرة الأكل فتأتي أمهم، وبدل أن تفسح لهم حيزا للأكل، أو تعطيهم الأسبقية، فتنتظر ما قد يفضل عنهم ثم تأكله... بدل ذلك، تقصد الصحن، وتلتهم كل ما فيه، دون أن تفطن إلى أنها بسلوكها ذاك قد جوَّعت صغارها! أو يحدث، على سبيل المثال أيضا، أن تكون القطة منشغلة بإرضاع أبنائها أو تنظيفهم، فيأتي القط الذكر، ويقفز فوقها ابتغاء التزاوج معها!... ما قام به الشاب لا يختلف في العمق في شيء عن هذا!...

*

*   *

في ختام رحلة العودة، كانت أم المفاجآت في الانتظار. بباب الخروج بمجرد ما وطأت قدمي بهو المحطة تلقيتُ ضربة قوية على صدري إلى أن ترنحتُ من الألم. استجمعت كل يقظتي لمعرفة مصدر الضربة، فإذا بصاحبها شابٌّ قوي منطلق كثور مصارعة خرج للتو من الحظيرة إلى حلبة المنازلة. انطلق الشاب بكل ما أوتي من قوة وسُرعة لكي يُدركَ القطار الذي نزلتُ منه للتو، فلا يفوته. كان هدفه الأول والأخير هو ركوب القطار بأسرع وقت، وبأي ثمن، دون أي اعتبار لكيفية الوصول. كأنَّ كل ما في العالم اختُصرَ في وجوده هو والقطار لا غير! أن يدهسَ المسافرين الخارجين أو يصطدم بهم أو حتى يُسقط أحدهم، كما كاد أن يفعل بي قبل قليل، فذلك لا يهم. المهم هو أن يُدرك القطار ويصعده، ومن بعدها الطوفان! وقفتُ، التفتُّ نحوه، التفت هو الآخر إليَّ، قال مواصلا جريه:

- اسمح لي أعمِّي!

ثم صعد إلى القطار!!

تخيلتُ نفسي أقول له وأنا أصفق بيدي تصفيقات حارة:

- هنيئا لك، هنيئا لك!

ثم واصلتُ سيري نحو باب المحطة الرئيسي.

بتُّ أقتنع يوما عن يوم أن الخروج إلى الفضاء العام أصبح بمثابة سقوط في مستنقع، لذلك بدأت أفكر جديا في ملازمة البيت وعدم مغادرته إلا للضرورة القصوى، رغم ما سيقتضيه ذلك من تضحية بأمور في مقدمتها حصة المشي اليومية التي فرضها عليَّ الطبيبُ... فلا أخرج منه بتاتا إلا للتسوق، والعمل، والمستشفى، والمطعم، والصيدلية...

*

* *

لاحقا، سأفطن إلى أني كنتُ طرحتُ السؤال نفسه في إدراج «تبني قطة» قائلا: «أيجدر بالمرء أن يلازم بيته ولا يخرج أصلا؟ أن يلوذ بالصمت الأبدي، ويعيش كجثة محنطة؟».

بعد ذلك، بحوالي عام، تذكرتُ أني قرأت في مستهل تسعينيات القرن الماضي كتابا ألفه أحدهم في القرن الرابع الهجري في مديح العزلة والحث عليها، فنشرت الاقتباسات التالية منه:

«الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.»

«صُم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة، وفرّ من الناس فرارَك من الأسد.»

«هذا زمان السُّكوت ولزوم البيوت.»

«ما العيشُ إلا القفل والمفتاح، وغرفة تصفقها الرياح، لا صخب ولا صياح.»

«قال الفضل رحمة الله عليه: إني لأتمنى المرض، قلت له: لم ذلك؟ قال لئلا أرى الناس.»

«... قال أبو سليمان (...) أتيت عوانة بعد ما كف بصره، فسلمتُ عليه وسألت به، ثم قلتُ له: (...) لم يسلب [الله] عبدا شيئا إلا عوضه مكانه شيئا آخر هو خيرٌ منه، فما الذي عوضك من بصرك؟ قال: الطويل العريض يا بغيض، فقلتُ: ما هو؟ قال: ألا أراك ولا يقع بصري عليك»[11].

*

*   *

لماذا لم تفض كتب «الآداب» إلى تربية مجتمعية؟

سؤال يقتضي بحوثا رصينة، إذا كانت هذه الإجابة ممكنة أصلا ما دمنا لا نتوفر على إحصائيات دقيقة حول مجتمعاتنا في

---

[11] أبو سليمان البُستى (317-388 هـ)، العُزلَـة، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البغدادي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1985.

الماضي ولا على دراسات خاصة بالحياة اليومية لأسلافنا في هذه الفترة أو تلك على غرار ما نجد في سلسلات بعض دور النشر الغربية. مقابل غياب هذا وذاك، هناك شيئان يمكن معاينتهما في الوقت الراهن: حضور هذه التربية عند مؤلفين عرب قدماءً كثُر، وغياب شبه تام لها في السلوك اليومي لشرائح اجتماعية واسعة.

يتجلى الحضور في مصنفات القدماء التي كانوا يصدرونها بلفظة «آداب»، فخصصوا رسائل لآداب الطعام وآداب النكاح، وآداب الجنائز، وما إلى ذلك من سائر السلوكات التي يمارسها الفرد داخل بيته وداخل المجتمع. ولهذه الكتّاب نظائر في الغرب، انتشر تأليفها في عصر التنوير، حسب الفيلسوف الفرنسي إيف ميشو[12] Yves Michaud Yves Michaud. فقبل هذا التاريخ، حسب ميشو، كان سواد الأوروبيين شبه همج، يأكل الفرد منهم واللعاب أو المخاط يسيل من أنفه، لا يعرف كيف يمسك الطعام، لا تجيد ربة البيت التصرف ببقايا المأكولات، وما إلى ذلك، فخصصتْ كتبٌ عديدة لمثل هذه المواضيع أعطت بدون شك

[12] في محاضرة له تحت عنوان La philosophie des lumières، ألقاها بجامعة كل المعارف Université de tous les savoirs يوم 10 مارس 2008، وتسجيلها متوفر في موقع الجامعة بشبكة الأنترنت:

https://www.canal-u.tv/video/universite_de_tous_les_savoirs_au_lycee/la_philosophie_des_lumieres_yves_michaud.3601

ثمارها على المدى الطويل، متمثلة في رقي سلوك السواد الأعظم من أفراد معاصرينا الأوروبيين، في حين لا نجد أثرا لتصنيفات قدمائنا في الموضوع نفسه في معاصرينا من أفراد أوطاننا العربية، ما يطرح سؤال: ما السبب في ذلك؟ هل يعود إلى قلة شيوع القراءة في مجتمعاتنا، وندرة رواج الكتّاب أم يعود إلى أنَّ السواد الأعظم من مجتمعاتنا كان يقطن في البوادي، ما يحمل على أنَّ تأثير تلك الكتب كان محصورا في دوائر الحواضر الضيقة؟ والغريب أن محتويات من بعض الكتب التراثية، حكايات وأحاديث نبوية وأساطير وخرافات بالخصوص، تروج اليوم على ألسنة العامة وبعض «الحلايقية» (= الحكواتيين) محرَّفة دون أن يُعرف كيف انتقلت من نطاق المكتوب إلى حقل التداول الشفهي، ولا لماذا نجحت هي في هذا الانتقال ولا تفلح فيه مضامين مصنفات الآداب والتربية؟ وما يقال عن الآداب، يصدق أيضا على التربية الجنسية التي خلف فيها العرب تراثا يحظى باحترام وتقدير عالميين، حيث ترجمتْ بعض مصنفات «آداب النكاح» و«علومه» إلى عدة لغات، مقابل غياب وتغييب كليين لبصمات تلك الكتب في المجتمعات العربية الراهنة، وهو ما أثارته إحدى الروايات ساخرة:

> «ما أرى هذه الكتب إلا بلاغة أرستقراطية لبستْ قناعَ التربية الجنسية للكشف عن تخمتها الجنسية في وسط يغور فيه الكبت الجنسي حتى النخاع، وإلا لماذا لم تحرك

هذه المؤلفات في المجتمعات العربية ساكنا طيلة هذه القرون؟! فالتربية الجنسية في مجتمعاتنا تكاد تساوي الكفر والإلحاد. إني لأمضي أبعد وأفترض أن مثل هذه الكتب هو ما ساهم في تشديد الرقابة على النساء وتحصينهن بالحجب والأسوار والأقفال، فهي نبهت العامة والفقراء والمحرومين إلى ما يفعله بنسائهم وبناتهم الخاصةُ والأثرياءُ وذوو السلطات والمال والجاه والنفوذ. ابعد عني هذه الترهات! ابعد عني هذه الأباطيل!»[13].

مظاهر الغياب حاليا عديدة وشائعة، بحيث لا يكاد خروج المرء إلى الساحة العمومية أن يخلو منها مرة واحدة: في سيارات الأجرة، في المخابز، في الأسواق، في الإدارات العمومية، في الاجتماعات العامة واللقاءات الخاصة، في علاقات الصداقة...، وما إلى ذلك.

كنتُ كتبتُ في إدراج سابق:

التربية بمثابة جسد يمشي بساقين، إحداهما المدرسة والثانية الأسرة، لذلك قد لا تُفضي كل محاولة لإصلاح التعليم في بلدان الشرق الأوسط وإفريقيا إلى أي نتيجة ما لم يُواكَب تجديد البرامج والمناهج الدراسية وتوفير البنية التحتية للمؤسسات التعليمية وما إلى ذلك،

[13] قنديل سلامات، امرأة من سلالة الشياطين (رواية متوفرة في شبكة الأنترنت)، ص. 23-24.

> بمتابعة حُكومية لكل طفل من أطفال هذه البلدان، منذ ولادته، بتفقد ظروف معيشته داخل البيت، والرعاية المادية والمعنوية والنفسية التي يشمله بها والداه، وما إلى ذلك، على غرار ما يتم في البلدان المتقدمة... قد لا تنجح أي محاولة لإصلاح التعليم، لأنَّ إحدى ساقي الجسد سوف تكون آنذاك مبتورة.

باستحضار البعد الاجتماعي للتربية، ربما تعين تنقيح هذا الإدراج بحيث تصبح التربية - عندنا - بمثابة جسد يسير بثلاثة سيقان... وإذا كانت البقية معروفة، فالسؤال هو ما السبيل إلى جبر الساق الثالثة المبتورة في مجتمعاتنا الراهنة؟؟

مرضى استثنائيــون

رزتُ طبيب القلب اليوم، من أجل الفحوص الروتينية وأخذ وصفة الدواء المعتادة، مرة كل ثلاثة أشهر، وإجراء الفحص بالأشعة على القلب واختبار المجهود البدني السنويين، فإذا بالمصحة، خلافا لسائر الأيام، ممتلئة عن آخرها بزوار جُدد، بل من نوع خاص، ما جعل الانتظار طويلا وطويلا، فاتفقنا على الاكتفاء بالفحوص الروتينية ووصفة الدواء، وتأجيل الأشعة واختبار المجهود إلى يوم الأربعاء المقبل. وقد عُدتُ بنصّ في ذهني لنقل ما شاهدتُ، لكن التعب حال دون تحريره هذا المساء. النص يقترح تفسيرا متخيلا لاكتظاظ اليوم، وهو عقاب خرفان عيد الأضحى لمن أكلوها، فمرَّضَتهم جرَّاء أكلها، وعقابها لي بسبب ما أدرجتُه يوم العيد حولها، فجعلت انتظاري يطوووول، كما يقدمُ زيارة الطبيب باعتبارها شبه طقس ديني، يتألف من مجموعة شعائر تتغيا كلها أمرا واحدا: لقاءُ من بيده الثواب والعقاب، وهو الطبيب، ويقترح تأملات في معنى الحياة والموت من خلال وصف بعض أصناف المرضى ممن رأيتُ هناك...

*

*   *

عدتُ للتو من المستشفى بعد زيارة طبيب القلب من أجل الخضوع للمراقبة الروتينية المنتظمة وأخذ وصفة الدواء، كما دأبتُ على ذلك مرة في كل ثلاثة أشهر منذ نوبة القلب المروعة التي أسقطتني قبل أربعة أعوام. خلافا للمعتاد، كان قسم أمراض القلب والشرايين ممتلئا عن آخره بمرضى ليسوا من النوع الذي يرتاد هذا المكان عادة. ففي باقي أيام السنة، يكون معظم الزوار، إن لم يكونوا كلهم، من سكان المدينة؛ يبدو ذلك من ملامح وجوههم، طريقة لباسهم، تسريحة شعرهم، نظاراتهم، حقائبهم، لوازمهم، وما إلى ذلك. أما اليوم، فقد ازدحم المكان بنساء ارتدين كسوات الجنوب، وأخريات جلابيب وفولارات، ورجال بعضهم ارتدى قبعات مستديرة بيضاء من نوع الطرابيش التي يوزعها الحجاج العائدون من الديار المقدسة على الأطفال والمباركين، في القرى والمدن الصغرى، من باب اقتسام بركة الحج مع الآخرين، لكن أيضا من باب الدعاية لأنفسهم بأنهم قد أدوا شعيرة الحج، في حين لم يول قسمٌ آخر من المرضى أي اهتمام لهندامه: السروال بلون والقميص بلون آخر متنافر مع الأول، نصف اللباس كلاسيكي ونصفه عصري، حذاء رياضي وبنطلون تقليدي، وما إلى ذلك، مما يفيد أنهم إما أشخاصٌ من طبقة اجتماعية متواضعة جدا أو قادمون من

مُدنٍ أخرى لا ينيط سكانها عناية للباس المرء قدر ما يولونها لما يتحلى به من أخلاق واستقامة أو ما يملك من مال وجاه.

والسبب في قدوم زوار اليوم الاستثنائيين، بهذه الكثافة، هو تهافتهم على أكل لحم الخروف في العيد الأضحى مثل تهافت العديد من المرضى على صيام رمضان على الرغم من تحذير أطبائهم من العواقب الوخيمة للصيام على من يعانون من عدد من الأمراض المزمنة. والنتيجة، في الحالتين، هي كثرة عدد الوفيات في هذا التوقيت من كل عام واكتظاظ المستشفيات والمصحات وعيادات الأطباء بضحايا الشعيرتين القدسيتين...

استغرق عدد من المرضى في أداء أشكال من شعائر الانتظار، هذا يحمل سبحة في اليد مستغرقا في التسبيح، وتلك تغط في النوم فوق مقعد، ذاك غارقٌ في شاشة هاتفه الذكي، أخرى تصلي فوق سجاد، آخر يطلق من هاتفه الذكي شريط وعظ وإرشاد مع الحرص على إسماعه للجالسين، هذا يروح إلى المرحاض، تلك تخرج إلى ساحة المستشفى لالتقاط الهواء مدة من الوقت ثم تعود... بين الفينة والأخرى، تتوالى رنات الهواتف، فيتضح أن رنة هذا صوتُ آذان، ورنة ذاك مقطعٌ من درس وعظ وإرشاد، ورنة الآخر آية قرآنية بصوت مقرئ جميل... ينطلق آذان صلاة العصر من أكثر من هاتف، يفرش بضعة مرضى، ذكورا وإناثا، سجادات فوق الأرض، ويؤدون صلاة العصر فرادى وسط القاعة. وبإضافة لوازم السفر والحقائب

الصغيرة، والأحذية المبعثرة هنا وهناك في القاعة، إلى اللباس التقليدي جدا، كان يكفي بسط حصير أو سجاد كبير فوق الأرض، وإحضار تنور وكير و«بقراج» و«براريد» شاي وكؤوس وصينيات، فيتحول الفضاء إلى ضريح ولي صالح أو حفل عرس في إحدى البوادي مع أن الفضاء فضاءُ مستشفى جامعي دولي!...

لمواجهة هذا الجيش العرمرم، جندت المصحة طبيبا إضافيا، لم يسبق لي أن رأيته من قبل سوى مرتين: واحدة في السنة الفارطة عندما أجريت الكشف السنوي بالأشعة عن حالة القلب، إذ هو من تولى عملية التصوير والقراءة السيميولوجية، والثانية قبل بضعة أعوام عندما مكثت حوالي أسبوعين في قسم العناية المركزة على إثر نوبتي القلبية، حيث كان الطبيبان معا يتناوبان على تفقد الحالة الصحية لمرضى هذا الجناح من المستشفى على مدار الساعة؛ مرة يأتي هذا، فيراقب الأجهزة، ينصح بهذا الدواء أو ذاك، وما إلى ذلك، وتارة يأتي ذاك: وبخلاف هذا الطبيب الذي يميل وجهه إلى العبوس، ويُسرف في تقتير الكلام مع المرضى، يمتاز طبيبي بحرارة مصافحة المريض وحفاوة استقباله وحسن وداعه، ودفعه إلى الكلام، مع الإنصات إليه جيدا، ما يترك الانطباع لدى المريض بأنه أحسن معرفة بحالته من الطبيب، وأن هذا الأخير لا يعدو مجرد مرشد لعلاقة المريض بجسده. ولعل هذا السلوك هو ما جعل الطبيب الثاني يحظى بسمعة وشهرة

كبيرتين في مدينة الرباط، بل لا يستبعد أن تكون قد انتقلت إلى مدن أخرى، وأنَّ هذا الانتشار أيضا هو ما يفسر امتلاء المكان عن آخره اليوم بالزائرين الغرباء... لا أفاضلُ هنا بين الطبيبين.

قلتُ لأحد أصدقائي:

- الرجلان معا على اتصال دائم بالموت، وقد يكون دوام اللقاء بالمحو هو ما جعل أحدهما يلوذ بالتجهم والصمت والآخر يلبس رداء الزهد والحكمة والابتسامة الدائمة التي قد تخفي وراءها سخرية كبيرة من الحياة!، قلتُ

ذاك ما قلتُه له عندما فسر حظوة الطبيب الأول ونجاحه في التحبب إلى المرضى بكونه ابن عائلة كبيرة. حكمَ صديقي على الطبيب بناء على اسمه العائلي الذي يوحي بأنه من إحدى العائلات الرباطية العريقة المنحدرة من الأندلس التي تحمل أسماء مثل بيرو Pirou، وتريدانو Tredano، ومولين Mouline، وبالامينو Palamino، وغيرها، في حين عارضتُ هذا التفسير اعتبارا إلى أنّ الاسم لا يصنع صاحبه، بل المجتمع هو الذي يصنع الأسماء، وأنَّ الأسماء لا علاقة لها بمسمياتها في أحيان كثيرة جدا، إذ، على سبيل المثال، كثيرة هي أسماء أعلام فرنسية شهيرة في حقول الأدب والعلم والفلسفة والفن تحمل بصمات ما لا صلة له بما يزاولون، مثل «الخباز Boulanger»، و«البناء Masson»، و«الراهب Lemoine»، و«الحلاق

Barbier»، وما إلى ذلك. ولكن لمجتمعنا رأي آخر، تذكرتُ طالبة الماستر التي جنى عليها اسمها الشخصي، كانت جميلة جدا، وكان بإمكانها أن تمضي بعيدا في دراستها لولا اسمها الذي حطمها، فآل بها الأمر إلى أنها أصبحت مجرد مربية أطفال في إحدى الحضانات، رغم حصولها على شهادة الماستر. تتعرض لأبشع استغلال. ذنبها الوحيد أنَّ اسمها الشخصي هو «طامو»، فكان الفصل يضج بالضحك كلما ناداها أستاذٌ أو أستاذة!...

*

* *

ولكن يبدو أن مجتمعنا اليوم بصدد التكفير عن مثل هذه الزلات، من خلال قلب الأمور رأسا على عقب، كما سبق أن لاحظ ذلك الصديق Simo Paris، في إحدى تدويناته، إذ كتبَ:

> «الأطفال ممتعين اليوم مع رأسهم. احنا الجيل ديالنا كان كلنا اسميتنا محمد واحمد وعبد الله وفاطمة والزهرة وخديجة، كان الا عيط الاستاذ محمد القسم كله كيوقف. أما دابا فين ما كانت شي مشعككة كتجبر سميتها روميساء وريهام ووديان، وفين ما كان شي جن هاز قصبة وكيسلخ الأقران ديالوا كتجبرو سميتو معصب وصهيب ولؤي وفارس».

لاحقا، بعد حوالي عام، نشرتُ حول ظاهرة تحول الأسماء في المغرب:

يوازي ترييف المدن العربية، جراء كثافة نزوح سكان البوادي إلى الحواضر، ترييف عدد كبير من الأسماء الشخصية، بسبب تزايد حملها من لدن أبناء وبنات سكان البوادي وأحياء الصفيح: فبعد أن كانت أسماء مثل رقية، والضاوية، وحادَّة، والشعيبية، وطامو، والجيلالي، والميلودي، وبوغالب، وبوشعيب، وما إلى ذلك، علامات على أصل اجتماعي وجغرافي معينين، تزايد نزوح أسماء مثل سِهام، وسندس، ونرجس، وإلياس، وياسين، وسمير، إلى أسر البوادي، فأصبحت بمثابة دوال متنافرة مع مدلولاتها...

ومن تعقيبات بعض القراء عليه:

«إذن هو تمدين للأسماء» (عبد الإله مغير).

«دمقرطة الأسماء الشخصية هههههه» (سعيد الوردي).

«لا علاقة لي بهذه الأسماء. أنا أعرف: الطام في الأصل فاطمة، وفضول = فضيلة، وطهور = الطاهر، وزينب، وبتول، وزهور، وكنزة، وغيرها من الأسماء التي كانت مقترنة باسم جدتي، وجدة جدتي، وخالتي وعمتي. لا يرد عندي ضاوية ولا حادة..» (لطيفة علوي حليم).

«هو نوع من التصالح الطبقي الذي نتوهمه.» (عبد الله بريمي).
أحد تطبيقات العولمة منزوعة المحتوى الحداثي.»
(عبد الحميد العابد).

*

*   *

قلتُ لصديقي:

- لا أجد تفسيرا لطيبوبة ذلك الطبيب ولطفه، وحسن معاملته لجميع المرضى، بصرف النظر عن جنسهم وسنهم ووضعيتهم الاجتماعية، إلا في شيء واحد، وهو أنه تماسَّ يوميا مع الموت إلى أن نفذ إلى لب الحياة وجوهرها، فأصبح حكيما، فضلا عن كونه طبيبا!

وبالفعل، فكل من يدخل قسم العناية المركزة لأمراض القلب والشرايين على إثر نوبة حادة يكون حظه في الخروج حيا متساويا تماما مع حظ خروجه ميتا: 50% احتمال أن يعيش و50% احتمال أن يموت، مما يجعل الموت حاضرا يوميا...

عندما تذكرتُ ذلك الحوار، في غمرة الانتظار وتأمل ما يجري في المكان، خامرني إحساسٌ حقيقي بأنَّني كنتُ إما داخل ضريح للتبرك بولي صالح أو في معبد سحيق لزيارة كبار الكهنة، بل وحتى في مقام حشر

حقيقي، لاسيما أنَّ عجوزا من النساء الجنوبيات كانت جالسة في كرسي يقع قبالتي تماما، انفردت بحجب وجهها بطريقة غريبة جدا:

فبدل أن تلف رأسها بـ «الشَّال» وتترك ما فوق أنفها إلى أقصى أعلى جبينها مكشوفا، كما فعلت باقي النساء الجنوبيات الحاضرات، زادت هي على اللفة السابقة لفة أخرى عمودية حول القسم المكشوف من وجهها، وبذلك صار ما يُرى ليس النصف الأعلى من وجهها، بل ربعه الأيسر لا غير، وبالتالي فقط عينٌ واحدة. وللمرء أن يتصور هذا المنظر الرهيب: أن يبصره شخص آخر وهو يحجب عينه الثانية، حاجبا بذلك رؤية حوار العينين المبصرتين! فبحركات العينين والحاجبين ندركُ عادة أحاسيس محاورنا أو جليسنا، بل وقد نقرأ أفكاره ونستبطن نواياه! ها هي «عين إله» أخرى تراقبُ حركاتي وسكناتي. لماذا؟ ما سرُّ تلك النظرات؟ ماذا تخفي ما وراءها؟ هل يُواكبُها حديث صامتٌ داخل المرأة؟ ذلك ما لن أعرفه إلى الأبد. إذا كان لابد من المجازفة بصياغة افتراض، فأغلب الظن أنها ربما حسبتني يهوديا، لأني كنتُ الزائر الوحيد الذي يرتدي البرنيطة التي لا زال سكان بعض القرى يحسبون لباسها حصرا على النصارى واليهود! وبقدر ما استغرقت المرأة في محاصرتي بنظراتها استغرقتُ في تخيل ما قد تكون فعلته يوم عيد الأضحى بكبشها، تخيلتُ أنها قطعته بمنتهى الوحشية كما قطعت الزوجة المراكشية جثة زوجها بمساعدة والدتها العجوز التي اقترحت

التخلص من جثمان الهالك بتلك الطريقة البشعة، ثم عبأت المرأتان اللحم المقطَّع في أكياس بلاستيكية، وألقتاه في إحدى ضواحي المدينة الخالية، قبل أن تكتشف الشرطة جريمتهما ويفرد لها برنامج «مسرح الجريمة» التلفزيوني حلقة خاصة... فسَّر أحد أهل الاختصاص في علوم الجريمة ممن تدخلوا في تلك الحلقة تصرف المرأة العجوز بما فحواه:

> - أمام ورطة ارتكاب جريمة القتل، وضرورة التخلص من الجثة بأسرع وقت ممكن لإخفاء معالم الجرم والإفلات من العقاب، استعانت العجوز بمخزونها الاجتماعي والثقافي، فلم تجد وسيلة أنجع من معاملة جثة القتيل معاملةَ خروف العيد الأضحى!

شاطرتُ هذا التفسير، ومضيتُ أبعد، استنادا إلى شيوع طقوس التقرب إلى الآلهة بقرابين بشرية تُذبحُ في العديد من المجتمعات القديمة، فافترضتُ أن عيد الأضحى قد يكون تخليدا لتلك الذكرى القديمة، فكتبتُ الإدراج التالي:

> قدْ يكون عيدُ الأضحَى تخليدًا لذكرَى سَحيقة تمَّ فيهَا استبدَال القربان البشَري بقربان حَيوانيّ، فشكلَ ذلكَ الاستبدَالُ/الاكتشافُ وحدَهُ خطوَة هَائلة فِي دَربِ انتقال الإنسَان مِن «الطبيعَة» إلى «الثقافة»، ومنَ «الهَمجية» و«البدائية» إلى التحضّر والتمدّن، وأحد الفصول الهامَة في انفصال الإنسان

عن الحَيوان، وخرُوجا منَ الوَحْدة والائتلاف إلى التمايُز والتعدد والاختلاف.

*

*   *

حاولتُ مرارا أن أستغرق في القراءة، كما أفعل عادة في كل زيارة لهذا الفضاء، أخرجتُ ما كان بحوزتي من كتب الواحد تلو الآخر، لكن دون جدوى... ما كان يجري كان يوحي بأن اليوم يوم حشر حقيقي:

قبل أن تدخل إلى قاعة الانتظار، يجب عليك أن تمر من شباك الأداء بطريقة طقوسية: يجب عليك أن تستلم ورقة رقم ترتيبك من آلة أوتوماتيكية، ثم تدخل إلى قاعة شبابيك الأداء، وتجلس إذا تأتى لك العثور على مقعد شاغر، وأن تلازم يقظة مزدوجة بالأذن والعينين معا: الأذن لتسمع رنين جرس انتهاء دور هذا الزائر أو ذاك، العين الأولى لتشاهد رقم الزائر الموالي في شاشة الإلكترونية المعلقة في الجدار، والعين الثانية لترى ما يجري في الشباك، إلى أن يحين دَورك، فتؤدي مبلغا يؤهلك للعبور إلى قاعة انتظار الطبيب، كما يؤدي زائر الولي الصالح مقابل التبرك بالضريح للشرفاء القائمين على تدبير شؤونه، لكي يأذنوا له بدخول المبنى والوقوف بجانب القبر ولمسه، ومخاطبته، وما إلى ذلك... تسدِّد مبلغ العبور، ثمَّ تنتقل إلى جناح القلب والشرايين، لتلتحق بجمهور المنتظرين الذين عبروا قبلكَ،

وهم الذين سبقوك، فتتجه صوبَ موظفة استقبال الجناح ببذلتها الزرقاء السماوية وقبعتها الخضراء، لتخضعك هي الأخرى لطقس عبور جديد:

يجب أن تُدلي لها بفاتورة الأداء وملف الزيارات الذي يُشبه صحيفة الأعمال التي يصحبها المرء معه بعد موته إلى الآخرة لكي توضع في ميزان أعماله، ثم تأمرك بالجلوس في القاعة، بانتظار أن تناديك عاملة أخرى ترتدي هي الأخرى قبعة خضراء ووزرة زرقاء... تتوالى النداءات، وعقب كل نداء يدخل زائرٌ أو زائرة إلى غرفة، فيقضي فيها بضع دقائق، ثم يخرج وهو يُكمل تسوية ارتداء ملابسه، لكيلا يقتطع من وقت المريض الموالي...

في الغرفة المغلقة، تأمركَ الممرضة بخلع ثيابك العلوية، والتمدد فوق سرير، وتذهن صدرك بذهنٍ، ثم تثبت في صدرك وأسفل ساقيك ومعصميك أسلاكا موصولة بجهاز، وتصرفك بعد أن يأخذ الجهاز ما شاء أخذه من بيانات قلبك، ويدونها في ورقة.

الجميلات المريضات

عُدتُ للتو من المستشفى، للخضوع لما سبق تأجيله الأسبوع الفارط بسبب كثرة الزوار، وهو إجراء راديو للقلب واختبار المجهود البدني، لكن عدد المرضى اليوم كان أكثر بكثير من المرة الفارطة، فتم تأجيل الأمر مرة أخرى إلى الأسبوع المقبل. الفرق بين زوار اليوم وسابقيهم بيّنٌ:

اختفى الزوار الاستثنائيون ضحايا العيد الأضحى، فاختفت معهم الهندامات الخاصة التي أبدت بعضهم كمخلوقات جاءت من كوكب آخر. بقيةٌ واحدة تخلفت عن الركب فحضرت اليوم: كانت امرأة جنوبية غلفت جسدها بخيمة ذات لون أنيق. اليوم، عاد الزبائن المعتادون، لكن بفارق بيّنٍ، وهو حضور بنات جميلات شابات، ومثلهن من النساء المتزوجات اللائي رافق أكثر من إحداهنَّ زوجُها. لتزجية الوقت، استغرقتُ في قراءة سحنات الوجوه عساني أنفذ إلى خباياها. الشابات تنوعن بين سافرة الوجه، مسدلة الشعر، مزينة الملامح بمساحيق أنيقة، وأخرى أعطت لجمال المحيا كامل حقوقه في أن يزدان ويظهر للناظرين، لكنها لفت رأسها بفولار، وثالثة لفت رأسها داخل فولار، لكنها زهدت في وجهها. المتزوجات

تنوعن بين هذه ارتدت بذلة أنيقة عصرية، وتلك لبست جلبابا وفولارا، وثالثة لباسا ما هو بجلباب ولا هو بكسوة، ارتدته دون أن تهمل منح جمال وجهها كامل الحقوق في الظهور...

أي مصاب أصاب قلوب هذه الشابات الجميلات في مقتبل إلى أن مرضنَ وجئن إلى هنا طلبا للعلاج مع أنهنَّ لا زلن في ريعان الشباب؟! لماذا فاق عدد النساء المريضات اللواتي رافقهنَّ أزواجهنَّ عدد الرجال المرضى المرفوقين بزوجاتهن؟ إذا صحَّت قراءتي لطالعنَّ مجتمعات، كانت النتيجة كالتالي:

تلك الحسناء الجميلة التي ارتدت سروال دجين وقميصا صوفيا أخضر وكشفت شعر رأسها الأسود القصير والجميل، وغرقت في التأمل، في حالة ذهول وانخطاف، قد تكون غامرت بالسفر في محيط من الرغبات والأماني مع فارس أحلام دوَّخها بالوعود، فحلقت في البحر وغاصت في السماء صحبة رفيقها أكثر مما ينبغي، فإذا به يتحول إلى كائن حربائي، وها هي تجد نفسها ساقطة في قعر الخواء، مثلنا جميعا نحن معشر مرضى القلب والشرايين المثخنين بجراح الأقارب والأهل والجيران والمجتمع وزملاء العمل. كلٌّ جرفته شعابٌ من أمراض هؤلاء ومرضاه وعُقده إلى ألقت به في هذا اليم العظيم. بنيت فرضيتي على كون تلك الجميلة، بخلاف أخريات، دست هاتفها الذكي في حقيبتها اليدوية، فلم تخرجه سوى ثلاث مرات للرد على

مكالمة أحدهم، يبدو أنه كان يحاصرها من الجهة الأخرى، بعيدا عن المستشفى، بفنون من أسئلة الشك واللوم والعتاب، وما إلى ذلك مما اقتضى منها إظهار فنون من عبارات الطمأنة:

- أنا في المستشفى، القاعة مزدحمة، بقي لي كذا من الوقت، في الساعة الفلانية سوف ألحق بك...

أما الحسناء الأخرى التي ارتدت شبه وزرة، وسروال دجين، وصرحت هي الأخرى بكامل مدخراتها من الجمال، والتي تبدو أكثر شبابا من سابقتها وأقل تجربة، وربما أقل جرحا منها، فكانت غارقة في شاشة هاتفها. ربما كانت تنط هنا وهناك، فتحط قدما في الفايس بوك وأخرى في سناب شات، وثالثة في الواتس آب، وما إلى ذلك، ومن حين لآخر كانت تبتسم، ما يفيد أنها كانت تحط غير ما مرة في محطة فارس أحلام، قد يكون حقيقيا أو مجللا بهالة من الاحتمال. حسنا، هذا جميل، لكن أي ضربة أصابت هذا القلب اليافع فأسقطته هو الآخر في هذا القعر؟ أغلب الظن أنها أزمة المراهقة والتوتر الناتج عن اصطدام رغبة التحرر من الوصاية والقيود بحواجز الممنوعات والأوامر التي يُمعن بعض الآباء في الشطط فيها عن مرض أو جهل، مما يؤدي إلى أشكال من المرض النفسي العقلي وضروب من التوتر... الفتاة منشرحة الآن، تبتسم، لأنها خارج

دائرة الحصار، لكن قد تأخذ الحكاية منعطفا آخر بمجرد ما تعود البطلة إلى البيت...

تساءلتُ:

- وتلك المرأة! أي ثقل ناء بكاهلها إلى أن وقعت في هذا الشرك الذي يوجد فيه كل شخص يجلسُ هنا الآن، مع أنَّها جميلة، وزوجها يرافقها ويحرص عليها كما يحرص على الجوهرة النفيسة؟

أجابني بياضُ شعر رأس زوجها:

- هي صغيرة يافعة، وهو عجوز مسن! قد يكون مطلقا سابقا، ولمطلقي الرجال في مثل هذه السن الذين يتزوجون ثانية بزوجات صغيرات طبقات من العقد القادرة على جرح القلب وإذابته ولو كان حديدا أو فولاذا...

وتلك الأخرى، ما حكايتها؟ ظل زوجها، طوال اختفائها في غرفة الطبيب، مثبتا بصره في شاشة هاتفه الذكي، يقرأ مصحفا. أثناء ذلك جاءته مكالمة، وكانت الرنة آذانا... خرجت الزوجة الشابة، بوجه حزين وابتسامة غامضة. وقفَ صاحبنا، سارا معا بضع خطوات، وها هي تدس يدها تحت ذراعه، بحركة حرصت على أن تكونَ رومانسية، لكنها أبدتها كأنها كانت تحتمي بمرافقها من شيء ما. قال فنجاني:

- وراء الحكاية أحد أمرين: إما عُقدُ الزوج أو حروب أهله، لاسيما والدته وأخواته البنات. أو هما معا: عقد الزوج وحروب أهله!...

*

* *

أثناء عودتي من المستشفى، تذكرتُ من أضربَ عن الزواج ولخص عقيدة إضرابه في ثلاث أفكار قائلا:

«الزواج هو أن يكون لأحدهم مرض في بيته، فتذهب أنت إليه وتطلب منه أن يسلمك مرضَه، وتُسَخِّرُ جميع وسائل الإقناع والإغراء، وتقدم جميع التنازلات والضمانات لكي يقبل طلبك، فيسلمكَ مرضه، فتُحضره إلى بيتك، ثم يفرِّخ لك المرضُ أمراضا مزمنة، هم الأبناء!»

قلتُ:

- ترى، ماذا ستقول كل واحدة من هذه البنات والنساء لو لخصت عُقد أزواجهن وفوارس أحلامهن في ثلاث جمل؟!

أنا وحماري الإداري

1) ثلاثة أيام

عملا بمقولة المذهب الذي اعتنقته منذ نعومة أظافري، وهو: «عندما يتعلق الأمر بقضاء غرض إداري مَّا، يقف حماري دائما في العقبة، لذلك لا تطأ قدمي بابها إلا للضرورة القصوى»، فقد أجلتُ منذ مطلع العام الحالي إعداد وثائق إدارية لاسترجاع بقشيش من إحدى الإدارات. المبلغ ليس كبيرا، لكنه يمكن أن يسدَّ بعض الثغرات. كنتُ أجلتُ إجراءات استخلاصه رغم إصرار أحد أصدقائي الأعزاء هنا وإلحاحه علي بضرورة أن أقوم بذلك منذ مطلع العام الحالي أو قبله بقليل. أُجَّلتُ الأمر إلى أن ألح عليَّ صديق عزيز آخر هنا، وأصر في الإلحاح هو الآخر مشكورا، في يونيو المنصرم، إلى أنْ استسلمتُ، فشرعتُ في إعداد الوثائق اللازمة، ولكن في إحدى عقبات الرحلة، وقف حماري، فتراجعتُ، وأبقيتُ الأمر معلقا إلى أجل غير مسمى، فكان أن داهمني خصاصٌ في هذه الأيام، فقلتُ:

- حسنا فعلتُ بتأجيل ذلك الأمر، هيا نستعيد بقشيشنا من الإدارة ونسد به هذا الثقب!

ثم عزمتُ وتوكلت على الله، رغمَ ما يمكن أن يحف بالأمر من مشقات جسام أحيانا، إذ تذيق إدارتنا عموما المواطن صنوف عذابات الانتظار والذهاب والإياب، ولزوم ما لا يلزم من الأوراق، وما إلى ذلك. تفعل الإدارة ذلك عندما تكون هي الرابحة، بمعنى عندما تكون أنت من سيدفع لها مالا، فما أدراك عندما يتعلق الأمر بالعكس، فتكون هي من ستسلمك بقشيشا؟ يلزم أن يكون على رأس هذه الإدارة وزير ملتحي عنيد، كرئيس الحكومة السابق، لكي تصبح مؤسسات الدولة عملية وفعالة بقدرة قادر، فتنجز المهمة بسرعة البرق: لم يكلف اقتطاع إصلاح صندوق التقاعد سوى كبسة زر على لوحة مفاتيح حاسوب وزارة المالية، بأمر من الوزير الملتحي، وها هي أموال مئات آلاف الموظفين تتدفق من رواتبهم وتصب في بحر الإدارة الأعظم القادر على ابتلاع كل شيء...

لهذا السبب استغنيتُ دائما عن التردد على الست الإدارة، مهما تزينتْ وتجملت وتعطرتْ. لا أثق فيها على الإطلاق! كان آخر الاستغناءات تماطلي أربع سنوات في تجديد بطاقتي الوطنية لإثبات عنوان سكني الجديد. وما كان ذلك التجديد ليتم لولا أن استرجاع «الثروة المفقودة»، الذي نحن بصدده الآن، يقتضي أن تتضمن البطاقة الوطنية عنوان السكن الفعلي. آخر هذه الاستغناءات أيضا أني لم أجر وراء مليم واحد من تعويضاتي المستحقة عن الدروس التي ألقيتها في بعض المواسم الجامعية، في مؤسسة

أخرى، استجابة لطلبات أساتذة من أعز أصدقائي، فقدمت الدروس مجانا، بل تكرمتُ وأعفيتُ الطلبة من استنساخ الدروس بأن وزعتُ عليهم مطبوعاتها مجانا، فاجتنبتُ بذلك صداع رأس إعداد وثائق طلب التعويضات، مع ما يقتضيه ذلك من تنقل بين بنايات وإدارات لاستلام البقشيش. استغنيتُ عن ذلك بأن قلتُ:

- إذا كان الأمر هكذا، ويقتضي كل هذا التعب، فأنا على أتم الاستعداد أن أؤدي من جيبي معادل ما كنتُ سأستلمه، بل وحتى ضعفه إذا لزم الأمر، مقابل أن أقعد في بيتي فأربح وقتي وراحتي وصفاء ذهني!...

وآخر أواخر الاستغناءات أني لم أدفع الكثير من الملفات الطبية ووصفات الأدوية، لإدارة «الكنوبس»، من أجل استرجاع قسم مما تمَّ إنفاقه! ولي في ذلك أعذارٌ شتى (عدا العذر الرئيس وهو الخوف من الإدارة) يطول شرحها...

تعلق الأمرُ هذه المرة بتهييء ملف كبير، محطته الآن الحصول على شهادة السُكنى التي كنتُ استملتها قبل حوالي خمسة أشهر، في سياق تجديد البطاقة الوطنية... آنذاك، ذُهلتُ للسرعة التي تمَّ بها التجديد، إذ لم يتجاوز أسبوعا واحدا، كما لم تتطلب شهادة الإقامة أكثر من ترددين على الإدارة: خُصِّصَ اليوم الأول لمعرفة قائمة الوثائق المطلوبة، وكانت كلها معي، فتم

إيداع الطلب على الفور، والثاني لاستلام الوثيقة، وهو ما تمَّ بالفعل، ما جعلني أشعر غير ما مرة بالذنب، وأقول:

- لقد تغير العالم كثيرا! كم كنتُ مخطئا في حق الإدارة وظالما لها!

لكن التوجس منها ظل مستيقظا بداخلي دائما ومستعصيا عن الترويض؛ لأنه يسهل سن قوانين إدارية جديدة، وإرسال مذكرات تلزم موظفي هذه الإدارة أو تلك بالانصياع لأخلاقياتها الجديدة، كما يسهل تغيير الأزياء والبنايات، لكن يصعب جدا تغيير الذهنيات. أحيانا، يتضح أنَّ قسوة المخزن تكون أهون بعشرات المرات من شطط أشخاص يمكن أن تصادفهم في الإدارات، والطرقات، وآخرين بين أهلك وأقاربك، وجيرانك، وزملائك في العمل... يلزم عقودا، بل ربما قرونا، لاستئصال خشونة البداوة القابعة في نفوس معظم الناس وعقولهم منذ عشرات القرون!

اليوم الأول:

معَ أنّ المنطق يقتضي الإعفاء هذه المرة من تحضير كل الوثائق التي قدِّمتْ في المرة السابقة، للحصول على الوثيقة نفسها، فإني لم أنسق وراء هذا الاستدلال. ظل توجسي مستيقظا. قلتُ لازم أروح مجددا، وأستفسرهم على الأقل عمَّ إذا كان من الضروري أن أعد ملفا جديدا ما دامت الوثائق

التي أدليتُ بها قبل بضعة أشهر محفوظة في الأرشيف، فذهبت ومعي الأوراق الإدارية التي قدمتها سابقا.

لم يتضح أن توجسي كان صائبا فحسب، بل وجدتُ ما هو أكثر، وهو أن الإدارة قد أضافت وثيقتين جديدتين إلى قائمة الوثائق التي أدليتُ بها سابقا، فعدتُ إلى البيت خائبا، وأعددتُ الوثيقة الجديدة، ثم رجعت في اليوم الموالي.

اليوم الثاني:

بخلاف يوم أمس، حيث لم يكترث أحدٌ لدخولي إلى البناية، ولا اهتم بوجودي، فدخلتُ وجلستُ وتخلصتُ من تجاهلهم لي بأن قمتُ واصطففتُ وراء شخصين أو ثلاثة، إلى أن حان دوري فاستفسرتُ الموظف، واستجاب...، بخلاف ذلك، ما إن وطأت قدمي باب البناية اليوم حتى تلقفني شرطيٌّ مسنٌّ، وسألني بأدب:

- ما تريد يا سيدي؟

- إيداع ملف طلب الحصول على الوثيقة الفلانية.

- حسنا، اجلس هناك! (مشيرا إلى قاعة الانتظار الصغيرة التي لا تسع لأكثر من عشرة أشخاص).

لفت انتباهي حسن استقبال الموظف، فسرته باعتباره تطبيقا للشعار المكتوب على واجهة البناية: «نحن هنا في خدمة المواطن»، استبشرتُ خيرا، فإذا بالعكس سيتضح في اليوم الموالي...

قاعة الانتظار عبارة عن بهو صغير من بناية الإدارة التي يوحي كل شيء بأنها كانت في الأصل عبارة عن إقامة (فيللا) أو أنها تنحدر من أيام الاستعمار، وهذا عندي أرجح، إذ تتوسط البناية الصغيرة مساحة شاسعة فيها أعشاب ونباتات وأشجار كبيرة، محاطة بشباك حديدي، فبدت البناية بصغرها نشازا أمام الزحف العمراني الكاسح الذي تعرفه هذه المنطقة من المدينة، حيث تتسابق وتتقاتل حيتان أربعة ضخمة على اقتناء البقية المتبقية من الإقامات والمنازل والأبراج القديمة، فتستأصلها وتُحِلّ محلها بنايات عصرية شاهقة العلو، تحمل لمسات آخر طراز هندسة الحداثة، وأحيانا حتى ما بعدها، فكان من الطبيعي أن ينتقل هذا النشازُ إلى عقر دار البناية فيُشاهد بأم العين داخلها:

فقبالة قاعة الانتظار التي يبدو أنها كانت في الأصل غرفة صغيرة، ثم هدِّمَ أحد جدرانها، فصارت كبهو، لا يتجاوز عدد كراسيها أحد عشر، قبالتها توجد قاعة أخرى كبرى امتلأت عن آخرها بصناديق خشبية تشبه قمطرات اكتظت بالملفات التي يودعها المواطنون للحصول على هذه الوثيقة أو تلك مما يدخل في اختصاصات هذه الإدارة، وكُتب في واجهة كل

صندوق الحرف الهجائي الأول من أسماء أصحاب الملفات بالحروف اللاتينية: ألف، باء، تاء، وما إلى ذلك. ومعنى ذلك أن الموظف الجالس وراء كونتوار هذا الأرشيف يستلم الوثائق، ويسلمها إلى موظف أو موظفة أخرى في إحدى الغرف بداخل البناية، فتُدخل المعلومات في جهاز حاسوب، ثم تُحفظ الوثائق في الأرشيف. مشهدٌ ذكَّرني بأول مصلحة عملتُ فيها، في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، ثلاثة أشهر لا غير ثم قدمتُ استقالتي. كانت تلك الإدارة اسما على مسمى، وكانت توجد في أحد أرقى أحياء مدينة الرباط...

يومئذ، فرحتُ غاية الفرح بنجاحي في الحصول على وظيفة، رغم أنها كانت متواضعة جدا. قلتُ: سوف يتأتى لي تحرير رسالتي الجامعية في جو من الهدوء والصمت. كيف لا، والعمل لا يتجاوز الجلوس في مكتب بجانبه صندوق خشبي مثل هذه القمطرات، لكنه كبير جدا، كدستْ بداخله مئات ملفات الموظفين، مرتبة بأرقام. تأتي إلى مقر العمل في الصباح، وأنت وحظك: قد يضع العون أمامك سبع وثائق قد يضع عشرين، قد يضع خمسين وقد يضع ستين، ثم يمضي، فتبحث عن سجل صاحب كل وثيقة، فتدون في بطاقته المعلومات التي جاءت بها ورقته: هذا الموظف اغتصب صبية فسُجن، ذاك طلق زوجته، الآخر سرق معدات مقر العمل، هذا ألقي عليه القبضُ وهو سكرانٌ، ذاك رقي إلى

الدرجة الفلانية، الآخر انقطع عن العمل فتم عزله، هذا ازداد له مولود، وذاك انتقل من المدينة الفلانية إلى المدينة العلانية، وما إلى ذلك... وبمجرد ما تنهي من إدخال البيانات في ملفات أصحابها يكون عمل يومك قد انتهى. أنت وحظ يومك: يمكن ينتهي في ربع ساعة، كما يمكن أن يستغرق ساعتين، بل يمكن ألا يأتيك العونُ بأي وثيقة، فيكون نصيبك اليوم كله، ولك أن تفعل به ما تشاء، نم أو اقرأ، أو اكتب، أو اسمع موسيقى، لا أحد يلومك أو يعاتبك. لكن يُمنعُ عليك منعا قاطعا أن تغادر البناية ولو لدقائق: الحارسُ واقف في بابها يترصد كل من سولت له نفسه الفرار! صَرفتُ الأسبوعين الأولين في قراءة ما كنتُ أصطحبه معي من كتب في جو هادئ صامت، كأن زملائي وزميلاتي كانوا مومياءات محنطة من حولي، فيما بعد اتضح أنهم كانوا مجرد ممثلي مسرحية أمام القادم الجديد الذي كنتُ إياه، إذ ما إن ألفوا وجودي حتى أطلقوا عفاريتهم من قماقمها، وها هي القاعة تضج بالضحك والصراخ وتبادل النكت والأحاجي وأحاديث وجبات الأكل في مطاعم وسط المدينة، ومحلات تخفيضات أسعار الأحذية والبدلات، وما إلى ذلك، مما استخلصتُ معه أنه سيكون من سابع المستحيلات عليَّ أن أقرأ كتابا واحدا في الشهر، فأحرى أن أحرر فقرة من أطروحتي إذا ما بقيتُ هناك، فصعدتُ إلى المسؤول الكبير ووضعت طلب استقالتي...

انتشر خبر استقالتي في البناية كالنار في الهشيم. الكثيرون هنأوني، لكن أحدهم، كان محرِّرا مثلي، كاد أن يأكل رئتيه حنقا وحسدا مع أنه كان من سكان حيي. في اليوم الموالي، بينما كنتُ عائدا إلى الحي كان صاحبنا خارجا منه. كان يحمل بين يديه مولوده المريض، متجها به إلى المستشفى، ومع ذلك استوقفني:

- قل لي، هل قدمت استقالتك فعلا؟!

- نعم

- ولماذا؟

- لأنني اجتزتُ مباراة أخرى، نجحتُ فيها، وسألتحق بعمل جديد...

- ما هي؟ ما هو؟ متى؟ أين؟

- ...

فقد صاحبنا صوابه، انتابته نوبة هستيرية. أحمد الله لأنه لم يخطر ببال صاحبي أن يرمي في غمرة هيجانه ابنه عليَّ، فيقع المولود على الأرض، ويموت، فيتهمني بقتله كما تفعل الكثير من نساء البوادي للإيقاع بأعدائهن والزج بهم وراء القضبان عشرات السنين. صرخ في وجهي بأعلى حنجرته:

- أنتَ لصٌّ! أنت نصَّابٌ!...

نظرتُ إليه مشدوها، أعاد الصراخ في وجهي:

- نعم أنت لصٌّ! اشتغلتَ فقط ثلاثة أشهر، ووضعتَ راتب الأشهر الثلاثة في جيبك، ثم قدمتَ الاستقالة، وهربتَ! أعد للدولة ما أخذتَ منها! يجب أن تُرجعَ للدولة ما سرقتَه منها! أنت أكلتَ الدولة!!

كتمتُ ضحكة ساخرة مُرَّة، ثم واصلتُ سيري تاركا إياه يصرخ من ورائي وهو في حالة يُرثى لها...

هذا ما كنتُ أفكر فيه وأنا أتأمل الأرشيف تارة، وأرضية قاعة الانتظار تارة أخرى. بدت هذه مثل إصطبل جراء وسخ بقايا أقدام من مروا منها في هذا الصباح. فالأرصفة المحيطة بسور البناية كلها غير مبلطة، وتقع أسفل الأشجار الباسقة التي تكاد تحاذي السور... وبما أنَّنا في فصل الخريف، فقد بدأ ندى الأشجار يقطر فوق الأرض، فيبلل التراب إلى أن يصير بمثابة وحل يعلق بأحذية كل من مر فوق تلك الأرصفة التي لا سبيل للمرور غيرها، وإلا فامتطاء مروحية هو الحل! وفي غياب وجود منديل منشف أو بساط لمسح القدمين في مدخل البناية، كان من الطبيعي أن تتحول ساحة قاعة الانتظار الصغيرة إلى شبه إسطبل... غير أن الله وحده أعلم بسر بقاء أرضية باب البناية، والممر، وسائر مساحتها نقية، باستثناء غرفة الانتظار: هل لأن الموظفين حرصوا على إيثارها بالتنظيف دون غرفة الجلوس أم لأنَّ طالبي الوثائق كانوا ينتقمون سرا من الإدارة بتدنيس

مكان جلوسهم الذي لا يوجد في مرمى عيون موظفي البناية بخلاف باقي الأقسام، فيحكُّون قيعان أحذيتهم فوق الأرض حَكًّا؟

لم أفطن لمرور الوقت. انهمكتُ في قراءة كتيب «حدود الذاكرة الاصطناعية. عن ضرورة النسيان» (بالفرنسية) الذي زهد مؤلفه (أو مؤلفته) في إثبات اسمه، مع أن الكتيب، على صغره، هام وفي غاية الفائدة. توغلتُ في القراءة، انتشلني صراخُ الموظف الذي سبق أن استقبلني بأدب واحترام. كان يصرخ في وجه امرأة التحقت للتو بالقاعة:

- لماذا فعلت كذا؟ وكذا؟!

- ....

- اسكتي، والله إنك لـ...

- ....

وما إلى ذلك. كانت المرأة ترتدي جلبابا، وفولارا، حاولتْ أن تُخلل «نشيد الموظف الحربي» بإدراج لازمتها، لكي تستقيم الأغنية، لكن بدون جدوى، إذ ما إن كانت تنطق بكلمتي «المحكمة»، و«وكيل الملك»، حتى يواجهها الموظف بالصراخ:

- لماذا قمت بـ (كذا)؟! لماذا فعلتِ (كذا)؟!

فجأة ساد الهدوء. التحق الموظف بالباب، بدت على محيا المرأة علامات إشباع وارتياح كبيرين، إذ أزاحت الفولار كله من فوق رأسها

إلى أن سفر شعرها كاملا، ثم أعادت شده ببطء. لم أعرف أكان لي أن ألوم الموظف على قسوته مع تلك المرأة أم ألوم السيدة نفسها على وقاحتها المفترضة، لأني لم أعرف تفاصيل الحكاية أصلا، ومع ذلك ملتُ إلى لومها، بحجة ظهور علامات الارتياح والانشراح على محياها بعد أن تلقت سيلا من التوبيخات والتقريعات. قلتُ قد تكون هذه المرأة من أحد صنفين من الناس:

فإما أنها من نوع ذلك الأستاذ الجامعي الذي كان يعرقل اجتماعات زملائه، إذ يعلق على الشاذة والفاذة، ويعترض من أجل الاعتراض إلى أن يفقد الاجتماع بوصلته، فلا تستقيم له وجهة، فيقنط زملاء الأستاذ، ويستعجلون مغادرته للاجتماع، لكنه يصر على البقاء ولا ينصرف، إلى أن يقوم أحدهم يقوم ويصرخ في وجهه:

- صه أيها الحمار! صه أيها الحمار!

وآنذاك فقط تنزل الراحة والسكينة على صاحبنا، إذ بمجرد ما يسمع هذه الكلمة ينكمش في كرسيه ويستسلم للنوم اللذيذ، إلى أن يوقظه زملاؤه لحظة انتهاء الاجتماع واستعدادهم لإخلاء القاعة!

أو أنّها (= المرأة) من صنف جاري الذي أوسعني شتما ولوما في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، لمجرد أني استقلتُ من وظيفتي بعد مزاولة لم تتجاوز ثلاثة أشهر، كأنني سرقتُ ضيعة أبيه أو نهبتُ ثورته!

ثم ربما كان الموظف أدرى بما يفعل. وكما كتبتُ في إدراج سابق:

> فمن الناس من لا يهدأ له بال ولا يشعر براحة ما لم يتقدم إلى المحكمة أو إلى أقرب دائرة شرطة إلى بيته لكي يرفع دعوى أو يضع شكاية بغيره، كائنا ما كان هذا الغير: جاره، شريكه في التجارة، قريبه، وما إلى ذلك. والويل كله لمن وضعته الصدفُ في طريق هذا النوع من البشر!

راودتني فكرة أن أقوم وأسأل الموظف عمَّ إذا كانت المرأة بالفعل واحدة من هؤلاء الناس. إن قال نعم، أعطيتُه الفتوى التي نشرتُها في الإدراج سابق، وهي:

> أن تتولى السلطة أو أقارب الواحد من هؤلاء الناس أمر صنع لوحة معدنية نحاسية، يُكتب عليها:
>
> «المحكمة الابتدائية لمدينة كذا، القاعة رقم كذا»
>
> أو:
>
> «مركز الشرطة، الدائرة الفلانية، المدينة الفلانية».
>
> ثم تُثبَّتُ اللوحة المعدنية بباب إحدى غرف صاحبنا أو صاحبتنا لكي يتأتى لهما دخول القاعة كل صباح، فتغمرهما مشاعر السكنية والطمأنينة، ويتركوا غيرهم بسلام!

لكني خشيتُ أن ينقلب الموظف عليَّ...

تراجعتُ عن لوم المرأة، ثم لمتُ الموظف، قلتُ:

- ربما لم يستقبلني أثناء دخولي إلى الإدارة بكل ذلك الأدب إلا إشفاقا عليَّ لشيخوختي وظهور أعراض الإنهاك والمرض على ملامحي ومشيتي.

ثمَّ، أمام غياب شاهد معي من النوع الذي يتوفر عليه الشيخ الداعية المغربي المزواج، في ورطته الأخيرة مع أحدث زوجاته وأصغرهن، والتي روت فيديوهات عديدة في اليوتيوب تفاصيل فضيحة الشيخ الملتحي بالتفصيل الممل... أمام غياب شاهد معي، فقد يلفق لي الموظف تهمة ما، أقلها «إهانة موظف أثناء مزاولة عمله». وفي هذه الحالة، سيكون الحُكم القضائي دائما في صالح رافع الدعوى، وستكون العقوبة كبيرة، لاسيما عندما يكون الموظف شرطيا أو دركيا أو عسكريا! صرفتُ انتباهي عن الموضوع، خاطبتُ الاثنين في سري:

- «بيناتكم أبيضاوة! (= أمركم بينكم يا أهل الدار البيضاء! = لا شأني فيما بينكم)...

لحظات، وها هو موظف الأرشيف / الاستقبال يناديني باسمي، استجمعتُ قوايَ، وها أنا واقفٌ أمامه. تحقق من الوثائق واحدة واحدة، قال:

- حسنا!

ثم شرع في طرح أسئلة:

- هل تسكن في العنوان المثبت في بطاقة تعريفك؟

- نعم؟

- هل لديك أبناء؟

وها نحن أمام ما بدا لي نخا نصبه لي الموظف: طرح سؤاله بصيغة مبهمة لا توضح هل المطلوب هو معرفة هل لي أبناء أم هل يسكن معي أبناء. ما المقصود بهذا السؤال؟ هل المقصود هو مجرد معرفة ما إن كنتُ أبا، بصرف النظر عما إذا كان أبنائي صغارا يسكنون معي في البيت أو كبارا استقلوا عني وغادروا المنزل ليقيموا في بيوت أخرى، وفي هذه (الحالة الأولى) سيكون جوابي هو «نعم، لي أبناء» أم المراد هو معرفة ما إن كان لي أبناء يقيمون معي في البيت، وفي هذه الحالة، سيكون جوابي المنطقي هو «لا»، لأني أسكن وحيدا. هممتُ بالإشارة إلى غموض السؤال، وتوضيح وجه الإبهام بعرض التفاصيل السابقة على الموظف، خشيتُ أن يتهمني الموظف بالتفلسف. قدمتُ جوابا يغطي الاحتمالين ليستخلص منه الموظف ما يريد:

- نعم لي ابنان، كبرا وغادرا البيت!

قهقهه ساخرا:

- يا سيدي نحن لا يهمنا أن يكون أبناؤك صغارا أو كبارا، ولا شأن لنا في أن يقيموا معك أو لا يقيموا! قلْ: «عندي أولاد» وكفى!

قلتُ:

- عندي أولاد وكفى!

كم عددهم؟

- اثنان.

كتب الرقم بسرعة، ثم عاد يسأل:

- هل أنت متزوج أم مطلق؟

لاحظتُ غياب إرداف هذين الاحتمالين باحتمالات أخرى، مثل: «معاشرة حرة»، «مخطوب»، «مصاحب»، «علاقة ملتبسة» (على حد تعبير الفايس بوك)، «على وشك الطلاق»، وما إلى ذلك، من سائر أنواع العلاقات التي تمتلئ بها دهاليز مجتمعنا، هممتُ بتنبيهه إلى ذلك، خشيتُ أن ألقى مصير الشاعرة الأمازيغية المعتوهة التي اعتصمت في أحد مطارات المملكة بحجة عدم وجود الخط الأمازيغي في البطاقة التي كان يتعين عليها تعبئتها، مع أنَّ ما يفرق بيني وبين صاحبتنا يعادل ما بين السماء عن الأرض. قلتُ:

- مطلق!

- يجب إحضار نسخة من عقد الطلاق!

وها هو حماري يقف في العقبة! كدتُ أصرخُ في وجهه:

- ولكن هذه الوثيقة، أسيدي، غير مثبتة في قائمة الوثائق المطلوبة.
ها هي القائمة معلقة في الجدار. لماذا لم تكتبوا الوثيقة في القائمة؟ ثم لماذا لم تطلبوها مني يوم أمس فأعرف ما ينتظرني؟!...

لكني خشيت أن يرد عليَّ بما لا تُحمد عقباه... وقف حماري لأن الطلاق يعود إلى حوالي عشرين عاما فقدتُ فيها وثائق كبيرة أهم من هذه الورقة بكثير، فكان من الطبيعي أن يكون صك الانفصال في مقدمتها، وأن يكون آخر ما يمكن أن أحيطه بالعناية اللازمة والحرص الكبير، لاسيما أني طلقتُ المؤسسات قاطبة... مرَّ شريط علاقات ما بعد الطلاق في ذاكرتي بسرعة البرق: أسماء بعضها موجودة هنا، وليس الكشف عنه مما يحق ولا مما يليق...). كذبَ من قال لا تمر وقائع الذاكرة أحيانا في اليقظة بالسرعة التي تجري بها وقائع الحلم... لو استرسلتُ في ذكر أربع قصص منها لا غير لما أنهيتُ النص الليلة، وربما اقتضت كل علاقة رواية منفردة، وليس ذلك في نيتي... لو امتثلتُ لطلب الموظف، لاقتضى مني الأمر شد الرحال إلى مدينة بعيدة، ولوجدتُ نفسي ثانية أمام الإدارة، وما أدراك ما الإدارة، ها نحن ما زلنا فيه! أجبته بصوت خفيض:

- فقدتُ الوثيقة، ومن الصعب جدا أن أعثر عليها!...

ربما اقتنع بأني كنتُ صادقا، ربما تذكر أنه شطَّ في عمله فطلب وثيقة غير مطلوبة أصلا في قائمة الوثائق المعلقة في نسختين بجدران الإدارة،

ربما فطن من صوتي إلى أني كنتُ منهكا، فمن الناس من يعرف حالة غيره الصحية من مجرد سماع كلماته، نموذجهم أحد أعز أصدقائي وزملائي في العمل: لا يكلف نفسه عناء السؤال؛ ما إن أتبادل معه بضع كلمات عبر الهاتف حتى يقول:

- أنا مسرور جدا، أنت الآن بخير، في حالة صحية جيدة. عرفتُ ذلك من صوتك...

أو:

- ماذا ألم بك؟ عرفتُ من صوتك أنك لست على ما يُرام. تناول الدواء الفلاني. خُذ قسطا من الراحة!

وما إلى ذلك..

قبلَ الموظفُ أن يحتفظ بالوثائق، لم يرددني خائبا. فرحتُ، قال:

- حسنا: سننظر ما يقول النظام système (= قاعدة البيانات المعلوماتية). إذا تبين أنك طالق فلا حاجة لنا بالوثيقة، إن يتضح العكس فستُلزمُ بإحضارها، موعدنا غدا.

غام ذهني، اعترضتُ على الموظف سائلا إياه في نفسي:

- ما دام «السيستام» يعرف عنا كل شيء بالفعل، لأنه يحصي أنفاسنا، ويدون كل شيء عنا، فلماذا تطالبونا في كل مرة بإحضار ملف

كامل من الوثائق، وبإحضار الملف نفسه، مجددا؟ أليس من الأولى أن تطالبوننا فقط بمستجدات حياتنا التي لا يعرفها النظام؟!

قلت له:

- من الصعب علي أن أحصل على هذه الوثيقة! سأقترح حلا.

- ما هو؟!

- أحضر وثيقة إدارية من مؤسسة عملي تثبتُ إحدى خانات بياناتها حالتي العائلية.

- عد غدا، وننظر ما يكون.

اليوم الثالث:

يومه، صادفتُ الموظف السابق في باب البناية، ربما كان خارجا ليتناول وجبة الغذاء في مطعم. وجدتُ نفسي وحيدا في قاعة الانتظار، لم يأبه لوجودي البوّاب الذي عوَّضَ حارس الأمس الذي صرخ في وجه المرأة ولاججها، استغرقتُ في قراءة الكتاب الذي كان معي، مرت لحظات، وها هو الحارس يجلس في كرسي الموظف الذي صادفته في باب البناية، اتجهتُ نحوه، سألني:

- ماذا تريد؟

- الوثيقة الفلانية.

- هل أودعت ملف طلبها؟

- نعم، يوم أمس.

- ما الاسم الكريم؟

- فلان.

استغرق في تقليب الوثائق، وها هو يمدني بها، استلمتُها، تنفستُ الصعداء، تهيأت لمغادرة البناية بسرعة البرق، استوقفني:

- مهلا! مهلا! تحقق من عدم وجود أي خطأ في الكتابة!

مسحتُ الورقة بعيني، قلتُ:

- لا يوجد أي خطأ!

ثم مرقتُ من البناية خشية أن يعود موظف يوم أمس، فيطالبني بإحضار الوثيقة المعلومة، وإن كنتُ مستبعدا في قرارة نفسي أن يعود، لأنه ربما تحاشى بغيابه ذاك أن يجد نفسه في موقف محرج، وهو أنَّ الإدارة أنجزت وثيقتي دون حاجة إلى الوثيقة الإضافية التي طلبها مني من دون وجه حق...

مرقتُ آملا ألا أعود إلى هذه الإدارة أبدا عملا بمقولة المذهب الذي اعتنقته منذ نعومة أظافري: «عندما يتعلق الأمر بقضاء غرض

إداري مَّا، فإنَّ حماري يقف دائمًا في العقبة، لذلك لا تطأ قدمي بابها إلا للضرورة القصوى».

2) أنا وحماري الإداري في مكناس

اعتراني غمٌّ وحيرة شديدان قبيل النوم ليلة أمس حول من أي المحطات أبدأ يوم غد من المراحل الثلاث المتبقية لي من ملحمة جمع الوثائق الإدارية، فإذا بخاطر يقول لي:

- عليك بـ «الزايرجة الهندسية في كشف الأسرار الخفية»![14]

فحسبتُ حروف اسمي واسم والدتي وأسماء المحطات الثلاث التي تنظرني، وسيَّرتُها على تسعة، واستخلصتُ الباقي، فطلع لي بيتان صدرُ أولهما:

«مكناسةٌ مكناسةٌ يا من أرادَ حَاجَةً» (رجز)

فهمتُ المقصود، فلم أحتج لإعداد جلباب ولا طربوش ولا نظارتين شمسيتين، ولا عكازا، ولا هم يحزنون. فمكناسة الزيتون نفسها نصٌّ جميل ينكتب بالمقيمين والعابرين على السواء، مكتفيا بذاته، لا يُزعجُ أحدا بأن

---

[14] عنوان كتيب لقراءة الغيب، من تأليف عبد الفتاح الطوخي الفلكي، توجد منه أكثر من طبعة، أشهرها طبعة المكتبة الشعبية ببيروت (بدون تاريخ).

يخاطبه قائلا، على سبيل المثال: «اكتبني» أو ما شبه ذلك... ضبطتُ منبه الساعة على الخامسة صباحا، ثم نمتُ.

استيقظت على الساعة الخامسة صباحا بالتمام، دون زيادة أو نقصان. تناولتُ وقططي وجبة الفطور، ارتديتُ ملابسي، ثم جمعتُ حوائجي وتوكلتُ على الله، وخرجتُ إلى محطة القطار، لكي أستقل قطار السابعة صباحا وأربعين دقيقة، فإذا بالأغنية المشؤومة تعلو أرجاء الفضاء:

- سيداتي، سادتي! انتباه من فضلكم! القطار القادم من مراكش، والمتوجه إلى سيدي سليمان، سيدي قاسم، مكناس الأمير عبد القادر، مكناس، فاس، سيتأخر عن موعده بثلاثين دقيقة، نعتذر لكم عن هذا التأخر، ونشكركم!

- Mes dames et messieurs! Votre attention s'il vous plait! Le train en provenance de Marrakech et à destination de Sidi Slimane, Sidi Kacem, Meknès Al Amir Abdelkader, Meknès, Fès, aura un retard de 30 minutes, nous vous prions de nous en excuser, merci!

قلتُ: «لن يُلدغَ المؤمن من الجحر مرتين»، سيصيرُ نصف ساعة ساعةً لا محالة! عدتُ إلى منزلي، جهزتُ حماري الإداري، ركبتهُ وانطلقتُ على بركة الله إلى مكناسة الزيتون، فكانت الرحلة جميلة، لا تختلف في أي شيء

عن السفر في القطار، شاهدتُ في مدخل مدينة سيدي سليمان الشمالي مئات خيام الثوب البيضاء منصوبة كتلك التي تتبرع بها المفوضية العليا للاجئين على نازحي الحروب والمجاعات والأوبئة في شتى بقاع العالم، وبجانب الخيام عشرات سيارات حمل سلع بيضاء هي الأخرى مصطفة كعربات القيامة، والغبار يعلو في السماء. كأنها داحس والغبراء! عرفتُ أن اليوم يوم سوق الأربعاء الأسبوعي... رأيتُ حقولا فوضوية سائبة، تداخل فيها الربيع، والخريف، والصيف، والشتاء، كأنها تنشد أغنية «كفاية...!!... Et Basta»، لشيخ الفوضويين وإمامهم المرحوم الحاج ليو فيري Léo Ferré. وتواصلت المشاهد يكرر بعضها بعضا، ينافس بعضها بعضا، يحاكي بعضها بعضا، يداعب بعضها بعضا، يغازل بعضها بعضا، يشتم بعضها بعضا، يلعنُ بعضها بعضا، وما إلى ذلك، إلى أن اجتزنا سيدي قاسم، فاستقامت الأرضُ واستوتْ، ولاحت تباشير الأطلس الجميلة، فاتضحت الرؤية وصارت الأجواء والمشاهد أحلى وأطيب لي ولحماري...

*

* *

مضت ساعتان ونصف على إقلاعنا من القنيطرة، وها نحنُ في محطة مكناس الأمير عبد القادر. أثناء الخروج، علا صوت أغنية يرافقها عزف آلة عود:

- سيداتي، سادتي! انتباه من فضلكم! القطار القادم من مراكش، والمتوجه إلى فاس، سيتأخر عن موعده بستين دقيقة، نعتذر لكم عن هذا التأخر، ونشكركم!

أثنيتُ على نفسي كثيرا، لأن قراري أن أسافر على متن الحمار بدل القطار اتضحَ صائبا. أثنيتُ على نفسي دون أن أنسى توجيه جزيل الشكر لحماري، ها هو يتضحُ أن القطار لم يتأخر ثلاثين دقيقة، كما قالت مغنية محطة القطار القنيطرة المدينة، بل ساعتين كاملتين. لو كنتُ ركبتُه لكنتُ الآن فقط في سيدي سليمان أو بعده بقليل!

في باب الخروج من المحطة، اشتبك الحارسُ مع امرأة عجوز. المرأة المسنة تصر على مرافقة عجوز أخرى إلى رصيف ركوب القطار، والحارس يصر على وجوب الإدلاء بتصريح الدخول:

- هات تذكرة الدخول إلى رصيف القطار، سعرها ثلاثة دراهم ونصف!

- يا سيدي! أنا لستُ مسافرة. أريد فقط مرافقة أختي إلى حين وصول القطار، ثم أغادر المحطة!

- يا سيدتي! احجزي ورقة المرور إلى الرصيف، من الشباك، ثم رافقي من شئت!...

خشيتُ أن ينقلبَ اللجاجُ إلى اقتتال ضارٍ، أمَّنتُ حماري، وحقيبتي، ثم خرجتُ...

في الإدارة، استقبلتني موظفة بوجه بشوش، سلمتُها الطلاسم الأربع، استنطقتها وفكت ألغازها إلى أن سطعت أنوارها وباحت بأسرارها، ثم استدعت زميلا لها من مكتب مجاور، وسلمته أحد الطلاسم، وها هما يستغرقان في طبع كمية هائلة من الأوراق. هما يطبعان وأنا أنظر، هما يطبعان وأنا أنظر... لو رأى أحدهم المشهد من بعيد لظن أنه يُشاهدُ أحد أفلام شارلي شابلان التي يغيب فيها الصوت وتتسارع فيها الحركة. لم أستغرب لحفاوة الاستقبال التي خصتني بها الموظفة، في حين قلقتُ للكم الهائل من الأوراق.

السرُّ في حسن الاستقبال هنا، بخلاف بطل اليوم الثاني الذي كاد أن يَئِدَ ملحمتي في مهدها، باختلاق حكاية أنَّ صك الطلاق يدخلُ ضمن وثائق ملف طلب الحصول على شهادة السّبَات، السر في ذلك هو أنَّ إدارة اليوم خصوصية وليست عمومية، وشتان بين موظفي القطاعين، كما دونتُ في أحد الإدراجات:

جدير بالتأمل!

في حين يخص عمال وعاملات الأسواق الممتازة وموظفو الأبناك الزبائنَ دائما بالترحيب والتحية المرفوقين بابتسامة ووجه

بشوش، ويستجيبون فورا لأي طلب أو استشارة، بل يستزيدون، يستقبل أفرادٌ من مستخدمي بعض الإدارات العمومية المواطن دائمًا بوجه متجهم عبوس: يستثقلون قدومه، بل لو استطاع بعضهم لحمل عصا وطرد هذا المواطن وكأنه جاءهم ليطلب منهم أن ينحنوا ليركب فوق أظهرهم أو أتى ليطردهم ويأخذ مناصبهم!...

ومما عُقِّب به عليه:

«أشاطرك هذه الملاحظة، لكن أضيف إليها ملاحظة أخرى هي: أن أريحية و"روح الاستقبال" في المراكز التجارية وقطاع الأبناك، مثلا، أريحية جامدة بلا روح حقيقية. بل إنها تخبئ نوعا من السرقة والتحايل (مثلا عدم إرجاع مستحقات الصرف من السنتيمات وعدم تكليف الموظف نفسه تنبيه الزبون إلى النقص الحاصل في ذلك أو معرفة رفضه أو قبوله "التنازل" على تلك السنتيمات، بالإضافة إلى عدم منح كيس للزبون إلا بمقابل باهض جدا هو 1 درهم).

يعني أن الابتسامة المصطنعة تنتهي لحظة خدمة الزبون خدمة حقيقية وشفافة!

تختفي هذه الأريحية، أيضا، في حالات المنازعات والشكايات بخصوص السلع المقتناة.

أما قطاعي الإدارة والخدمات العمومية، فهما أم المصائب وجهنم التخلف!» (مصطفى لمسيح).

«عقليات متحجرة علاها الصدأ» (نور الدين ناس الفقيه).

«أظن أن التفسير يكمن في جهة أخرى: قطاعات التجارة والمال والأعمال والخدمات تُخضع موظفيها ومستخدميها لدورات تكوينية في كيفية التعامل مع الزبائن، في حين لا تقوم الإدارات العمومية بذلك. وما لم يتم إخضاع الإداريين لهذا النوع من التكوينات وأخذها بعين الاعتبار في تقويم أداء المستخدم لعمله، بحيث يتلقى عقوبة يمكن أن تبلغ حد فصله عن عمله إذا خالف (وهذا ما يتم بالفعل في أحد الأسواق التجارية، حسب علمي...)، فإن أي حديث عن إصلاح الإدارة قد لا يؤدي إلى تغيير حقيقي (محمد أسليم).

«هذا هو حالنا مع الإدارات العمومية...زد على ذلك تردي أغلب الخدمات التي تقدمها» (بنهاني سعيد).

من الواضع أن السر في حسن الاستقبال السابق يعود إلى أن الإدارة مختصة في الخيمياء، فيتأتى لها تحويل كل شيء إلى أموال، بمجرد إطلاق بخور وقراءة عزائم وكتابة حروز وطلاسم وصنع تمائم... بل يتأتى لها ذلك بمجرد أن يدخل إليها الزبون، ويتجاذب أطراف الحديث مع هذا الموظف أو ذاك، هذه الموظفة أو تلك، وبذلك ارتأى صاحب الإدارة

العجوز الذي قال ذات لقاء له مع أحد الفقهاء إنه قد عثر على نبتة الخلود التي ابتلعتها الأفعى من جلجامش، واحتفالا بولوج نادي الخالدين، ارتأى هذا المحظوظ أن يعيد بناء برج بابل في إحدى مدن المملكة على غرار ما أعاد صدام حسين بناء قصر نبوخذ نصر على أنقاض مدينة بابل بالقرب من بغداد...

تواصلت الطباعةُ، قلقتُ، لأنَّ وثائقي لم تستنفذ علب أوراق جميع مكاتب المؤسسة بطوابقها الاثنين فحسب، بل اقتضت وقوف عدد كبير من الشاحنات المحملة بعلب الأوراق البيضاء، التي استغرقت مطبعتا المؤسسة في استنساخها، وهي تعزف أغنية: «هل من مزيد؟ هل من مزيد؟!» بطريقة ذكرتني بنداء ممرضة قسم أمراض القلب والشرايين للمرضى يوم أخرج الطبيب كلام الحساء الكوني من قلبي[15]... بعد مرور حوالي أربع ساعات، كان ما طبعه الموظفان من أوراق قد تحول إلى شبه مبان أو عمارات، في حين وجدتُ نفسي حشرة صغيرة وسطها، حيثما وليتُ وجهي لا أجد غير أسوار من الورق، كأنه ألقي بي في إحدى متاهات أوروبا القرون النباتية...

قلتُ: واحدة من اثنين:

---

[15] انظر نص «البحث عن الذهب: 2) صوت الحساء الكوني في قلبي» ضمن الكتاب الحالي.

- إما أني جننتُ، وما أراه مجرد توهم وخيال أو أنَّ الأمر حقيقة واقعية لا جدال فيها!...

لولا انشغالي بالبحث عن أي الاحتمالين أصح لملأتُ الإدارة بالصراخ. ولا أظن أنه كان في وسع أي شخصٍ آخر في موقفي أن يقوم بأي شيء آخر غير الصراخ: من باستطاعته تحمّل أن يجد نفسه بطلا واقعيا، من لحم ودم، في رواية واقعية هي الأخرى، لكنها شبيهة تماما برواية «المسخ» لكافكا بل ربما أكثر غرابة منها؟!

انتهى إعداد الوثائق التي طلبتُ، حان موعد التسليم والاستلام، خاطبني مدير المؤسسة:

- اطلعنا على كل ما كان يروج في ذهنك بتفاصيله المملة! أنت الآن في عالم واقعي ولست في حلم أو خيال! (...) ثم بما أن حمارك أصغر من أن يحمل كل هذه الأوراق، فقد تدبرنا أمر إرسالها في أربع شاحنات كبرى، كل شاحنة تقابل طلسما. ليس هذا وحسب، بل أرسلنا حمارك أيضا في إحدى الشاحنات!

قلتُ في نفسي:

- انتهى بيتُ قصيد الرحلة بسلام. الآن، يحق لي أن ألقي تحية على المدينة، بعد رحيلي عنها قبل حوالي عقدين، إذا احتسبنا «غياب الغياب» و«غياب الحضور»...

ثم خرجتُ أتجول في شوارع وسط المدينة، وها هي مكناسة أجمل مما كانت عليه من قبل: أصبحت أوسع وأكبر، جراء زحف الإسمنت عليها، كأخواتها الرباط، والقنيطرة، وسلا، وغيرها من المدن التي داهمتها الأبراج، لكن مكناسة لوت عنق الإسمنت وخنقته، بدل أن يخنقها، فبقي الهواء نقيا، والسماء رحبة صافية، وجبل زرهون لم يتزحزح عن مكانه عصي على أن يحجبه سور أو بُرج...

هاتفتُ أحد أعز أصدقاء ليالي الذكر الصوفي، وهو صديقي الشاعر عبد الناصر لقاح، ليسَ لصلة رحم الذكر الذي صَرَفتنا مجالسُه وفضاءاتُه، نحن الاثنين وصفوة أخرى، كمحمود ميري وأحمد تيمد، وغيرهما، لارتقائنا أعلى مدارجها قبل الأوان، بل هاتفته لصلة رحم الثقافة والشعر لا غير. موعدنا سينما كاميرا.

في الطريق، صادفتهم جميعا، كما تركتهم، لم يغير الزمن عاداتهم القديمة مثلما لم يغير الإسمنتُ وجه المدينة القديم:

الشاعر عبد السلام الزيتوني جالسٌ في مقهاه المفضل بشارع علال بن عبد الله، على بعد خطوات من منزله، يقرأ صحيفة الاتحاد الاشتراكي، مخللا القراءة باحتساء فنجان قهوته الصباحية، الفنان التشكيلي الحسين موهوب جالسٌ في مقهاه المفضل «الديك الأسود»، مع ثلة من أساتذة الفن التشكيلي، يشاكسُ هذا ويناكفُ ذاك. ومن حين لآخر، يُرغي ويزبد

ويلقي سيلا من الشتائم غير المحسوبة التي لا تستثني أحدا في البلاد، فينزع بعض الجالسين، بل ربما لخشيتهم أن توجد الشرطة في المقهى متنكرة في هيئة زبائن، فتلقي القبض على موهوب ومن معه ومن سمعه، لذلك ينصرفوا مفزوعين، قبل إتمام مشروباتهم. قبالة سينما كاميرا، ها هو محمود ميري قادمٌ بشعره الأشيب ونظارتيه الطبيتين البنيتين وقبعته الرياضية، ومشيته الاعتيادية: الرأس نحو الأسفل، كدنا نصطدم ببعضينا، نظر إليَّ، ثم انصرف، دون أن يؤدي التحية أو يقول أي كلمة: أيقنتُ أنه قضى الليلة في أحد مجالس الذكر الصوفية بالمدينة، وأنّ الأنوار التي أشرقت عليه هناك قد حجبت عنه صورتي. تركتُه فيما هو فيه، ثم انصرفتُ دونَ أن أزعجهُ، تماما كما واصلتُ سيري، قبيل ذلك، عندما مررتُ من جانب الشاعر عبد السلام الزيتوني، والفنان الحسين موهوب، وراعي الفنانين السي محمد العبادي الذي كان هو الآخر مستغرقا في شعيرته الزوالية الاعتيادية وسط أحد مجالس الذكر، وآخرين كثُر، لم أكلم أحدا منهم لأنهم كانوا في الضفة الأخرى...

لم يستغرق وقوفي قبالة سينما كاميرا بضع دقائق وها هو الشاعر عبد الناصر لقاح، يصل بشعره الذي اشتعل شيبا هو الآخر قبل الأوان. هيا إلى مقهى جميل. حول برادي شاي، لتأثيث تفاهة الحياة، وبطش الزمن الأرضي بنا، نحن شظايا النجوم القادمة من نُجُومٍ، في دورة تشكلات

وانفجارات لا تكل ولا تمل... بَلْبَلْنَا (من blabla) في أمور شتى: الثقافة، الفضاء الرقمي، المرض، مآسي تحولات العائلة الموسعة إلى أخرى نووية، جراء إصرار بعضهم على لعب دور دون كيشوت القرنين العشرين والواحد والعشرين لوقف زحف التحول العظيم... خلال ذلك، صادفَنا أحد أقطاب صوفية المدينة، جلسَ هنيهة، وتحدث معنا قليلا، ثم قام وانصرف، إما حرصا على أن يكون خفيف الظل أو لأن أشغالا كثيرة كانت في انتظاره؛ فهو من أعيان المدينة...

*

* *

في قطار العودة، امتلأت المقصورة عن آخرها. ضمن الجالسين، كان هناك نصٌّ ونصٌّ ونصٌّ ونصٌّ، ولكن نصّ مكناسة كان أقوى وصوته أعلى، فضلا عن أنه كان أجمل: أنساني محطة الطلاسم الأربعة، وشاحنات هذا الصباح الأربع، بل وحتى حماري الإداري.

3) في مكَّة الإدارات

مساء البارحة اتجهتُ إلى مكة الإدارات، مصطحبا معي ملفي ليؤدي مناسك الحج، بعد أن طاف شهورا في عتبات إدارية مقدسة أخرى، فإذا بالموظفة تقول لي:

- يجب عليك أن تقدم ملفين منفصلين وليس ملفا واحدا! استنسخ كل الوثائق، ثم اعطني نسخة على شكل ملف أول، واحتفظ بالملف الثاني لكي نمر إليه بعد أن ننتهي من الملف الأول!

حسبتْ أنَّ الاستنساخ وترتيب الوثائق سيستغرقان مني وقتا طويلا، وأني لن أعود إليها قبل يومين أو ثلاثة، فإذا بي أنجز ما طلبته مني بسرعة البرق! عدتُ إليها:

- ها هي الوثائق داخل ملفين، بالشكل المطلوب!

- لا، رتِّبْها!

ربما حسبتْ أني سأعجزُ عن ترتيبها، جلستُ في أحد الكراسي ببهو الإدارة، ثم رتبتُها، وعدتُ إليها...

أمسكتْ الملف وهي لا تصدق، ربما ظنتني عجوزا أميا! تحققت من الترتيب، قالت:

- أه دابا «سِي بُّونْ» (c’est bon)

ذكرني مزجها في الكلام بين الفرنساوية والعربية بـ «الحاجة الفاسية العرنساوية» التي سبق أن خصصتُ لها إدراجا سابقا[16]. وبينما كانت مستغرقة في الاشتغال على الملف الأول، خامرتني فكرة أن أسألها أحد سؤالين:

- سبحان الله! بين كلامك وكلام الحاجة الفاسية «العرنساوية» شبه عظيم، هل بينكما صلة قرابة؟

أو:

- لماذا تجمعين في حديثك بين العربية والفرنسية مع أن لا شيء يدعو لذلك، فضلا عن أنك محتجبة، وأشد الناس دفاعا عن اللغة العربية هم الملتحون والمحتجبات؟!

خشيتُ أن تنتابها فورة غضب، فتصرخ بأعلى صوتها زاعمة أني تحرشتُ بها أو أني شتمتها، فأعاقبُ بتهمة التحرش أو إهانة موظفة أثناء مزاولة عملها، تراجعتُ...

---

[16] النص منشور ضمن الكتاب الحالي بالعنوان نفسه: «الحاجة الفاسية "العرنساوية"»..

انتهت من معالجة الملف الأول، قلتُ لها:

- لننتقل إلى الملف الثاني! (وكان عدد وثائقه أكبر من الأول).

قالت:

- لا أبدا! لن أستلم منك أي وثيقة ما لم تطعني الملف مرتبا كاملا من ألفه إلى يائه، بالترتيب التالي!

ثم سلمتني ورقة كُتبتْ فيها تعليماتُ الترتيب، على شكل طلسمٍ يُشبه النقش الذي تزعم كتب السحر أنَّ النبي سليمان كان يضعه في خاتمه ويحكُم به الجن والعفاريت، قبل أن تضيف:

- رتبْ كل شيء بنفسك. نحنُ مهمتنا هنا هي أن نستلم الوثائق وليس أن نرتبها!

ذكرتني كلمة «رتِّبْ» بإحدى معلمات الطفولة وهي تنشد علينا داخل الفصل الدراسي نشيد:

مثل الساعــة *** تِكْ تَكْ تِكْ تَكْ

دوما أبــــدا *** رتب وقتــك

وانهض باكــر *** واحفظ درسك

هممتُ بمخاطبة الموظفة:

- سبحان الله! ذكرتني بنشيد «رتِّب»!

ثم أنشد على مسمعها:

مثل الساعــة *** تِكْ تَكْ تِكْ تَكْ

دوما أبـــــدا *** رتب ورقــك

غلبني الضحك، أمسكتُ ضحكتي إلى أن غادرتُ البناية، وابتعدتُ عنها ببضعة أمتار، خشية أن تسمعني الموظفة، فتجري ورائي وتلحقني، وتمسكُ بي، وتسألني عن سبب الضحك، فتعرف الحكاية، وتعاقبني كما كانت تعاقبنا معلمة النشيد القديم!...

*

* *

في المنزل، بدل أن أصرف الليلة في حفظ دروس الترتيب التي تؤهل إلى فك مغالق الطلسم الآنف، نمتُ باكرا جدا، فرأيتُ الحلم التالي:

هرعتُ إلى أحد أعز أصدقائي، سبق أن أدى ملفه مناسك الحج، فاصطحب صديقي ملفه معه إلى المقهى، فأحسنَّا إليه إلى استحسن الجلوسَ واستحلاه، فأخرجتُ ملفي واستغرقتُ في ترتيبه، وأنا أختلس النظر إلى ملف صديقي:

أضع الطربوشَ في رأس ملفي، تماما مثل طربوش ملف صديقي، وأسوي جلبابي كجلباب صديقي، وقبي تماما مثل قبّه، وبلغتي مثل بلغته، أشذب لحية ملفي كما حلق لحية ملفه، وما إلى

ذلك، وأنا في منتهى الحرص على ألا يختل الترتيب، كأن أضع البلغة في المعصم، أو القبعة مكان السروال، أو السبحة في العنق بدل اليدين...

في الصباح الباكر، اتصلتُ هاتفيا بالصديق المذكور، فأحضر ملفه إلى مقهى، ورتبتُ ملفي من ألفه إلى يائه، بمساعدة صديقي، كما رأيت في الحلم تماما. لكن أثناء النقل اتضحَ أنَّ «الموظفة قد أخفت الإشارة إلى وجوب إحضار ثلاث حجرات للتيمُّم، لأن ثلاث صلوات أخرى ستكون في انتظار ملفي»، قال لي الصديق...

المحتـــوى

صدر للمؤلف

• أعمال سردية:

- **حديث الجثة**، مكناس، منشورات علامات، 1996.
- **كتاب الفقدان: مذكرات شيزوفريني**، الرباط، مطبعة المناهل، 1997.
- **سفر المأثورات**، الرباط، مطبعة المناهل، 1997.
- **بالعنف تتجدد دماء الحب**، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
- **كشف الغمَّة**، فاس، مطبعة بلال، 2019.

• دراسات:

- **ذاكرة الأدب: في الشعر والرو اية والمسرح**، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.
- **الإسلام والسحر**، الرباط، منشورات الزمن، سلسلة كتاب الجيب، العدد 16، يوليوز 2000.
- **هوامش في السحر**، القاهرة، وكالة الصحافة العربية، 2001.

• مترجمات:

- د. المصطفى الغربي، **الفرنكوفونية والتعريب وتدريس اللغات الأجنبية في المغرب**، ترجمة: محمد أسليم، مكناس، مطبعة سندي، 1994.
- جلبير غرانغيوم، **لغة العلاج والنسيان. دراسات في ألف ليلة وليلة والآيات الشيطانية**، ترجمة: محمد أسليم، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1996.
- المصطفى شباك، **الحداثة والتربية**، ترجمة: محمد أسليم، الدار البيضاء، دار الثقافة، السلسلة البيداغوجية، العدد 7، 1999.
- د. حميد الدليمي، **الدولة والأخلاق والسياسة في السياق العربي الإسلامي**، ترجمة: محمد أسليم، مكناس، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.
- جلبير غرانغيوم، **لغة العلاج والنسيان. دراسات في ألف ليلة وليلة والآيات الشيطانية**، ترجمة:

محمد أسليم، سندي للطباعة والنشر والتوزيع، 1996.

- جماعي، **الأدب الرقمي**، ترجمة: محمد أسليم، الرباط، الدار المغربية العربية للنشر والطباعة والتوزيع، 2016.
- جماعي، **الإنسان في مهب التقنية. من الإنسان إلى ما بعده**، ترجمة: محمد أسليم، فاس، مطبعة ووراقة بلال، 2019.

مو اقع المؤلف على شبكة الأنترنت:

مو اقع محمد أسليم:

الموقع الشخصي:

www.aslim.org

ميدوزا:

www.midouza.net/

كراسات ميدوزا:

http://midouza.blogspot.com

«راودتني فكرة أن أتسوَّل مقعدا، وذلك بأن أتجه صوب مسافر أو مسافرة بدينين، ممن يبدو أنَّ مرض القلب والشرايين متربص بهم جراء الخمول وعدم المشي، وأتظاهر بالتعب الشديد، ثم أدلي بملف المستشفى الكبير المكتوب على غلافه «أمراض القلب والشرايين»، كما يُدلي العديد من المتسولين بأوراق طبية لا أحد يعرف حقيقة ما إذا كانت صحيحة أم مزورة...»

البحث عن الذهب: معجزة الأصم الأبكم الذي تكلم

«الجنسُ في مجتمعاتنا وحشٌ مفترسٌ خطيرٌ، لا ينفع الفرار منه وتحاشي مواجهته، بالإعراض عنه والزهد فيه، لأنَّه قادرٌ على أن يخرج من أقرب مقبعٍ، ويثب على المختفي الزاهد، ويفترسه أبشع افتراس، كما من غير المجدي مواجهته، والانقضاض عليه، بالمطالبة به، أو ممارسته جهارا، لأنَّه يهزم الشخص الذي يجرؤ على ذلك، مهما بلغت قوته وشجاعته، بل وحتى وقاحته...»

مراقبة الهلال

«يعيشُ الإنسانُ دورةَ الحياة مثل نهر يسيلُ مُندفعا إلى الأمام، ملقيا في جانبيه معا بنفايات ومخلفا وراءه نفايات، همُ المَرضَى والعجَزة والقتلَى والمَوتى... وبما أننا جميعا نهرم ونمرض ونشيخ ونموتُ، فلا مفرّ لنا ولا إفلاتَ من أن نتحول إلى نفاية في مسيرة النوع الطويلة...»

الحاجة الفاسية «العرنساوية»